عليٌّ في إلتزام الحق

الشيخ ضياء الدين زين الدين

تمهيد

الكتاب الحائز على الجائزة الاولى في مؤتمر الغدير الذي عقد في لندن سنة ١٤١٠ للهجرة النبوية بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على إعلان الرسول (صلى الله عليه وآله) ولاية علي (عليه السلام) في غدير خم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل حاجة والصلاة والسلام على خير خلقه محمد واله المنتجبين...

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

مقدمة

الحمد لله لأمنية قديمة لدي في أن أجد الدراسة الإسلامية لحياة الرسول الأعظم (صلى الله عليه واله وسلم) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) من خلال ما يعنيه الاصطفاء الإلهي في ذواتهم المطهرة من دلالات خاصة..

الدراسة الإسلامية التي توحّد في أولياتها ومنهجيتها واستنتاجاتها بين مقتضيات هذا الاصطفاء وشرائطه، وما تجلت به شخصيات أولئك المنتجبين من سمات معجزة، وما تراءت به في كلماتهم ومواقفهم من خصائص عظمى.

أمنية قديمة لدي .. نشأت معي منذ أن وعيت بعض مستلزمات الاصطفاء الإلهي، وأدركت بعض ضروراته في موارده الأزكياء (عليهم السلام) ووعيت بعض جوانب العظمة في هؤلاء الموارد ومميزاتهم الخاصة في واقع الإنسان، وفي وقت افتقدت فيه تلك الدراسة ، إذ لم جد في المكتبة

الإسلامية ما يعينني على الوصول إلى الاطمئنان بفكرة واضحة ومتكاملة في هذا السبيل.

وطبيعي أن تزداد أهمية مثل هذه الدراسة مع تنامي الثقافة ومع انفتاح آفاق الوعي الإنساني على الإسلام ، وتطلعه لدلائل الحق فيه ، وإدراكه لجوانب العظمة في تجلياته، وإعجاز آثاره في النفوس، وفي كل جانب من جوانب الحياة.

..صحيح أن هناك جهودا مشكورة بحثت في موضوع الاصطفاء الإلهي، وما يعنيه هذا الاصطفاء من مفهوم، وشرائط.

..ان هناك جهود أخرى بحثت دلائل اختيار الله تعالى لتلك الذوات المطهرة وارتضائه اياها حملة لدينه القويم بما يرفع الشك أو الريب عن أي بصيرة متطلعة إلى الحق، والى حجة الله تعالى فيه..

..وان هناك جهودا مخلصة تتبعت ما ورد عن أولئك النجباء، وما خلده التأريخ من أحوالهم ومواقفهم وكلماتهم، مما يهدي المخلصين من الناس إلى الرشد والى الاستمساك بعروة الله الوثقى، في كل مسلك من مسالك الحياة، وفي كل صعيد من أصعدتها.

..وان هناك جهودا حاولت التعمق إلى منابع النور في سيرة هؤلاء الأصفياء وما أثر عنهم لتقتبس منها مناهج وتعاليم محددة واضحة المعالم، ينتج احكامها المهتدون في مختلف جوانب الحياة.

..وان هناك جهودا اخرى عرضت لنواحي اخرى في هذا المضمار او ذاك يراها المتتبع في مختلف ميادين المعرفة الاسلامية..

وأنا لا اغمط أياً من هذه الجهود ما يستحقه من الثناء والتقدير، فلكل منها فضله في سداد حاجة انسانية مهمة، في اتباع بصائر الهدى. الا انه لابد من القول كذلك.

ان جميع هذه الجهود ونتائجها تبقى في حاجة ماسة الى النقطة السابقة التي اشرت اليها..

..الى فهم ما يعنيه الاصطفاء الرباني في أولئك النجباء، ومايستوجبه من دلالات تمتد الى كل حالة فيهم، والى كل كلمة ينطقونها ، وكل موقف يصدر منهم . اذ لايمكن استيضاح أي من النتائج الاسلامية المطلوبة دون اعتماد تلك الدلالات وتجلياتها في شخصياتهم كافة، وفي كل ما يصدر عنهم من مواقف وكلمات. فالاصطفاء هو حقيقة وجودهم ومصدر الروح في حياتهم، كما انهم - في الوقت نفسه – مثله الشاخصة في واقع الانسان وتجلياته الفعلية في هذه الارض.

ولهذا فما يؤخذ هذا الاصطفاء وشرائطه ودلالاته في الاسس المبدئيه للجهد الذي يبذله في التعرف على واحد من موارده، او على ما يصدر عن هذا المورد من مواقف وكلمات، ولايمكن لهذا الجهد ان

يكتسب الطابع الاسلامي المطلوب، او يؤتي ثماره المبتغاة في الموازين الصحيحة التي يقرها الاسلام في التعامل معه، وان سما هذا الجهد دقة ومنهجية من جوانب اخرى.

بل – ومن ناحية اخرى اكثر اهمية – انه مالم تكن هناك دراسات اسلامية متكاملة الاصول والمناهج ، واضحة النتائج ، تاخذ بالافهام الى طبيعة التمازج والتوحد بين ذلك الاصطفاء، ومنتجيه من خلال الافاق الاسلامية السليمة، فإنّه من غير الممكن لاحد من الناس ان يدرك المعنى الصحيح للاصطفاء نفسه، او يعي شيأ من تجلياته المعجزة في ذويه، وان بلغ شأواً بعيدا في الثقافة الاسلامية، مالم يكن من ذوي الاختصاص في الدراسات الاسلامية.

..بمعنى ان معظم الناس – سوى أولئك المختصين – بعيدون كل البعد عن فهم جوانب العظمة الاسلامية في هذه الافاق العليا من البشر.

ولا ريب انه نقص فادح له سلبياته الكبرى حتى على علقة المؤمن بالاسلام ذاته، وعلى التزامه باصوله واذعانه لتراث مصادره النجباء (عليهم السلام (

يفترض ان تغيب هذه الناحية على المخلصين من حملة الفكر الاسلامي في مختلف العصور، فاهميتها اكبر من ان تخفى على ذي لب ، وكان جديرا بهم ان يبادروا الى سداد هذه الحاجة من كل وجه، واغنائها في الدراسة والبحث وايضاح مستلزماتها بما يتناسب ومتطلبات الاتجاهات الثقافية السائدة في كل عصر ومع مستويات المعرفة فيه.

..فالكل يعلم - ولو من خلال الاوليات العامة لدين الله تعالى ، ومن خلال ما هو ثابت من سيرة اولئك الاصفياء – ان الاصطفاء الالهي مميزات وضرورات يجب ان يبني عليها كيان كل منهم ، ليستطيع السمو الى مستوى الحق وشريعة وهداه ، بشكل مطلق ، سواء في مكوناته الذاتية ام في استقامة التامة مع امر الله (عز وجل) ، ام في تعبير عن حجة في كل ما يقوله وما يفعله...

كما ان الكل يقرأ قوله تعالى :(يا ايها النبي إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً) (١(

وقوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهير)(٢.(

وقوله (عز من قائل) : (ان الله اصطفى آدم ونوحا وال ابراهيم وال عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) (٣). الى غير هذه الايات والنصوص الواردة في مختلف المصادر الاسلامية ، وهذا كله من جهة .. ومن جهة اخرى ، فان الكل يعلم - حق العلم - ان احد لا

يستطيع فهم تلك الدلائل وتجلياتها في مكونات أولئك النجباء ، او ادراك حدودها بسهولة يمكّنه من اتخاذها أسساً واضحة المعالم في التعامل معهم واسترشاده لهداهم ، اللهم الا اذا كان على اطلاع واسع المعرفة الاسلامية، وقدرة كبيرة على متابعة جزئيات الامور فيها.

وسبب هذا العجز واضح كل الوضوح ، فان فهم هذه الدلائل وتجلياتها يستدعي من الانسان اقل تقدير، وحين يفتقد الدارسات المتكاملة فيها - احاطة واسعة بشتات متفرق من الاشارات السريعة والمقتضبة التي وردت هنا وهناك في مصادر العلوم والثقافات الاسلامية..

بل – وهي في مجموعها – اقل من ان توفي للمؤمن حاجته التامة هذه الناحية، ولا سيما هذا العصور التي تميزت بالسهولة والوضوح في تقديمها حتى لاعمق جوانب المعرفة، وعناصر الثقافة في مختلف الميادين..

وكل هذا يستدعي تركيز – ولو – بعض الجهود على هذه الناحية ، بما يعين طالب الحقيقة في تبصرها، وادراك ابعادها التي يحتاجها في علقته باولئك المصطفين (عليهم السلام (، وانتهاج سبيلهم.

الا انني – مع كل الاسف – لم اجد – وفي حدود اطلاعي القاصر – ولو واحدة من تلك الدراسات المتكاملة التي يمكنني ان اعتمدها انا في هذا المجال ، او ارشد اليها احد من اخوتي في الله .. يتخذها ركيزة ثابتة في تفهمه لمعالم الحق في شخصيات اولئك النجباء وما يعينه ارتضاء الله اياهم هداة للبشرية..

متطلبات الاصطفاء الالهي

ونستبين اهمية هذه الملاحظة أكثر ، حين نلتفت الى ان الاصطفاء الالهي لا يقف – في دلالاته ومقتضياته في منتجبيه – عند حدود الاعتبار والتشريع فحسب ، ولا يقتصر على اختيار بعض الناس، كي يقوم ببعض المهام الخاصة في حياة بعض الناس ،كي يقوم ببعض المهام الخاصة في حياة الناس ، لتسلم اليه جميع هذه المهام ونتائجها ، وما يمكن أن تؤول اليه من آثار في الحياة، دون ضمان من الله تعالى وتعهد منه ، يكفلان الوفاء بالحاجات الموضوعية التي يستوجبها ذلك الاصطفاء في شخصية، المنتجب، كاكمل واوضح ما يتطلبه الوفاء سواء في تكوين هذه الشخصية ، ام في الارصدة الذاتية لها، ام في اوليات السلوك فيها ، ام في مظاهر هذا السلوك وجزئياته.

اذا ما كان لدرجات كبرى جعلها الله تعالى لاصفيائه ، كمحمد بن عبدالله (عليه السلام) خاتم رسله (عليهم السلام) في البشرية – مثل الشهادة على الناس : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (٤.(

..والاولوية بالمؤمنين من انفسهم : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..) (٥(

ولأسوة الحسنة للإنسان في طريق الله تعالى ، واتباع بصائره : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر وذكر الله كثيراً) (٦(

....وما كان لأوامر الهية مطلقة ترد على البشرية كقوله تعالى:

)قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) (٧ .(

وقوله تعالى: (فلا وبك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً ...) (٨(

وقوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله وسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ...) (٩(

وما كان لنواهي إلهية شديدة كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعو أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهرو له كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون(10) (

وقوله عز من قائل : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.(11) (

وما كان لغايات إلهية كبرى اريد لها أن تحقق في حياة الانسان من انزال الاسلام على محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وتشريع حقائقه في مثل قوله تعالى : (الر كتاب انزلناه اليك من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) (١٢.(

)هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون(13) (

)هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (١٤(

وما كان هنان معنى لمصير ينتهي اليه الانسان في واقع الحياة ، وفي الحساب الالهي ، سواء في حالة انقياده لهدى هذا الرسول (صلى اله عليه واله وسلم) واتباعه له، ام في حالة النكول عنه ، وفي طاعة امره امة في عصيانه: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم . والذين امنوا وعملوا الصالحات وامنو بما نُزل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بان الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين امنوا اتبعوا الحق من ربهم) (١٥(

اقول: ما كان كل هذا واشباهه ليرد من الله سبحانه دون ضمان كامل منه، بأن يكون محمد)صلى الله عليه واله وسلم) هو السراج المنير ، والداعي اليه باذنه وان يكون سبيله هو الحق وان يكون في العالمين، وان لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (١٦ ( )ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحيٌ يوحى) (١٧(

الى غير هذه الضمانات المناسبة واستقامة الحق.

اذن فهي مسألة تكوينية قبل ان تكون قضية اعتبارية...

وهذه هي إحدى الفوارق المهمة بين الاسلام وغيره، فبينما يعتمد الاسلام هذه الاسس التكوينية، او الواقعية لبلوغ اهدافه في حياة الانسان، لا يرقي غيره من المذاهب والاديان في اولياته ومناهجه وغاياته الى ابعد من ظواهر الامور والاستحسان المتعارف بين الناس..

اذن ... فهناك حلقات مهمة ذات ابعاد، واسس تكوينية وتشريعية – معاً – هي التي تربط بين ذلك الاصطفاء الرباني لواحد من منتجبيه والامر بطاعة هذا المنتجب، واتباعه هدية في كل خطوة من خطواته..

ولكي يكون المسلم على بصيرة من التزامه الصحيح بدين الله القويم يجب ان يكون على شيء من العلم بتلك الحلقات – ولو في خطوطها العامة – قبل ان يستقيم في ايمانه بالله تعالى الى دينه زمان نفسه، ويمضي معه حتى النقطة النهائية المطلوبة منه فيه، والاستهداء بنوره.

فبتلك الحلقات التي تتجلى بها حقيقة الاصطفاء الالهي في ذواته – يستكمل الحق شرائطه التي سنعلم بعضا منها – بعون الله تعالى – في هدى الانسان وقيام حجة الله عليه.

وبتلك الحلقات تستتم للحكمة الربانية مقتضياتها في تلك النفوس السامية.. وبها كذلك تنتظم لسلسلة

الهدى بصائرها الربانية ومقتضياتها في تلك النفوس السامية .. وبها كذلك تنتظم لسلسلة الهدى بصائرها دون غموض او خفاء ، وبها يتضح لدين الله برهانه كواقع فعلي قائم في عالم الانسان.

فرق ما بين الجهد الانساني والرعاية الربانية الخاصة

ومن الثمار المهمة في دراسة هذا التمازج بين الاصطفاء الالهي ومنتجبيه، فهم الفوارق الكبيرة بين الجهد الانساني ، وهو يتطلع للكمال، ويداب ساعيا لبلوغه ومجالي الاصطفاء الالهي من المنتجبين.

فالانسان لا يستطيع السعي نحو الكمال الا بعد ان يصنع لنفسه فكرة خاصة عنه، قد تكون سليمة وقد تكون لا. ثم يمضي في سبيل يشرّعها هو لمسيرته قد تستقيم مع الواقع وقد لا تستقيم ، لينتهي معها الى نتائج معينة قد تحقق له الغاية وقد لا تحقق.

وهذه من جهة، بينما يتجلى في الجهة الاخرى دلائل الكمال الالهي، ومظاهر الحكمة الربانية، وهي تستكمل غاياتها في كل مورد من موارد ذلك الاصطفاء، وفي كل بعد من ابعاد شخصياته المرتضاه، وفي كل شأن من شؤونها.

اجل .. فالانسان في سعيه نحو الحق ، والكمال الذي يجسده انما ينطلق على اساس من صوره خاصة يراها هو لمفهومها ، وطبيعي ان تخضع هذه الصورة لكل ما يحكم الجهد الانساني من قصور في قابليات الانسان المحدودة، وخبرته الضيقة، وفهمه الذي لا يرقى ـ بأي حال من الأحوال ـ إلى درجة الاحاطه التامة بالواقع ودلائله وموازينه الكبرى، الا حيث ينتهل البصائر والهدى من حجة ربانية بالغة، والا حيث يستمسك بما تمليه عليه بنانها ، دون ان يحيد عنها في فكرة او ينحرف عنها في سلوك.

كما ان الانسان في مسعاه نحو غايته من الكمال، انما ينتج سبيلا معينة يؤمن بانها هي التي تبلغ به الى تلك الغاية، ولا ريب ان ادراكه هذا – وهو يفتقد الاحاطة المطلوبة بمستلزمات الحق – مما يقصر بتلك السبل – التي يشرّعها لنفسه – عن نيل الحقائق ، او يحيد بها عن مرامه منها ، مالم يعتمد فيها كذلك مددا مناسبا من هدى الله وبصائره.

وايضا، وحتى لو اعتمد الانسان دلائل البصائر الربانية التي ترشده الى مكامن الحق ، وادرك من سبل الهدى ما يمكنه من الوصول الى مبتغاه منها، دون قصور او انحراف ، الا انه لا يبلغ في مسعاه معها الى الدرجة التي يصبح وايّاها وحدة متكاملة ، اذ للذاتيات الانسانية احكامها في الاستجابة لهذا

الهدى والاقتباس من تلك البصائر .. مما يعني عدم قدرة الانسان على ان يجعلها في تصوره وسلوكه بتلك الدرجة المطلقة التي تمكنها من ان تمتلك جميع افاق نفسه، وتستوعب جميع محفزاتها الى الايمان به ، ودوافعها الى العمل في سبيله والمثابرة عليه دون تفاوت او اختلاف حتى في اعماقها حيث يعني التوحد مع الحق.

فلا ريب ان للاهواء، او الغايات الجانبية، او صوارف الحياة، من الاثار على شخصية الانسان ولو في بعض مراحل نضجها ما قد يعيقه عن الخلوص المطلق للحق، والتجرد للكمال، كما يقتضيه مفهوم الوحدة والاستقامة المطلقه معه. وان اكتملت لديه، جميع شرائطه الاخرى، وهو أمر يراه كل انسان من نفسه، قبل ان يراه من الاخرين.

اما في مورد الاصطفاء الالهي من الناس، فهناك كمال الهي مطلق ، وهناك حكمة ربانية شاملة وعلم نافذ في دقائق الامور، ورعاية خاصة كانت هي الرصيد الاول لذلك الاصطفاء وموارده كافة وهي الضمان الثابتة لتحقيق متطلباته ونتائجه في تلك الذوات، فمن الطبيعي - حينئذ – ان تكون لهذه التجليات الربانية دلالاتها في أي مورد ترد فيه، سواء في القيم العليا التي يترسمها هذا المورد ، ام في السبيل التي ينتهجها لنيل تلك القيم ، ام في الدرجة التي يحققها منها في حياته ، وفي أي بعد من ابعاد شخصيته، او موقف من مواقفه.

فمثل هذه الدلالات حتمية لا محيد عنها، بعد افتراض ان منشأ الاصطفاء هو الله سبحانه، اذ ان القصور او الانحراف مما يستحيل تصوره حينئذ ، لان الكمال المتصور هنا ليس جهدا انسانيا محدودا بقدر ما هو تجلٍ لتلك الرعاية الربانية العظمى التي اختارت هذا الانسان من بين البشر ، وارتضته لتحقيق هداه في الحياة ، وتعهدت ان يكون هو المثل الشاخص لبنيانها في هذا الوجود.

ومن هنا انبثقت الضرورة السابقة في ان لا يقف ذلك الاصطفاء مع تلك الذوات في حدود الله اختيار الله تعالى لها ألسنة لتبليغ حجته الى الناس فحسب ، بل لا بد ان يبدا معها منذ الاوليات التكوينية لوجودها، ليمضي معها حتى اخر مظهر من مظاهرها، وكل موقف من مواقفها ، فبهذه الطريقة وحدها تستكمل تلك الحكمة الربانية غاياتها في تلك الذوات ،وتستتم للاصطفاء فيها مقتضياته، فلا شذوذ ولا انحراف ولا قصور.

فعند هذا الاصطفاء تقف الحدود الانسانية القاصرة لتتخذ الرعاية الالهية دورها في بناء تلك الشخصيات، وتدبير شؤونها ، كما يقتضيه الحق ، وكما يعينه الهدى ، وكما يستوجبه الاسلام المطلق

لله تعالى ، والانقياد الشامل لبصائره ، وطبيعي ان تستكمل الرعاية الربانية دورها هذا بادق واتم ما للاستكمال من معنى ، دون ادنى خلل او تفاوت، اذا الكمال الذي تستند اليه كمال مطلق والقدرة التي تعتمدها قدرة مهيمنة.

ولهذا، فان ادرك تلك الذوات المطهرة من خلال هذه النقطة بالخصوص، واستيضاح دلالاتها فيهم ، واثارها في حياتهم هو الذي يضع الانسان في الطريق الصحيح في فهم السمات والملامح المعجزة التي يتميزون بها ، ومعرفة المدى الذي يجب ان تمضي فيه هذه السمات معهم ، وهي نتيجة لا يصل فهم الانسان اليها دون ملاحظة هذا العنصر المهم ، ودون استيضاح دوره في تكوين شخصياتهم ولا يخفى ما لهذه النتيجة من اثار ايجابية كبرى، سواء في تصور المسلم لحقيقة ذلك الاصطفاء ، ام في تلك تعرفه على ملامح تلك الذوات الزكية ، وفهم ما يصدر منهم ، ام طبيعة التزامه بهم كهداة له في اسلامه لله عزّ شأنه، واقتدائه بأنوارهم في طريقه اليه.

كما ان ادراك تلك الذوات المطهرة من خلال هذه النقطه بالخصوص يجب ان يكون هو المقياس الذي يميز به المرء، ويقوّم مختلف الدراسات التي تناولتهم بالبحث ، وحاولت استعراض حياتهم ومواقفهم، اذ من خلاله وحده تستبين معالم الكمال والنقص الذي يتسم به كل منها ومداه .. فان الدراسة التي لا تعتمد هذا الخط اساسا ارتكازيا لها، هي ادنى من ان تحيط بشيء من امرهم او تستوعب جانبا من عظمتهم.

والملفت للنظر : ان هذه النقطة – بالذات – هي الاساس الذي تعتمده نصون الاسلام كافة، في تعريفها لاي من شخصيات الاصطفاء الالهي ، وبيان بعض جوانبها واحوالها . مما يعني ان تقصير حملة الفكر الاسلامي في تجاهل هذه النقطه هو اكبر من ان يعتذر عنه بعذر.

وهكذا رايت ان استغل هذه المناسبة العظيمة في احتفال الامة الاسلامية بمرور اربعة عشر قرنا كاملة على موقف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) يوم غدير خم ، واعلانه لولاية علي بن ابي طالب (عليه السلام) على الاشهاد فيه ، واخذ البيعة له بها من الناس..

...كما رأيت ان استغل هذا المهرجان الاسلامي المقدس في اقامة هذه الذكرى الخالدة كمنبر اطرح فيه امنيتي هذه امام مخلصي حملة الفكر الاسلامي الابرار، بدعوتي الصريحة لتلافي هذا النقص المشين في الثقافة الاسلامية الرائدة ، قبل ان اطرحها بجهدي المتواضع هذا ، وانا استشرف الولاية وصاحبها العظيم (عليه السلام) عسى ان تجد دعوتي هذه صداها المناسب لدى أولئك المخلصين،

ليتخذوا منها موقفا يتناسب واهمية القضيه التي لا تخفى على لبيب.

والله تعالى اسال لي ولهم كل عون ومدد، ورعاية تسدد منا الخطى وتسير لنا المسعى نحو مرضاته انه سميع مجيب..

وختاما اقدم شكري لاخوة اعزة ، كان لهم الفضل في توجهي نحو هذا الجهد وتهيئة الظروف المناسبة للشروع فيه ، وانجازه بهذا الشكل الذي ارجو ان يجد فيه القارئ ولو بعض ما ينشده فيه.

كما اشكر اخوة اعزة كان لهم الفضل في ايصال ما كتبته الى لجنة التحكيم قبل فوات الاوان بالرغم من ضيق الوقت وعسر الطريق .

كما اشكر لجنة التحكيم من الفضلاء ورعاة الفكر الاسلامي التي اولته بعناية فائقة قد تكون اكثر مما يستحق..

ولا انسى ان اعتذر عن السرعة التي جرى فيها الحديث في الكثير من نقاط البحث ، اذ سيشعر القارئ معي انها بحاجة الى المزيد من البيان او التفصيل ، فضيق المجال هو الذي حتم علي مثل هذه السرعة والاختصار.

كما اعتذر كذلك من متابعة الكثير من الروايات التي اورتها في البحث من مصادرها الاولى ، والاكتفاء بما نقلته منه من المصادر ، اذ لم تتوفر لدي الان تلك المصادر الاولى . او ان تحصيلها هو مما يصعب عليّ ، اذ لم اجد في الوقت فسحة لمثل هذا التحصيل ، ولاسيما انني لم اجد ضرورة للمتابعة . بعد ان وجدت في المصادر التي اخذت منها تلك الاحاديث دقة في النقل اطمأنت اليها نفسي في صحة نسبتها الى مصادرها الاولى .. هذا مع انني قد اشرت في هوامش البحث الى كل من المصدرالذي اقتبست منه الحديث والمصدر الذي نقل عنه ذلك المصدر، ليتسنى لمن يروم التحقق من صحة النسبة الرجوع الى تلك المصادر الاولى حيث توجد لديه.

والله تعالى أسال ان يهيئ لي في المستقبل من القدرة والوقت ما يكفيني لتلافي هذا النقص وغيره مما اطلع انا عليه ، او يرشدني اليه اخوتي في الله..

ومنه سبحانه استمد التوفيق والسداد للجميع انه سميع مجيب.

20رمضان المبارك سنة ١٤١٠ للهجره

بين يدي البحث

يوم غدير خم ، والمشهد جرى فيه ، هو من الوقائع المتواترة بين المسلمين عامة ، ولا يناقش فيه ذو بصيرة منهم...

وموقف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) فيه لا يزال مشهوداً ، بالرغم من مرور هذه الحقب المتمادية من الزمان ، واعلانه الولاية الاسلامية الكبرى لعلي بن ابي طالب (عليه السلام) واضح البيان ، خالد الحجة ، ابديّ البلوغ مع بقاء الاسلام وخلوده ، وتكاد تتفق الاحاديث الواردة فيه حتى على الالفاظ التي تم بها هذا الاعلان ، وهي موجودة في معظم مصادر السنة النبوية وكتب التفسير والتاريخ والادب وغيرها مما عرض لحياة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ومواقفه وكلماته.

كما ان الحوادث التي واكبت ذلك الموقف لها صداها المعروف في تأريخ الامة المسلمة حيث يستحيل تجريد هذا التاريخ من اثارها ونتائجها ، وسواء في سابق الزمن ام في حاضره ام في مستقبله كذلك .

وكل هذه النواحي واضحة كل الوضوح ، ولا ريرتاب فيها احد اطلع على الحقائق منها ، وسياتي – ان شاء الله – بعض شواهدها ضمن هذا الحديث.

الا اننا – ونحن نحاول دراسة مشهد الغدير والولاية وشؤونها كالتزام اسلامي ، وفهمها كحقائق اسلامية خاصة ، تتراءى فيها متطلبات الاسلام وقيمه وشرائطه كافة وكاي حقيقة إسلامية اخرى – لابد ان نقف اولا عند بعض الاوليات المهمة التي يعتمده الحديث في مجرياته .. وهي اوليات يجب استحضارها في كل مرحة من مراحل البحث ، وفي كل نتيجة من نتائجه نصل اليها.

فهناك في البدء ما يعنيه مفهوم الالتزام ذاته، وما يتطلبه – في معناه العام – من شرائط في نفسه وفي منشئه ومتطلباته وحدوده.

وهناك ما يعنيه الالتزام الاسلامي بالخصوص من شرائط اضافية وحدود خاصة تتناسب وطبيعة الاسلام ذاته. كما لابد من الوقوف كذلك على صورة واضحة لمشهد الغدير نفسه ، فيها نوع من تكامل الملامح ، ووضوح الخطوط. اضافة الى التعرف على بعض الاحداث والجزئيات التي واكبت هذا المشهد ، لما لها من دلالات عميقة واثار كبرى في اكتمال تلك الصورة عنه ، وقيام الحجة الالهية به وبلوغها فيه . أي لما لها من دلالات في تحديد الالتزام الاسلامي لهذا المشهد ، وللولاية التي اعلنت فيه ، وللشخص المرتضى الذي اسندت اليه مهماتها ، وبالتالي لما لها من دلالة في تعيين مسؤولية المسلم تجاه ذلك الالتزام الاسلامي وحدوده.

(1)

شرائط الالتزام

الالتزام انما هو شأن الملتزم نفسه ، دون أي مصدر اخر يرد ضمن التزامه..

وهي قضية واضحة في أي التزام يصدر من أي ملتزم، وفي أي شأن من الشؤون، سواء في تعيين الملتزم به ، ام في تحديد موقعه ومهمته، ام في غير هذه النواحي .. ولا اعتقد ان احدا يناقش في هذا ،لما لهمن اصول عقلية مسلّمة،وعقلائية جرت عليها الحياة الانسانية في قولنينها ومعرفتها وتعارفاتها الشائعة بين الناس وعليها كذلك جرى الاسلام في مختلف حقائقه ومصادره التي يعترف بها لنفسه.

وطبيعي ان يكون هناك اختلاف في الموارد الفعلية لمفهوم الالتزام والملتزم وحدود كل منها ، لاختلاف الاعتبارات التي يلحظ هذان المفهومان من خلالها ومدى القابلية التي يقرها العقلاء لاي منهما.

فمن الالتزام ما لا يتجاوز شخص الملتزم وذاته فحسب ، ومنه ما يشمل الاخرين معه بدءا من الدائرة الاجتماعية الضيقة وقد تتسع لتشمل البشرية كافة في مختلف الازمنة والامكنة.

فمع الالتزام الشخصي (مثل) – حيث تكون للفرد قابلية على تحقيق مثل هذا الالتزام – فان الفرد لايسند اليه ولايحاسب الا بما اخذه هو على نفسه من عهد ، او اقر به عليها من عمل ،أو يؤاخذ شخص آخر بهذا الإلتزام أو يضفي عليه وإن كان من أقرب الناس إليه وأمسهم علقة به.

نعم ، قد يكون صدور هذا الالتزام سبيلا لبلوغ الواقع حين يؤيده القرائن .. أو يكون ذلك الشخص الآخر قد أقر على نفسه بالتزام مماثل .. وهكذا وهي نواح أخرى غير التي ذكرتها.

كما أن الالتزام الملتزم أو إقراره بشيء إنما يحدد في حدود يعينها هو لنفسه، دون ادنى تجاوز او قصور .. وهي كذلك مسالة واضحة وامثلتها معرفة لكل احد..

فانا انما يلزمني بشيء من الاشياء او بعهد من العهود هو ما آخذه انا على نفسي واقرّ به ضمن الحدود التي اعلنتها ، فلا اؤاخذ بما اقر به غيري على نفسه ، ولا العكس ، كما لا اؤاخذ انا بأوسع او ادنى مما التزمت به من الامور..

الا ان دائرة الملتزم قد تتسع مع اتساع موقعه، ودوره الذي يعترف به الاخرون له، ليصبح – من ثم

– ضمن التزامهم ايضا ، وفي حدود ما يقرون به على انفسهم ، فالقائم على هيئة من الهيئات ، او المتولي لامر جماعة من الجماعات، او المتنفذ في دولة من الدول ، يتسع التزامه ليشمل ما تحت مسؤوليته من الهيئات والجماعات او الدول ، بل و يشمل كل فرد ينتسب اليها .. فكلمات ذوي هذه المناصب واشباههم لا تلتزم اصحابها كاشخاص فحسب ، بل تشمل كل ما يتزعمونه فيها . كما ان الجميع لا يلزم بقرارات او التزامات غير ذوي تلك المناصب ، مهما كانت درجة تلك الهيئات او الجماعات او الدول.

وفي هذا الخط يرد الالتزام الفكري او المذهبي او الديني .. فهو انما يعتبر اذ قيمة اذا صدر ممن اهلتهم مواقهم الخاصة في مدرسة من المدارس الفكريه، او مذهب من المذاهب ، او دين من الاديان ، لا تخاذ القرار هذا او اصدار هذا الالتزام، وفي الحدود التي يقتضيها موقع كل منهم في مجاله، وفي مدى متطلباته ، دون أي مصدر اخر لاتعترف به تلك المدرسة او المذهب او الدين ، ولا يؤهله احد لا تخاذ مثل هذا وان كان من اكثر الناس قناعة به ، واشدهم تحمسا له ، او تمسكا بقضاياه وحقائقه.

والمناصب الالهية والاسلامية الكبرى كالرسالة والامامة والولاية العامة واسناد أي منها الى شخص معين من الناس انماترد ضمن هذه الحقيقة الواضحة ايضا.

فهي – كالتزام الهي واسلامي – يجب ان تستلهم مما جعله الله سبيلا لمعرفة هذا الالتزام منه تعالى ، ومما يعترف به الاسلام لنفسه من الحجج والبينات ، وان تؤخذ مما يقره لذاته من المصادر ، وفي الحدود التي تصرّح بها تلك الحجج، وتبينها هذه المصادر فحسب.

وفي المقابل فان الاسلام لا يلزم باي مفهوم او منصب لا يرد ضمن تلك البينات ، ولا يحتسب عليه أي شخص لم يضفِه هو على نفسه من الناس ، وان سمت معالم ذلك المنصب في التصور البشري، ومهما استقام ذلك الشخص في حياته وسلوكه مع حقائق الاسلام ومرتكزاته.. وهي نتيجة واضحة لما قلناه ، وقد ايدتها جميع النصوص الاسلامية الواردة في مختلف المصادر . كقوله تعالى :

)ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ..) (١٨(

)وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا ..) (١٩(

)واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (٢٠(

)انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (٢١(

) الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ..) (٢٢(

الى غير هذه الايات المباركات وعلى اساس من هذه الحقيقة ايضا ترد مسؤولية الانسان تجاه تلك المناصب الاسلامية ، اواتجاه مدعيها من الناس كذلك ، فما اقرّته مصادر الاسلام منها التزمه ، وفي حدود ما ذكرته له من مسؤولية والا فلا.

تناسب ما بين الالتزام والملتزم

ومما يستتبع في القضية السابقة قضية مهمة اخرى تتفرع عنها وهي : ضرورة التناسب ما بين الملتزم والتزامه ، واستقامة هذا الالتزام مع خصائصه ومميزاته.

ولهذه القضية اساسها المبدئي المعروف في قانون السببية، اذ لابد من التناسب او ما يسمى – بالاصطلاح الفلسفي – بالسنخيه بين السبب والمسبب ، وضرورة ان تبرز خصائص المسبب ومميزاته في كل ما يصدر عنه من اثار ، فالنار تصدر منها الحرارة والضوء دون البروده والظلام وهكذا..

ولهذه القضية كذلك اساسها العقلائي في حكمة الملتزم كعاقل مختار، فما يصدر عن احد العقلاء من الاعمال لا بد ان تتراءى فيه سجاياه وكفاءاته وقابلياته واصوله الاخلاقية ، وقيمه التي يسعى اليها في الحياة ، ومن هنا كان هذا التناسب احد الاوليات الاساسية التي ارتكزت عليها حياة الانسان ، وجرى عليها التعامل بين الناس ، في الصعيد الفردي او الاجتماعي ، وفي مجال السلوك العلمي او الفكري او الاخلاقي.

كما ان التناسب في صعيد المذاهب والاديان خاصة ، هو ما تقتضيه وحدة المذهب او الدين ككيان قائم له اصوله واهدافه الموحدة . فالتزام مذهب من المذاهب الاجتماعية او الفكرية ، او دين من الاديان لنظرية من النظريات ، او لحكم من الاحكام ، او شخص من الاشخاص ، لابد ان يعتمد فيه على اولياته المبدئية التي يستند اليها والاهداف والقيم التي يرتكزها في قيام كيانه ، وتعامله مع الانسان وتصوره للغايات التي يرنو اليها في قيادته له ، والا لم تستقم له وحدته ، ولم تتماسك له مفاهمه واحكامه وقيمه ..

وطبيعي ان لا يعدو الاسلام هذه القضية ايضا ، فما يلتزمه من فكرة، او منهج او شخص يجب ان لا يقتصر عن الاسس التي ينطلق منها الاسلام في وجوده ، وان لا يخرج عن الخطوط العامة التي

تنتظم بها حقائقه وقيمه كافة . فبدون هذه الوحدة بين تلك الاسس والخطوط وامتدادها فيما يلتزمه يستحيل ان يقوم له كيان متكامل او تنهض له بنية قائمة.

وكما تصدق هذه الضرورة في مختلف حقائق الاسلام حيث لا يستثني منها حقيقة ، فمن الطبيعي ان تصدق كذلك – وبما لها من شمولية ، وما تستوجبه من مستلزمات – في الولاية الاسلامية العامة فهي واحدة من اهمها – كما سنعرف ان شاء الله – كما تصدق في الشخص الذي اسندت اليه ، والقيت عليه مسؤولية الوفاء بمتطلباتها ، لانه – بهذا الاصطفاء لا يصبح واحد من تلك الحقائق الاسلامية الكبرى فحسب، وانما يصبح المثل الانساني القائم لجميع تلك الحقائق والسبيل للوصول اليها والحجة الربانية فيها ، ولهذا فالضرورة فيه اكد لما لشخصيته من شان رفيع في كيان الاسلام كله ، وقيمومته على كل حقيقة اخرى فيه.

اذن فدراسة ولاية علي (عليه السلام) من منطلق الالتزام الاسلامي تستوجب – ولا شك – استحضار بعض القيم والحدود العامة التي يعتمدها الاسلام في وجوده ككل، وفي الفكر والمناهج والاهداف والشخصيات التي يتبناها و – باختصار – في كل ما يمتّ اليه بصلة ..

فالوقوف على مثل هذه القيم مما يوضح لنا طبيعة الاسلام ذاته ، وطبيعة أي شيء ينتسب اليه.

لان القيم العليا للدين او المذهب ، - سواء منه الاسلام او غيره – انما هي الاسس التي يعتمد عليها مختلف حقائقه ، وهي الصبغة العامة التي تبرز من خلالها ملامحه ، وهي التوجهات العامة في انتظام مناهجه وسننه والسلك الرابط بين اولياته وتعاليمه وغاياته كافة.

(2)

القيم الاسلامية العليا

ما هي القيم العليا في الاسلام ..؟

وما هي الحدود التي بني عليها كيانه واقيمت عليها حقائقه؟..

وهمية هذا السوال المبدئي مما لا تختفي على احد من حملة الايمان، فالاجابة عنه في استمساك المسلم بدينه وايمانه باصوله وفروعه كافة ، هي من الاسس التي لا محيد عن اعتبارها ، لا في الحدود التي ذكرناها فقط وانما في أي موضوع او مفهوم يرد في الاسلام وفي أي بعد من ابعاده وفي

أي مجال من مجالاته.

ولبلوغ اجابة واضحة عن هذا السؤال يمكن سلوك العديد من السبل التي ينتهي كل منها الى عطاء صورة معينة عنها ، الا ان كل من هذه السبل اصوله الخاصة واتجاهاته الفكرية المعروفة لدى الباحثين المسلمين.

وحيث اننا لا نطمح هنا الى اكثر من الوصول الى فكرة اجمالية عامة عن هذه القيم والحدود ، فلا نحاول اكثر من الوقوق على بعض الدلالات السريعة لبعض النصوص الاسلامية – والقرآنية منها بالخصوص – وما تميل هذه الدلالات في بيان افاق تلك الفكرة ، دون الدخول في تفاصيلها ، لان هذه التفاصيل اوسع من ان يحاط بها في هذا الموقف المقتضب.

والملاحظ – في هذا المجال – ان النصوص الاسلامية الوردة في هذه الناحية تتخذ سبلا سهلة وواضحة في بيان هذه القيم ، بعيدا عن التداخلات الفلسفية التي تعتمدها المذاهب والاديان الاخرى ، وعن الغموض الذي يكتنف هذه التداخلات، وان كانت في الوقت نفسه هي الصورة المثلى التي يطمح اليها الجهد الانساني في تلك القيم.

فهي تركز على مفهوم الحق خاصة ، لتجعله القاعدة الاساسية الاولى للبنية الاسلامية كلها ، وما تحتويه من مفاهيم وسنن ثم – من هذا المفهوم – تنتزع جميع القيم والحدود الاسلامية الاخرى ، ليصبح الحق – من ثم – هو الطابع الواضح في تلك القيم والحدود كافة.

فالقران الكريم – مثلا ، وهو المصدر الاسلامي الاول – يتخذ مختلف السبل التي يعبّر عن هذه الظاهرة الاسلامية ، فهو يذكر في بعض آياته كلمة الحق صراحة ليجعلها الاساس الاول لقيام صرح الاسلام وحقائقه كافة ، والمحور الذي يستقطب قضاياه قبل ان يعبّر بهذه الكلمة عن الاسلام ذاته فيقول تعالى مثلا:

)انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيرا) (٢٣(

)يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ..) (٢٤(

)وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما ارسلناك الا مبشراً نذيراً) (٢٥) .. الى غير هذه الايات.

بينما هو في آيات اخرى يعبّر عن مفهوم هذه الكلمة من خلال بعض لوازمه ، كما في قوله تعالى:

)يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وانزلنا اليكم نوراً مبينا) (٢٦(

)وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) (٢٧(

)ثم جعلناك على شريعة من الامر ..) (٢٨) الى ايات اخرى وردت في مثل هذا المضمون .ولا نطيل في اقتباس مزيد من الايات ، كما لا نفيض بمراجعة مصادر اخرى غير القرآن الكريم من جوامع النصوص الاسلامية ، لان التزام الاسلام بهذا العنصر أجلى من ان يخفى على احد.

وهذا الارتباط الاسلامي المطلق بعنصر الحق، والتاكيد عليه في مختلف النصوص، يستوجب منا الوقوف على هذا العنصر بالذات ، ومحاولة التعرف على مقتضياته وملامحه في الدين او المذهب الذي يلتزمه كقيمة عليا فيه ، فمثل هذه المحاولة لابد منها في ادراك تلك الصبغة العامة في مختلف حقائق الاسلام وقضاياه .

ومع وضوح معنى كلمة الحق في الاستعمال اللغوي الجاري بين الناس ، الا ان تسلسل الحدث – بشكل متكامل الحلقات – يستوجب منا الرجوع الى ما كتبه اللغويون من معنى هذه الكلمة ، قبل ان ننطلق منه الى استلهام تلك الشؤون والمتطلبات لاحاطتهم – عادة – بموارد استعمال الالفاظ واوجهها.

ومما ذكروه في معنى كلمة الحق : انها ترد بمعنى المطابقة والموافقة ، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على الاستقامة – كما يقول الزبيدي في تاج العروس – ثم يضيف ايضا :

)والحق يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله تعالى : هو الحق ، وللموجود بحسب مقتضى الحكمة ولذلك يقال : فعل الله كله حق ، وللاعتقاد في الشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه ، نحو اعتقاد زيد في البعث حق ، وللفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وقدر ما يجب في الوقت الذي يجب نحو فعلك حق ، وقولك حق .(29) (

ومع تحليل بسيط لهذا النص ، نجد ان مفهوم (الحق) في الفعل او الاعتقاد او القول يستوجب وجود واقع معلوم وثابت تتجلى به معالم الحكمة ومتطلباتها، لتكون – من ثم – مطابقة فعل الفاعل ، او اعتقاده ، او قوله ، لذلك الواقع واستقامته معه حقاً، والا افتقد هذا المفهوم كل رصيد له في التحقيق.

اذن فوجود ذلك الواقع في نفسه ، و وجود الحكمة التي يركن اليها ، شرطان في تحقق هذا المفهوم نفسه، وهذه القضية – في افاقها العامة – ليست مجالاً لريب احد وعليها جرى الناس في استعمالهم لهذه الكلمة حتى في محاوراتهم العرفية الجارية ، فهم لا يسلَمون بأن قضية من القضايا هي من الحق، إلا حين يكون لها واقع يرتبط به مفهومها، ويستقيم معه دون خلل أو تفاوت.

ومن هنا أصبح هذا الارتباط والاستقامة من المقاييس المثلى في تمحيص الافكار والدعاوي وجوانب

السلوك وبيان مافها من قوة أو وهن.

ولكن السؤال المهم هنا هو : الى أي مدى يستطيع الانسان أن يجسد هذا المفهوم في تصوراته وأفعاله؟ وماهو مدى توفيقه في هذا المجال؟..

ومنشأ هذا السؤال هو بروز الفارق الكبير بين جلاء مفهوم كلمة (الحق) كفكرة تصورية قد لا يرتاب بها أحد ـ كما قلت ـ وغموضه كرصيد صعب المنال على الانسان في المجال التطبيقي لهذه الكلمة ، وبناء سلوكه واعتقاده عليه بشكل واضح لاغموض فيه ، ولا سيما في الالتزام الديني أو المذهبي.

إذن لابد من الاعتراف بأن ذلك الوضوح الذي لمسناه للحق ـ كمفهوم تصوري في وعي الانسان ـ لا يستتبعه وضوح مماثل في تطبيق هذا المفهوم في مختلف الموارد السلوكية والفكرية ، لأسباب سنتعرف على بعضها ـ ان شاء الله ـ وهو فارق أكبر من أن يخفى على أحد أيضاً.

فما أبعد مابين قناعات الناس وآرائهم ، حتى في المفاهيم العامة والبسيطة التي تعتمدها مجريات حياتهم اليومية!!

وما اكبر تفاوت مابين وجهات أنظارهم حول مايحيط بهم من شؤون ! ، أو حول أصوب السبل لبلوغ النتائج المناسبة في التعامل مع كل منها أو حول طرائق هذا التعامل وما أكثر دعاوى الحق في النظريات والاعمال التي يقوم بها الناس في كل صعيد وهكذا بل وحتى لدى الشخص الواحد ، فما اكثر مايقتنع المرء بفكرة خاصة حول أمر من الامور ويجري معه على اساس من قناعته هذه لفترة من الزمن ثم يبرز له من نقاط الضعف فيها مايجعله يرجح فكرة أخرى قد تكون على النقيض تماماً من فكرته السابقة ، وهو في كلتا الحالتين يرى أنه على حق ، وأنه يتطابق فيما يراه مع واقع الأمر ، وانه يتخذ السبل الصائبة في تعامله معه ، بل وهو في أحيان كثيرة قد ينتهي ـ بعدئذ ـ الى حالة ثالثة يستبين له معها أنه كان على خطأ في الحالتين السابقتين معاً !! هكذا..

وهذا بالنسبة الى المواقف الجزئية للفرد ، اما الاصول العامة للموقف .. اما المذاهب والاديان منها بالخصوص ، فان التفاوت فيها اجلى ، واثاره اعمق ، كما يبدو مع قليل من التامل.

من أسباب القصور الانساني

اما اسباب هذا الفارق في وضوح الحق بين المفهوم والتطبيق ، فيمكن تلخيصها في نقطتين جامعتين نشير اليها بشكل سريع..

أولاهما: ان الانسان انما يتعامل مع الامور من خلال فكرته الخاصة حولها، وعلى اساس مما يملكه من القابليات واصول الاختيار، ومما بلغه من خبرة فيها ، ومما تهيأ له من الوسائل التي يستعين بها لتحقيق اغراضه معها.

وجمع هذه الامور هي اقصر من ان ترقى بالانسان الى درجة الاحاطة الكاملة بواقع تلك الامور ، ولا تستطيع ان تسمو به الى استيعاب اطرافه كافة ليتطابق الانسان في تعامله معه.

فحدود هذه الاسس لا تعدو الظواهر البارزة من الاشياء ، وهي – في الوقت نفسه – محكومة لما تمليه عليها زاوية الملاحظة التي ينطلق منها الانسان في ادراكه للموضوع وفهمه لحالاته، وهي – كما نعلم – نقطة ضعف لا يستطيع الانسان تجاوزها الا حيث يستطيع الانطلاق من حدوده الانسانية القاصرة ، وهذا محال.

هذا في حين ان مفهوم الحق يستوجب الاحاطة الكاملة بواقع الامور كما هو وبما له من جذور وعلاقات يعتمدها في وجوده، فبمثل هذا الاستيعاب وحده يمكن تحقيق الموافقة المطلوبة والتطابق الذي يعنيه هذا المفهوم.

الثاني : التداخل الكبير بين العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية في تكوين فكرة الانسان حول شيء من الاشياء ، او امر من الامور ، وكذلك في تعامله معه.

فكما ان لواقع الشيء دوره في تلك الفكرة ، كذلك للعواطف والامال والرغبات ، وسائر الموجهات النفسية ادوارها التي لايمكن تجاهلها حتى في اوضح القضايا ذات الصبغة العلمية واكثرها موضوعية سواء في تحديد مدى الرؤيه وعمق الادراك ، اما في توجيه طريقة التعامل ، ام غيرها..

لان هذه الموجهات انما هي من مكونات الشخصية الانسانية ذاتها ، ويستحيل عليها ان تتجرد عنها بحال من الاحوال..

نعم ، ان بامكان الانسان ان يتلافى النتائج السلبية لهذا القصور حين يعي دور كل من هذه الموجهات ومدى آثارها في افكاره، وفي توسعه او تضييق نظرته حول الموضوع ، ومن ثم في بلورة فكرته التي ينتهي اليها معه ، ليضعه – من ثم – في ظلال الموضوع ، يستقيم مع مقتضياته، ضمن حدوده وقابلياته الخاصة . وهذا هو المفترض في الحكيم من الناس ، ذي البصيرة الواعية والتفكير الحر.

الا ان هذا التدخل بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية ليس هو من الوضوح - دائما – بدرجة تسعف الانسان في تحديد كل عامل ، او في تعيين دوره او اثاره ليتسنى له – من ثم – اتخاذ اصوب السبل للاستقامة مع الموضوع ، والارتفاع بنفسه الى مستوى الواقع ومقتضياته في بناء الفكر او السلوك.

بل، وكثيرا ما يتخذ هذا التدخل سبلاً هي اخفى من ان يشعر بها المرء فهو لا يعي حدود بعض العوامل ولا آثارها في ملاحظته ولو بنحو الاجمال ، بينما هي تمضي في حكمها ، وفي تاثيرها على الفكر والسلوك معا ، وما اكثر ما يؤمن الانسان بانه يتخذ الموضوعية منهجا له في دراسته لامر من الامور او في فكرته حوله ، ثم يستبين له بعدئذ انه على خطأ في ذلك الايمان - وانه يستكين لعوامل هي للذاتية اقرب منها للموضوعية . وهكذا.

وفي هذه الحالة يستحيل على المرء من الناس ان يتلافى نقصه او يوجه موقفه في الاتجاه السليم ، وان امتلك من الحكمة وحيوية التفكير ما ارتفع به الى ضرورة اتباع الحق وتحقيق متطلباته في فكره او سلوكه ، لانه – مع هذا الخفاء في مسارب القصور في وعيه –يعجز عن الارتفاع ، او تجنب سلبيات هذا التدخل واثارها . فهي تفرض احكامها عليه من حيث لا يشعر ومن حيث لا يستطيع تقديرها وتقدير اثارها تقديراً صائبا. فتظل طليقة في ذاته، من حيث يعتقد انه يستطيع الهيمنة عليها ، واخضاعها للواقع ومتطلباته كما يريد.

اذن ، فهاتان النقطتان (اللتان يستحيل تجرد الانسان عنهما والارتفاع بوعيه عليهما لانهما بعض مكوناته الذاتية) هما السبب في عجز الانسان عن استيعاب مقتضيات الحق في ادراكه للامور ، وهما كذلك منشأ اختلاف الناس في تصوراتهم ومعتقداتهم وطرق تعاملهم مع الاشياء والاحداث..

وكذلك فان لهاتين النقطتين اثرهما في تفاوت القيم واختلاف الموازين التي يُقوّم الناس بها مواقفهم في الحياة .. البسيط منها او المعقّد .. قريب المنال منها او بعيده.

فهذا الاختلاف والتفاوت لم ينشأ من جهة غموض في مفهوم الحق لدى العقل . ولابسبب واقع الموضوع الذي يتعامل معه الانسان ، او خفاء مايعنيه التطابق بين الفكرة والموضوع، وانما حصلا بسبب قصور الانسان عن استيعاب شؤون الواقع الملاحظ ، والاحاطة بمستلزماته، او بسبب عدم تمحض الانسان للحق فيه والركون اليه في حكمه عليه ، وعدم بلوغ بذاته الى درجة الارتفاع الى مستوى الاستقامة مع مقتضياته الفكرية او السلوكية.

في عالم المذاهب الاجتماعية العامة

وفي عالم القوانين والانظمة والاديان ..في عالم المذاهب الاجتماعية العامة .. في هذا العالم ، حيث يتطلب قيام المذهب افقاً واسعاً في نظرته للانسان ووجدوده وحياته، وفي علاقاته العامة والخاصة. وحيث يستوجب كمال المذهب شمولية في التصور، ووحدة متكاملة بين اجزائه، واتساق مبادئه وغاياته في مناهج نحدودة، ودقة في الملاحظة تغور الى اوليات الوجود الانساني ونهاياته..

اقول : في هذا العالم بالذات، تبرز ضرورة التطابق المطلق مع الواقع بشكل اوضح من غيره، كما يبرز قصور الانسان عن استيعاب لمتطلبات هذا التطابق اكثر من غيره ايضا .وفيه تتراءى حتمية الموافقة التامة مع الغايات الاولى للوجود – حيث يعتيه مفهوم الحق في هذا المجال – تتراى في كل بعد من ابعاد المذهب ، وفي كل مورد من موارده ، بادق ما للتطابق والموافقة من معنى ، لان أي انحراف عن ذلك الواقع – وفي أي موقع يتصور – سينعكس – ولا ريب – نتائج سلبية لا محيص عنها ، لا على المذهب وحده، وانما على حياة الانسان حين يلتزمه رصيداً لسلوكه ويمضي وفق تعاليمه، وسيكون ذلك الانحراف نقطة ضعف لافي خصوص الموقع الذي تحقق فيه من المذهب فحسب، وانما في الكيان العام لذلك المذهب كله، ومافيه من حقائق وقضايا يطرحها على الساحة الفكرية او التشريعية.

لان للمذهب – كما قلت – نوعا من الوحدة المتكاملة في الاجزاء والخطوط ، فالسلبيات التي تحصل في بعض المواقع لا تقتصر في اثارها على ذلك الموقع وحده وانما هي تمتد الى الموقع والشؤون الاخرى للمذهب ايضا ، وان كانت تلك السلبيات صغيرة ، ومحدودة التاثير.

ومن ملاحظة هذه الضرورة في عالم المذاهب من خلال النقطتين السابقتين بالخصوص تظهر حاجة المذهب في كل مورد من الموارد التي يطمح فيها الى نيل سمة الحق – بأكمل مالهذه السمة من معنى – الى مصدر سام ، وهو وراء الحدود المعروفة للانسان، بعيد عن التأثير –في علمه وحكمته وارادته بما يتأثر به الانسان من حدود وموجهات تقصر به عن نيل تلك السمة الرفيعة الى مصدر ذي علم مطلق ، وحكمة مطلقة ، وقدرة مطلقة لاتحده الظروف، ولاتحكمها الملابسات، ولا تعجزها تداخلات الوجود والموجودات.

..الى الله الذي خلق الانسان ، فقدر بحكمته وجوده، وهيأ له من القابليات والطاقات والخصائص ما

يمكّنه من القيام بمهمته التي اعده لها في هذه الحياة، لتؤخذ هذه المهمة بعيدا في الواقع الذي يجب ان يتطابق معه المذهب أيضاً لانها بعض من اتجاهات الانسان وتجليات الحكمة الربانية فيه..

فمثل هذا المصدر – وحده – هو القادر على تحقيق ذلك التطابق المطلوب ، والتصادق مع الواقع، كما يقتضيه مفهوم الحق، حيث يقتصر الانسان – كما قلنا – في حدوده المعروفة عن هذا المدى.

ولاتقف حاجة مذهب الحق الى هذا المصدر في حدود الانشاء او التشريع فقط، وانما هي تبقى طبيعية ثابتة فيه، ويجب ان تمضي معه حتى اخر مرحلة من مراحل وجوده ، وفي كل حقيقة من حقائقه وفي كل دور من ادواره في حياة الانسان ، لانها مراحل وحقائق وادوار ذات صبغة حيوية دائمة التطور والتفاعل ، يستحيل فيها بقاء ذلك التطابق دون مدد الهي مستمر ، يكفل استقامته ويمده بالروح والحيوية في كل مرحلة من مراحله.

وهذا يعني ضرورة ان يكون الله سبحانه وهو الضامن لقيام ذلك المذهب مع وجود الانسان في هذه الارض، وهو الراعي لاحكامه، والقيّم على امره مع استمرار الحياة الانسانية فيها ، ويستحيل ان يوكل حجته الى الانسان وحده، دون رعاية خاصة منه فالانسان – كما علمنا – محدود القابليات، عاجز عن الاستقلال بنفسه في الاستقامة المطلقة مع الواقع ، بعيدا عن التأثير بمختلف العوامل الذاتية القاصرة، مما يعني ان قصوره هذا سينعكس على أي شيء يتدخل فيه ، دون ذلك الضمان الالهي ، ودون رعايته الدائمة، وان لم يكن هذا التدخل ضمن مرحلة انشاء المذهب وصياغته الاولى.

اذن فالمصدر الالهي وحده هو الذي يستطيع ان يستكمل جميع الشرائط التي يستلزمها عنصر الحق فيه .. هذه الشرائط التي يقتضيها تحقق مفهوم الحق ذاته، وبني عليها كيانه في الواقع الفعلي للوجود..

وهكذا يمكننا ان نستلخص مجمل هذا الشرائط في المذهب الحق بما يلي:

-1ان يكون هناك تطابق تام بين المذهب وواقع الوجود الانساني، بما له من علاقات مبدئية مع مختلف ظواهر الوجود ، كما شاءته حكمة الخلق فيه وانشأته عليه يد التدبر الالهي.

-2ان تكون الاستقامة العامة مع مقتضيات ذلك الواقع هي السمة البارزة في كل حقائق المذهب وجزئياته، لتصبح هذه الاستقامة – وبما لها من بعدٍ حدّي دقيق – مقياسا ثابتا له في تمييز الحوادث والمواقف التي يمضي على اساسها في حياة الانسان.

-3ان يكون الوضوح الشامل في الدلائل والبينات هو المنهج البارز له في كل اصل يلتزمه، وفي كل

حقيقة يطرحها ، وكل حكم يشرّعه، وكل غاية يسعى بالانسان اليها.

وهي شرائط واضحة ، بملاحظة ما يعنيه المذهب في الحياة، وماله من دور اساس في قيادتها من جهة ، وبملاحظة ما يعنيه مفهوم الحق من مطابقة مع الواقع ومع مقتضات حكمة الله في الخلق من جهة اخرى.

شرائط الحق في الاسلام

وهكذا فحين تعهدت حكمة الله ان توفيّ للانسان حاجته الى مذهب الحق بالاسلام، وان تجعل هذا الدين القويم هو السبيل الذي يفتقر اليه الانسان في استقامته مع مقتضياتها العامة في حياته، فمن الطبيعي حينئذ ان تستوعب في هذا الدين جميع شرائط الحق تلك ، دون ادنى خلل او تفاوت، والا لم ينل تلك الصبغة، وهذا محال.

والايات الكريمة التي سبق ان قرأناها في بداية الفصل ، لتشير بوضوح الى اكتمال هذه الشرائط في دين الله ، وان حكمة الله تعالى قد تعهدت تحققها فيه، كما رسمتها – في الوقت نفسه – حدودا للانسان في كيفية تعامله معه ، ومقاييس لمحاسبة موافقة تجاه كل حكم من احكامه.

فآية (الجاثية) – مثلا – قد اشارت الى تلك المطابقة بين الاسلام وواقع التكوين، ومقتضيات حكمة الله فيه اذ قالت (ثم جعلناك على شريعة من الامر ، فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون). وفي هذا المضمون ورد العديد من آي القران الكريم وسياقاته منها قوله تعالى :

)ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٣٠(

)ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى . ان هو إلا وحي يوحى) (٣١(

اما شرط الاستقامة فقد ذكرته اية (المؤمنون) بلفظه الصريح اذ قالت:

)وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم

كما نصت عليه آيات كريمة اخرى، اذ قال تعالى :

)فاستمسك بالذي اوحى اليك انك على صراط مستقيم) (٣٢(

)وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم) (٣٣(

وكذلك الوضوح حيث اشارت اليه آية (النساء) ، اذ قال تعالى :) يا ايها الناس قد جاءكم برهان من

ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً(

وفيه ورد كذلك العديد من الايات المباركة كقوله تعالى :

)قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ..) (٣٤(

)قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) (٣٥(

اذن، فكما تعهدت حكمة الله ان يكون الحق هو الاساس في بناء الاسلام وقيام كيانه ككل التزمت كذلك للانسان ان تجعل هذه الشرائط ضمن هذا التعهد استكمالاً لتحقيق ذلك المفهوم فيه، فما لم يتوفر أي من هذه الشرائط في دين الله – كأسمى ما يكون التوفر – لايمكن ان يوجد هذا المفهوم نفسه ، وهذا محال – كما هو معلوم – اذ لا عجز في قدرة الله سبحانه، ولا عبث في حكمته ، ولا قصور في علمه.

شرائط الحق والمنتجبين

وكما يجب ان تكون هذه الشرائط ركائز اساسية في الاسلام ككل، يجب ان تكون كذلك اصولا عامة في كل عقيدة يعتمدها ، وفي كل عقيدة يعتمدها، وفي كل فكرة تصورية يطرحها، وكل منهج سلوكي يشرعه الانسان، وكل حكم يقضي به، وكل منصب يجعله، وكل اصطفاء منه لشخص من الناس يرتضيه وكل غاية يمضي بالانسان اليها.

فبدون ان نستوعب تلك الشرائط او هذه الفروع كافة لا يمكن للاسلام ان يستوفيها في كيانه العام كله، فمعروف انه كيان حيوي السمات، متكامل الابعاد متشابك الروابط والجذور، يستحيل فيه اقتطاع جزء من اجزائه، او انحرافه عن خطه العام ، دون ان تتأثر باقي الاجزاء او الهيكل الكلي العام له.

فمع هذه الحيوية لايمكن تحقيق تطابق الكل مع الواقع لو انحرفت بعض اجزائه عنه . ولاتمضي تلك الاستقامة في خط تلتوي بعض المواقع فيه عن الغاية.

ولا يتجلى الوضوح الشامل في امر لاتستبين بعض الموارد منه امام الوعي. وعلينا ان نتذكر ان خصائص الحق هذه حدّية شاملة لامجال فيها للتنازل ولا للمساومة ليستطيع الغض فيها عن بعض النقائص.

والمنتجبون الذين يصطفيهم رب الاسلام للقيام بمسؤوليات تلك المناصب العليا فيه ويختارهم امثلة شاخصة لحقائقه واحكامه، يجب ان لا يعدوا – بدورهم – هذه الشرائط ، وبادق مالها من معنى، وفي

كل افاق شخصياتهم وفي كل عمق من اعماقها وجذورها العقلية والوجدانية والنفسية، - وباختصار – في كل ما يستوجبه هذا الاصطفاء الالهي وما تتطلبه شمولية الحق فيه، واستقامته المطلقة معه ، ووضوح دلائل الهدى منه، اذ يستحيل الاستثناء او الانحراف عن مقتضيات حكمة الله في موقف، وتجاوز امر الله ونهيه في عمل ، حتى في جزئيات القضايا والحالات التي تصدر عن اولئك الصفوة ، بل وحتى في الاصول الاختيارية لتلك القضايا والموافق ، فهي جميعها – بعد تحقق الاصطفاء الالهي – تصبح بعض حقائق الاسلام ، ومظهرا فعليا من مظاهره ، والاختلاف او التفاوت ينعكس – ولاريب –في سلبياته على ذات الاصطفاء ، وان كان ضمن تلك الجزئيات البسيطة ، وهذا محال كما هو واضح.

وهذه ضرورة اخرى في ان يناط اجتباء احد من الناس للقيام بتلك المهمات الكبرى في الاسلام بالله وحده ، فهو العليم بخلجات النفوس ، وخواطر الاوهام ووساوس الصدور.

وهي نتيجة واضحة كل الوضوح ولاسيما بعد الحديث السابق.

فكما علمنا ان الاسلام لا يلزم بغير من يلتزمه هو نفسه من الناس ، لانه شأنه الخاص فكذلك الامر هنا ، فان شرائط الحق تلك لا يمكن ان تتوفر في شخص من الناس ، دون تعهد ربّاني خاص ايضاً.

اذ الاعماق التي اخذت في تلك الشرائط من جهة ، وسعة اطراف الوجود الانساني والتكويني من جهة ثانية ، وقصور الانسان عن ادراك متطلبات الحق من جهة ثالثة، وهوة تاثير الاهواء والمصالح والانحرافات النفسية والاجتماعية على الفرد من جهة رابعة .. كل هذه الامور مما يحيل على الانسان ان يستقيل باستيعاب تلك الشرائط في نفسه هو ، او العلم بمواقعها في اعماق ذاته، وفيما يصدر عنه من سلوك ضمن مسؤليته الشخصية الخاصة ، فيكف يتسنى له أن يستوعبها ضمن مسؤوليات اجتماعية عامة بل ومسؤوليات تكوينية اوسع من حدود الانسان العادي، حيث يعنيه دور الاسلام في هذا الوجود، ليصبح –من ثم – ذلك المثل الشاخص له في عالم الانسان، ويستوفي مهماته المطلوبة منه في الحياة..

وكيف يتسنى له ان يلمس هذا الشرائط في غيره من الناس ليختاره صفوة اسلامية تتجسد بها حقائق الاسلام وشرائطه كافة ، دون تعيين الهي خاص ؟ هذا في حين ان المرء يعلم من نفسه ما لا يعلمه عن غيره، وان كان من اقرب الناس اليه ، كما يملك من زمام نفسه ما لا يملكه من ازمة الاخرين..

اذن فلابد ان يكون ارتضاء وانتجاب مثل هؤلاء الاصفياء صادرا من الله تعالى وحده ، وان يكون هو

المتعهد لتحقيق تلك الخصائص فيهم ، وفي كل ما يصدر عنهم ، ما دام أي سلوك منهم ، واي قول هو من متطلبات ذلك الاصطفاء ايضا.

ولابد من ان يستمر ذلك التعهد معهم مادامت مسؤولياتهم هي تجسيد حقائق الاسلام في البشرية ، وقيام حجته الكبرى بين الناس، ليمدهم بمنابع النور ووسائل الهدى بما يكفل تحقيق مهماتهم تلك ، دون قصور او وهن.

وشرائط الحق هذه هي المائز بين صادق الدعاوي بالانتساب الى دين الله عز وجل وكاذبها. فمع ان هذا الانساب مطمح سام تشرئب اليه الاعناق كافة ، وتتطلب اليه النفوس، الا ان هذه الشرائط مما يستحيل تجسيدها – بتلك الصورة الحدّية والشاملة التي ذكرناها – في شخص لم ترد في اصطفائه حجة الهية قاطعة، ولم تتعهده رعاية ربانية مباشرة، تضمن بنفسها تحقيق تلك الدلائل في ذاته، فلا يتخلف عنها في تصور، ولا يتفاوت مع متطلباتها في سلوك، ولا يقتصر عن الوفاء بمهماتها في موقف.

ولاية علي وشرائط الحق

وولاية علي (عليه السلام) يجب ان ترد ضمن هذا المسلك الاسلامي العام ايضاً:

فهي بعد ان يتضح التزام الاسلام لها ولوليها العظيم (عليه السلام) يجب ان تصبح واحدة من تجليات الحق في دين الله ايضا ، وان تستقيم فيها مستلزماته كافة دون أي تفاوت..

وكما تضطرد هذه الضرورة في ذات الولاية – كمنصب اسلامي خاص – يجب ان تضطرد ايضا في علي (عليه السلام) كمصطفى رباني لهذا المنصب ، ومنتجب من الله سبحانه لاشغاله. اذ لابد ان يكون خلوصه لذات الله ، وتجرده للحق منذ اعمق اعماق وجوده الاولى ، واوليات تكوينه الذاتي ، وحتى اخر مظهر لسلوكه واقواله ، ليثبت ان اختياره لهذا المنصب العظيم انما كان من عند الله تعالى وحده ، وانه سبحانه بحكمته وقدرته هو الضامن لاستقامة الحق فيه. اذ يستحيل – حتى على علي (عليه السلام) نفسه – ان يستقل بهذه الاستقامة دون رعاية ربانيه خاصة.

وليس من الغريب ان نتصور استكمال تلك الشرائط كافة في الولاية الاسلامية ، ولا في شخص علي (عليه السلام) بعد ان ندرك ثبوت الحجة الالهية القاطعة فيها ، كما لم يكن من الغريب تصورها في أي حقيقة اسلامية اخرى.

فهناك التزام الهي ، وهناك ضمان رباني خاص ، وهناك تعهد حكيم باستقامة الحق في دينه القويم، وهو ضمان وتعهد لابد ان يتحققا، بادق واوفى مالهما من معنى، اذ ليس في قدرة الله تعالى عجز، ولا في حكمته عبث، ولا في علمه قصور ، وتعالى الله عن أي نقص.

وهكذا كان لابد من دراسة هذه الخصائص في ولاية علي (عليه السلام) ، بعد ان نقف على بعض ملامحها وحدودها العامة ، على ان نستتبعها – ان شاء الله – بدراسة هذه الخصائص كذلك في شخصية علي (عليه السلام) نفسه ، لنستكمل التعرف على هذه الناحية في دين الله من خلالهما، ومورد رعايته له ، وعنايته به مع التزامه اياهما حقائق جلية من حقائق. هذا كله قبل الاشارة الى ما تعنيه هذه الشرائط في مسؤولية المسلم تجاه دين الله تعالى وتجاه ولايته الكبرى وأوليائه (عليهم السلام) عامة وتجاه علي)عليه السلام) وولايته خاصة.

والله تعالى هو الموفق ومنه العون.

(3)

مشهد الغدير في السنة

تمهيد

لا ستخلاص صورة واضحة المعالم عن مشهد الغدير، وعن الولاية التي اعلنت فيه، لابد من الالتفات اولا الى بعض القضايا المهمة التي يجب ان تؤخذ بالحسبان، لما لها من تاثير فعال في تكامل هذه الصورة واتضاح ملامحها وخطوطها في الفكر.

واهم القضايا:

اولا: مرور هذه الحقب التأريخية المتمادية بين يوم الغدير وهذه العصور الراهنة التي نعيش فيها ، وهي حقب يستوجب مرورها – ولاريب – خفاء الكثير مما سجله التأريخ عنه ، وافتقاد الكثير من الجزيئات المهمة التي جرت فيه ، وطبيعي ان للكثير من تلك الجزئيات اثره في بلورة الملامح المطلوبة منه ، ووضوح أبعاد الصورة الحقيقية له في بصيرة الانسان المتتبع .

ثانيا : افتقاد ذلك العصر الذي وقع فيه مشهد الغدير لما يعرف اليوم بالوثائق التسجيلية التي يمكنها ان تخلّد الوقائع والاحداث والكلمات التي يراد تخليدها كما هي وكما يراد لها ان تخلده ولهذا فقد اسند نقل المشهد وتخليده الى ذاكرة الامة المسلمة ورواة احاديث السنة فيها ، اذ لايمكن تحصيل ماهو

اكثر دقة ، واتم كفاءة من هذه الطريقة ، لعامل الزمن ، والمستوى الحضاري المعروف.

ثالثاً: مجانية معظم تلك الحقب التأريخية لموقف الغدير ، وللولاية التي اعلنت فيه ، وتنكبها عن طريقها ، بل واتخاذها لعامل الصراع والسلبية سمة اساسية في علقتها معهما، ومع كل ما يمت اليهما بصلة ، ولم تخف محاولاتها المستميتة لطمس معالم الحجة الالهية فيهما، ونقض دورهما في دين الله ، واستئصال اثارهما في حياة الامة المسلمة.

وهي امور معلومة الوقائع ، يراها كل احد من المسلمين في حياته الجارية على امتداد التأريخ وسيأتي – ان شاء الله – بعض شواهدها التي ذَكَرتها مصادر التأريخ، في عصور كان لها دورها المؤثر في بناء الاتجاهات الفكرية والعقائدية للأمة المسلمة.

رابعاً: اننا في محاولتنا لاستشفاف الصور التي نريدها حول الغدير ، انما نتعمد على ذكره شهداء الغدير من الرواة، وحكايتهم لما رأوه فيه، وحينئذ.. فيجدر بنا ان لا نغفل ما هو المعروف في مثل هذه الحالات من المشهد، دون العادة – انما يركز انتباهه على نقاط معينة تستلفت نظره مما يراه من المشهد، دون استيعاب لما يراه فيه من القضايا، بل ولما يراه من الحوادث والمجريات التي لا تثير اهتمامه.

وواضح ان هذه الحوادث قد تكون ذات اهمية كبرى في ذلك المشهد، وفي الغايات الاساسية للقائمين به..

كما ان الراوي نفسه – وهو يتحدث عنه – انما يذكر في حديثه خصوص ما يتطلبه الموقف الذي دعاه للحديث دون غيره من النواحي ، وان كان قد استوعب في ذاكرته ما هو اوسع من موضوع الحديث.

ولهذا فان استخلاص صورة واضحة عن هذا المشهد او ذلك ، تستدعي استعراض العديد من الروايات الحاكية عنه، حيث يمكن ان تتكامل ملامح هذه الصورة من الجميع لامن بعضها خاصة.

اذن فلابد لنا هنا من تقديم العديد من الروايات التي وردت في استعراض مشهد الغدير ، والاحداث التي واكبته ، ومن مختلف المصادر ومختلف الرواة لا ستلهام ملامح الصورة التي نطمح اليها فيه ، قبل ان نستطيع دراسة ما يعنيه التزام الالهي له ، ولما يرتبط به من امور.

من احاديث الغدير

ونحن نذكر هنا عشرة من الاحاديث التي عرضت لموقف الغدير نقدمها – اولا - دون تعليق، ونكتفي بقراءة متانية متأملة لها . ثم نستذكر فيما بعد – ان شاء الله – بعض ما يمكن استلهامه منها، حول هذا الموقف الخالد ، وما يبرز له من ملامح وابعاد ونتائج.

-1 ما رواه ابو الطفيل عن حذيفة بن أسيد قال :

لما قفل رسول الله (صلى الله عليه واله وسلّم) من حجة الوداع ، نهى عن شجرات بالبطحاء متقاربات ان ينزلوا حولهن ، ثم بعث اليهن فصلى تحتهن، ثم قام فقال :

ايها الناس ، قد نبأني اللطيف الخبير : انه لم يعمر نبي الا مثل نصف عمر الذي قبله، واني لاظن ان يوشك ان ادعى فأجيب. واني مسؤول، وانتم مسؤولون فماذا انتم قائلون ؟..

قالوا: نشهد انك قد بلّغت ونصحت وجهدت ،فجزاك الله خيرا.

قال: ألستم تشهدون ان لا اله الا الله ، وان محمد عبده ورسوله، وان جنته حق ، وان ناره حق، وان الموت حق ، وان الساعة اتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور ؟..

قالوا: بلى ، نشهد بذلك.

قال: اللهم اشهد ، ثم قال: يا ايها الناس، ان الله مولاي وانا مولى المؤمنين، وانا اولى بهم من انفسهم، من كنت مولاه فهذا – يعني علياً – مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

ثم قال: ايها الناس اني فرطكم ، وانكم واردون علي الحوض، حوض اعرض مما بين بصري وصنعاء فيه آنية عدد النجوم ، قدحان من فضة، وأني سائلكم – حين تردون علي – عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيها : الثقل الاكبر: كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرف بايديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا .. عترتي اهل بيتي فانه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.(٣٦(

– 2ما رواه زيد بن ارقم قال:

اقبل النبي (صلى الله عليه واله وسلم) في حجة الوداع ، حتى نزل بغدير الجحفة بين مكة والمدينة ، فأمر بالدوحات فقمّ ما تحتهن من شوك ، ثم نادى الصلاة جامعة، فخرجنا الى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) في يوم شديد الحر ، وان منا من يضع رداءه على راسه وبعضه على قدميه من شدة الرمضاء ، حتى اتينا الى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) فصلى بنا الظهر ، ثم انصرف الينا فقال:

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به، ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا ، الذي لاهادي لمن ضل (كذا في النسخ والصحيح اضل) ، ولا مضل لمن هدى ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله.

اما بعد ، ايها الناس، فانه لم يكن لنبي من العمر الا النصف من عمر الذي قبله، وان عيسى بن مريم لبث في قومه اربعين سنة واني شرعت في العشرين ، الا واني يوشك ان افارقكم ، الا واني مسؤول وانتم مسؤولون، فهل بلغتكم ؟ فماذا انتم قائلون ؟

فقام من كل ناحية من القوم مجيب يقول : نشهد انك عبد الله ورسوله ، قد بلّغت رسالته ،وجاهدت في سبيله، وصدعت بأمره ، وعبدته حتى اتاك اليقين ، جزاك الله خير ما جزى نبياً عن امته.

فقال : الستم تشهدون ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، وان الجنة حق ، وان النار حق ، وتؤمنون بالكتاب كله ؟ قالوا : بلى

قال: فاني اشهد ان قد صدقتم وصدقتموني . الا واني فرطكم ، وانتم تبعي توشكون ان تردوا علي الحوض، فأسالكم حين تلقوني عن الثقلين، كيف خلفتموني فيهما.

قال: فاعتل علينا ما ندري ما الثقلان ، حتى قام رجل من المهاجرين ، فقال بابي انت وامي يا رسول الله ، متا الثقلان ؟.

قال : الاكبر منهما : كتاب الله ، سبب طرف بيد الله وطرف بايديكم ، تمسّكوا به ولا تولوا ولا تضلوا والاصغر منهما عترتي ، من استقبل قبلتي واجاب دعوتي ، فلا تقتلوهم ولا تقهروهم، ولا تقصّروا عنهم ، فاني قد سألت لهم اللطيف الخبير فاعطاني ، وناصرهما لي ناصر ، وخاذلهما لي خاذل ، وولّيهما لي ولي ، وعدوهما لي عدو. الا فانهما لم تهلك امة قبلكم حتى تدين باهوائها وتظاهر على نبوتها وتقتل من قام بالقسط ..ثم اخذ (صلى الله عليه واله وسلم) بيد علي بن ابي طالب ورفعها فقال:

من كنت وليه فهذا وليه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .. قالها ثلاثاً .(٣٧(

-3ما رواه ابن عباس قال:

لما امر النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ان يقوم بعلي بن ابي طالب المقام الذي قام به ، فانطلق النبي (صلى الله عليه واله وسلم) الى مكة فقال:

رأيت الناس حديثي عهد بكفر الجاهلية، ومتى افعل هذا، يقولون صنع هذا بان عمه:

ثم مضى حتى قضى حجة الوداع ثم رجع حتى اذا كان بغدير خم انزل الله (عز وجل : ( )يا ايها الرسول بلّغ ما انزل اليك من ربك ..) (٣٨) ، فقام مناد فنادى الصلاة جامعة ، ثم قال واخذ بيد علي فقال :

)من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)(٣٩.(

-4ما رواه ابن عباس ايضا ، قال :

لما خرج النبي (صلى الله عليه واله وسلم) الى حجة الوداع نزل بالجحفة ، فاتاه جبرائيل (عليه السلام) فامره ان يقوم بعلي فقال (صلى الله عليه واله وسلم : (ايها الناس ، الستم تزعمون اني اولى بالمؤمنين من انفسهم ؟.

قالوا : بلى يا رسول الله.

قال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، واحب من احبه ، وابغض من ابغضه، وانصر من نصره واعز من اعزه ، واعن من اعانه.

قال ابن عباس : وجبت – والله – في اعناق القوم (٤٠.(

-5ما رواه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قال :

نصب رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) علياً علماً فقال:

من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه واخذل من خذله وانصر من نصره اللهم انت شهيد عليم.

قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، وكان في جنبي شاب حسن الوجه طيب الريح قال لي : يا عمر لقد عقد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) عقدا لا يحله الا منافق.

فاخذ رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بيدي فقال : يا عمر ، انه ليس من ولد ادم لكنه جبرئيل اراد ان يؤكد عليكم ما قلته في علي (٤١.(

-6ما رواه زيد بن ارقم قال :

لما نزل النبي (صلى الله عليه واله وسلم) بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع، وكان في وقت الضحى وحر شديد ، امر بالدوحات فقمّت ، ونادى الصلاة جامعة ، فاجتمعنا ، فخطب خطبة بالغة ثم قال:

ان الله تعالى انزل الي:(ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله

يعصمك من الناس) وقد امرني جبرئيل عن ربي ان اقوم في هذا المشهد ، واعلم كل اسود وابيض ان علي بن ابي طالب اخي ووصيي وخليفتي والامام بعدي ، فسألت جبرئيل ان يستعفي لي ربي ، لعلي بقلة المتقين، وكثرة المؤذين لي ، واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة اقبالي عليه حتى سموني اذنا فقال تعالى: (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن . قل اذن خير لكم ..)(٤٢) لو شئت ان اسميهم وادل عليهم لفعلت ، ولكني بسترهم تكرّمت ، فلم يرض الله الا بتبليغي فيه.

فاعلموا – معاشر الناس – ذلك ، فان الله قد نصبه لكم وليا واماما ، وفرض طاعته على كل احد ، ماضٍ حكمه ، جائز قوله ، ملعُون من خالفه مرحوم من صدّقه ، اسمعوا واطيعوا ، فان الله مولاكم وعلي إمامكم ، ثم الامامة في ولدي من صلبه الى القيامة ، لا حلال الا ما احله الله ورسوله ، ولا حرام الا ما حرّمه الله ورسوله وهم . فما من علم الا وقد احصاه الله فيّ ونقلته اليه ، فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه ، فهو الذي يهدي الى الحق ويعمل به ، لن يتوب الله على احد نكره ولن يغفر له، حتما على الله ان يفعل ذلك ، وان يعذّبه عذابا نكرا ابد الابدين.

فهو افضل الناس بعدي ما نزل الرزق ،وبقي الخلق ، ملعون من خالفه، قولي عن جبرئيل عن الله (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) (٤٣).

افهموا محكم القرآن ولا تتبعوا متشابهه، ولن يفسّر ذلك لكم الا من انا آخذ بيده ، وشائل بعضده ، ومعلمكم : من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، وموالاته من الله عز وجل انزلها عليّ ، الا وقد اديت الا وقد بلّغت ، الا وقد اسمعت ، الا وقد اوضحت، لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لاحد غيره.

ثم رفعه الى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وقال :

معاشر الناس ، هذا اخي ، ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من سسآمن بي وعلى تفسير كتاب ربّي . (وفي رواية) اللهم وال من والاه وعاد من عاداه والعن من انكره ، واغضب على من جحد حقه. اللهم انك انزلت عنه تبيين ذلك في علي : (اليوم اكملت لكم دينكم) (٤٤ (بامامته . فمن لم يأتم به ، وبمن كان من ولدي في صلبه الى القيامة فـ (اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون) (٤٥..)

ان ابليس اخرج ادم (عليه السلام) من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد ، فلا تحسدوا فتحبط اعمالكم ، وتزل اقدامكم في علي نزلت سورة (والعصر ان الانسان لفي خسر (

معاشر الناس (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا) (٤٦) (من قبل ان نطمس وجوها فنردها

على ادبارها او نلعنهم كما لعنّا اصحاب السبت) (٤٧) النور من الله فيّ ، ثم في علي ، ثم في النسل منه الى القائم المهدي.

معاشر الناس : سيكون من بعدي (أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون) (٤٨ . (وان الله وانا بريئان منهم ، انهم وانصارهم في الدرك الاسفل من النار ، وسيجعلونها ملكا اغتصابا فعندها يفرغ لكم ايها الثقلان ويرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران .. الحديث (ضياء العالمين) (٤٩).(

-7ما رواه زيد بن ارقم كذلك في تتمة الحديث السابق اذ قال:

قال الرسول (صلى الله عليه واله وسلم): معاشر الناس : قولوا : اعطيناك على ذلك عهدا عن انفسنا وميثاقا بالسنتنا ، وصفقه بايدينا نؤديه الى اولادنا واهلينا ، لا نبغي بذلك بدلاً ، وانت شهيد علينا، وكفى بالله شهيدا.

قولوا، ما قلت لكم ، وسلموا على علي بإمرة المؤمنين ، وقولوا (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله) (٥٠) فان الله يعلم كل صوت وخائنة كل نفس ، { فمن نكث فانما ينكث فانما على نفسه، ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسؤتيه اجرا عظيما..}(٥١) قولو ما يرضي الله (ان تكفروا فان الله غني عنكم) (٥٢.(

قال زيد بن ارقم : فعند ذلك بادر الناس بقولهم : نعم سمعنا واطعنا على امر الله ورسوله بقلوبنا ، وكان اول من صافق النبي (صلى الله عليه واله وسلم)وعليا ابو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير ، وباقي المهاجرين والانصار ، وباقي الناس الى ان صلى الظهرين في وقت واحد ، وامتد ذلك الى ان صلى العشاءين في وقت واحد.وواصلوا البيعة والمصافقة ثلاثا.(٥٣ (

-8ما رواه ابو سعيد الخدري قال:

ان رسول (صلى الله عليه واله وسلم) دعا الناس الى علي في غدير خم ، وامر بما تحت الشجرة من الشوك نقمّ ، وذلك يوم الخميس ، فدعا عليا ، فاخذ بضبعيه فرفعهما حتى نظر الى بياض ابطي رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم). ثم لم يتفرقوا حتى نزلت هذه الاية : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ... الاية. (

فقال رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم): الله اكبر على اكمال الدين واتمام النعمة ورضا الرب برسالتي ، وبالولاية لعلي من بعدي ، ثم قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد

من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله .

فقال حسان : ائذن لي يا رسول الله ان اقول في علي ابياتا تسمعهن :

فقال (صلى الله عليه واله وسلم) : قل (على بركة الله.(

فقام حسان فقال : يا معشر مشيخة قريش، اتبعها قولي بشهادة من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) في الولاية ماضية ، ثم قال :

يناديهم يوم الغدير نبيهم *** بخم واسمع بالنبي مناديا

يقول : فمن مولاكم ووليكم *** فقالوا ولم هناك التعاميا

الهك مولانا وانت ولينا *** ولم تر منا في الولاية عاصيا

فقال له: قم يا علي فانني *** رضيتك من بعدي اماما وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه *** فكونوا له انصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه *** وكن للذي عادى عليا معاديا(١(

-9ما اخرجه الحافظ أبو عبيد الهراتي:

لما بلّغ رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)بغدير خم ما بلّغ وشاع ذلك في البلاد أتى جابر بن النضر بن كلدة العبدري فقال :

يا محمد، أمرتنا من الله ان نشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله ، وبالصلاة والصوم والحج والزكاة ، فقبلنا منك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضع ابن عمك ففضلته علينا ، وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه ، فهذا شيء منك ام من الله ؟.

فقال رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم): والذي لا اله الا هو ان هذا من الله.

فولى جابر يريد راحلته وهو يقول : الهم ان كان ما يقول محمد حقاً فامطر علينا حجاره من السماء او ائتنا بعذاب اليم.

فما وصل اليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره، وانزل الله تعالى) :سأل سائل بعذاب واقع) الايات

-10 ما رواه التابعي الجليل سُلَيْم بن قيس الهلالي

في كتاب المعروف باسمه ، في احتجاج عبد الله بن جعفر على معاوية بعد شهادة أمير المؤمنين

علي بن ابي طالب (عليه السلام) حيث قال عبد الله – ضمن حديث طويل.

يا معاوية اني سمعت رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) يقول على المنبر وأنا بين يديه وعمر بن ابي سلمة، واسامة بن زيد وسعد بن ابي وقاص وسلمان الفارسي وابو ذر والمقداد والزبير بن العوام وهو يقول : الست اولى بالمؤمنين من انفسهم ؟، فقلنا :بلى يا رسول الله ، فقال : اليس أزواجي امهاتكم ؟ ، فقلنا : بلى يا رسول الله، قال :من كنت مولاه فعلي مولاه .. اولى به من نفسه – وضرب بيده – على منكب علي (عليه السلام) – اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .. ايها الناس انا اولى بالمؤمنين من انفسهم ، ليس لهم معي امر ، وعلي من بعدي اولى بالمؤمنين من انفسهم ليس لهم معه امر ، ثم إبني الحسن اولى بالمؤمنين على انفسهم ليس لهم معه امر.

ثم عاد فقال : ايها الناس ، اذا أنا استشهدت فعلي اولى بكم من انفسكم ، فإذا استشهد علي فابني الحسن اولى بالمؤمنين منهم بانفسهم ، واذا استشهد الحسن فابني الحسين اولى بالمؤمنين منهم بانفسهم..

الى ان قال: فقال معاوية: يا ابن جعفر لقد تكلمت بعظيم ، ولئن كان ما تقول حقا لقد هلكت امة محمد من المهاجرين والانصار غيركم – اهل البيت – واولياءكم وانصاركم.

فقال : والله ان الذي قلت حق ، سمعته من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم.(

فقال معاوية : ياحسن ويا حسين ويا ابن عباس ما يقول ابن جعفر ؟

فقال ابن عباس : ان كنت لا تؤمن بالذي قال ، فارسل الى الذين سمآهم فاسألهم عن ذلك.

فارسل معاوية الى عمر بن ابي سلمة والى اسامة بن زيد فسالهما ، فشهدا ان الذي قال ابن جعفر حق ، قد سمعناه من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) كما سمعه (٥٤.(

الولاية محور الغدير

هذه عشرة من الاحاديث التي وردت في الغدير ، وحكت عما جرى فيه من مشاهد، و – كما قلت - فاننا نلاحظ ان كلا منها قد ركز على بعض جوانب الموقف وما أكتنفه من ملابسات ، أو ما أستتبعه من حوادث ارتبطت به.

ونحن الآن – وبعد قراءتنا لهذه الأحاديث – أكثر قدرة على تمييز الحدود التفصيلية التي تعنينا من هذا المشهد ، وأوضح رؤية لخطوط الصورة التي نطمح إلى أستكمال ملامحها ، تمهيدا للدخول في

موضوع البحث.

والذي بلغت النظر في مشهد الغدير : أن محور الأحداث التي جرت فيه والقضايا التي واكبته إنما هو إعلان الولاية الإلهية لعلي ابن أبي طالب (عليه السلام) بعد الرسول)صلى الله عليه وآله وسلم) ، وأخذ البيعة بها له من المسلمين كافة ... بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي أجمعت عليه الأحاديث الواردة في هذا المشهد (من كنت مولاه فعلي مولاه) فهذه الولاية الكبرى هي غاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم (من هذا المشهد ، وبها ورد الأمر الرباني ..أما الأمور الأخرى التي جرت فيه ، فهي أقرب لأن تكون إطارا تتحفظ به الحجة الإلهية المقامة في هذه الولاية على حدودها ، وقرائن لازمة في تعيين مدلولها الاسلامي المطلوب ، وتحديد موقعها الخاص في كيان الاسلام ، ودورها الكبير في وجوده وبقائه ، وامتداد رسالته العظمى في البشرية.

وهذه النقطة بدورها تتطلب – بالمقابل – أن يكون أي جهد يبذله أحد من الناس – في فهم موقف الغدير ككل أو فهم بعض شؤونه وحقائقه – قائما على هذا الاساس نفسه أيضا وجاريا ضمن مصبه الخاص ، حين يريد المرء لجهد هذا أن يستقيم مع دين الله ، وأن يركن إلى حجته البالغة ، ليكسب الثمار الطيبة التي تغنيه في وفائه بمسؤليته تجاه نفسه وتجاه بارئه العظيم (تعالى شأنه.(

فمن الواضح أن هذا المعنى الأسلامي للولايه إنما تستلهم حدوده من تلك القرائن والمعطيات التي تحفظت عليها الحجة الإلهية في موقف الغدير وفيما أكتنفه من شؤون واستبعاد الذاتيات التي تبعد البصيرة عن مستلزمات الحق ، ونبذ الافتراضات التي أملتها الإحن والأهواء في بيان معاني هذه الكلمة، والاخلاص لله وحده ولدينه القويم في كل خطوة يمضي بها الانسان في هذا السبيل ، مما يعني ضرورة الوقوف على خصوص دلالته مشهد الغدير ذاته ، وما احتواه من قرائن استوعبها في مقدماته ومجرياته وخلفياته، دون ادنى تكلف او تمحّل ، فتل القرائن – والحق يقال – كافية في تعيين ما اراده الله تعالى والرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بهذه الولاية ، دون ريب وايضاح حجة الله فيها دون غموض، رغم كل ما سجله التأرخ من صوارف وعقبات حاولت حرف تلك الكلمات عن مواضعها، وإبعاد البصائر عن معناها الرباني المطلوب..

والله تعالى – قبل هذا وبعده – هو الكفيل بتسديد الخطى نحو الصواب والمتعهد ببلوغ الغاية في سبيله.

)والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)(٥٥(

)ويثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة)(٥٦(

(4)

ملامح عامة لمشهد الغدير

)يأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس))٥٧(هذه هي بداية المشاهد في موقف الغدير، فمن هذه الاية المباركة تنطلق جميع مشاهد الاخرى ومنها تنبثق مجرياته وخلفياته كافة.

وهي بداية لا يرتاب فيها منصف ، فهذا هو ما تضافرت عليه النصوص الواردة في مختلف مصادر السنة النبوية الشريفة.

فبالاضافة الى الحديث السادس – مما سبق من الاحاديث – الوارد عن زيد بن ارقم ، هناك عدد اخر من الروايات يؤكد نزول هذه الاية في الغدير ، وفي الأمر باعلان الولاية الكبرى لعلي (عليه السلام) فيه.

وحتى مع استبعاد ما تواتر في مصادر مذهب اهل البيت (عليهم السلام) من هذه الروايات فان ما نقله ثقاة المذاهب الاخرى كافٍ في اثبات التواتر لهذا النزول في هذه المناسبة ايضا.

وقد احصى الشيخ غبد الحسين الاميني في كتابه القيم المعروف (الغدير في الكتاب والسنة والادب) ثلاثين مصدرا منها مما هو معتمد لدى تلك المذاهب في نقل نصوص السنة النبوية الشريفة)٥٨.)

كما ان سياق الاية الكريمة ذاته يعين هذه البداية ايضا من بين الاحتمالات الاخرى ، التي يذكرها البعض لنزولها ، لما في صيغتها البيانية الخاصة من اهتمام في صراحة إصدار الأمر الالهي إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذا الأمر ، ومثل هذا الاهتمام لا يتناسب إلا مع أهمية الغدير وولاية علي (عليه السلام) وموقعها في كيان الاسلام ، وقيام صرحه ، بينما أي من الاحتمالاتالأخرى – التي ذكرت في سبب نزول هذه الاية – لا ترقى ولو الى بعض هذه الاهمية التي توليها الاية الكريمة.

)اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دين(

وهذه هي النهاية التي يختتم بها الغدير مشاهده في يومه الخالد.

وهي نهاية لا يرتاب فيها منصف ايضا، ومن اقرب شواهدها : مضمون الاية نفسه ، وبيانه لاهمية ما يعرضه من حقائق كبرى، وما لهذه الحقائق من نتائج في صرح الاسلام ، ودورٍ في الوجود الانساني كله .. فهي لاتستقيم – بحال من الاحوال – مع غير الغدير ، وغير ولايته العظمى ، مما احتمله البعض مورداً لنزول الاية الشريفة ايضاً.

هذا في حين ان الروايات التي اوردها ائمة الحديث في نزول الاية في هذا المشهد كذلك ، -ومن غير رجال الشيعة ايضا – اكثر من ان تدع مجالا لريب مرتاب ، وقد أحصى صاحب كتاب (الغدير) منها اكثر من خمسة عشر مصدرا اضافة الى الرواية السابقة عن زيد بن ارقم (٥٩.(

ولصاحبي كتاب (الميزان في تفسير القران) وكتاب (الغدير في القران والسنة والادب (بحوث جيدة مفيدة في هذا الموضوع ، ينبغي الاطلاع عليها لن يرغب الوقوف على بعض التفاصيل (٦٠( )يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك)(٦١(

انه الامر الصريح والمباشر يصدر من الله القوي العزيز الى رسوله الكريم الذي لاينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى.

الامر الصريح من الله تعالى يصدر الى رسوله (صلى الله عليه واله وسلم) في قرانه العظيم ، المعجزة الابدية الخالدة للرسالة الابدية الخالدة..

وما كان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) – وهو الذي وهب ذاته وحياته وكل ما آتاه الله تعالى من نعم ، لله وحده ولتبليغ رسالته ، والوفاء بمسؤوليتها الكبرى في البشرية – ليحتاج الى مثل هذه الصراحة في الامر ، لو لم يكن الشان بتلك العظمة التي تستدعي لفتة خاصة ، تثبت للبصائر موقعه المهم في دين الله ، ودوره الاساس في قيام صرحه، كما تثبت لها الرعاية الربانية المباشرة له ، والتعهد الالهي في استكمال امره ولتزيل – في الوقت نفسه – أي احتمال قد تمليه الاحن وامراض القلوب بأن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) كان له نوع من التفرد في ابلاغه دون امر من الله تعالى او حتى احتمال انه (صلى الله عليه واله وسلم) قد سبق هذا الامر في اعلانه ، او في اخذ العهدية على الناس ، او في درجه ضمن حقائق الاسلام ، او في بيان اهميته الكبرى بين تلك الحقائق.

ومع ان من المعروف بان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لم يكن ليتوانى عن تبيلغ امر الله

لحظة ، ولم يكن ليزيغ عما اوحاه اليه بكلمة ، ولم يكن لينفرد باعلان شيء عنه دون امره ، او يستقل عن ارادته بعمل ، لان الايمان بكل هذا هو من اصول الاسلام الاولى التي يجب ان يعتقد بها كل مسلم، ولكن يجب ان يكون لكلمة الله علوها ، لحجته بلوغها مع أي حال تكون عليه البشرية وفي أي عصر من عصورها ، وعلى أي مستوى تصبح عليه، ورعاية الله سبحانه هي الضمان لذلك العلو والبلوغ.

وورود الامر في هذه الاية المباركة بهذا الاهتمام ، وهذه الصراحة ، وجمعها لتلك الحقائق المذكورة فيها ، انما يرد ضمن هذه الضرورات ، وتجسيدها لذلك الضمان المطلوب.

فبهذه الاية الكريمة تتجلى اول مظاهر الرعاية الربانية لولاية علي (عليه السلام (لتجعلها ضمن افاق القران العليا ، وخصائصه الثابتة ، وتحدياته الاعجازية الخالدة، ولتضفي على الولاية مميزات وخصائصه كافة ، ولتستجمع فيها كل السمات التي تمتاز بها شؤونه التي اشارت اليها نصوص الاسلام ، وبحثها باحثوه.

...تتجلى بها رعاية الله لهذه الولاية ، سواء في ادلة ثبوتها ، لتزيل عنها كل شبهه ام في وضوح مفهومها، لتجرده من كل ريبة، ام في موقعها من صرح الاسلام لتجعلها حيث ارادها الله فيه ركناً اساساً من اركانه ام في دورها في حياة الانسان محورا لهداه، ام في نتائجها وانعكاساتها على مسؤولية الانسان تجاه ذاته وهو يريد الخير لها، ويهدف الى الاستقامة في حياته مع مقتضيات حكمة الله في وجوده..

كما تتجسد بهذه الأيه الكريمة رعايه الله للولايه في جعلها فيضا من الربوبية العامة لهذا الملكوت ، (من ربك) لتكون – بدورها – مجلى لهذه الربوبية في عالم الانسان، بما يعنيه مفهوم الربوبية له من لطف عام ورحمة وتدبير لامره ، ولم يمنع سياق الاية المباركة الجازم ، ولا صراحة الامر فيها ، وما استتبعه من تحذير من ان تلمح الى هذا الربط ، لتستكمل فيه دلالاتها المعجزة تلك.

)وان لم تفعل فما بلغت رسالته)(٦٢(

وهذه هي اولى ثمرات الخطوة القرآنية السابقة.

فبعد ان جعلت الاية الكريمة – في امرها الصريح المتقدم – الولاية ضمن الحقائق القرانية ، واعتبرتها واحدة من فيوض الربوبية العامة ، ولطفها الشامل بالانسان، امكنها حينئذ ان تعلن موقع هذه الولاية في صريح الاسلام ذاته ، وقيام كيانه في الحياة، وان تشير الى ما للولاية من موقع خاص

بين اسس ذلك الصرح ودعائم وجوده.

)وان لم تفعل فما بلغت رسالته)(٦٣(

انه بيان لنتيجة فعلية ، لشرط واقعي من شرائط الرسالة ووجودها ، جاء بلسان التحذير للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من التلكؤ في اعلان ما أمره الله به ، أو التواني بتبليغه إلى الناس.

ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم)– سيد انبياء الله ورسله – اعظم من ان يتلكأ في امر الله تعالى لحظة ، واسمى من ان يتوانى في تبليغ رسالته طرفة عين، وما كان هذا ليتصور في حقه أبداً، وهو الذي بلغ الغاية في الاستجابة لربه حتى انزل عليه قوله) تعالى): (طه. ما انزلنا عليك القرآن لتشقى)(٦٤.. (

الا ان عظمة الامر المنزل ، وما سيترتب عليه من مسؤولية كبرى في اعناق البشرية ، والامة المسلمة منها بالخصوص – تستدعي مثل هذا التحذير ، ولا للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه ، وانما للامة من خلاله ليكون ابلغ في الوصول الى الغاية ، ولكي تدرك العقول شيئا من تلك العظمة ، ولتشعر بما تستوجبه عليها من مسؤولية.

والمعنى القريب لهذا التحذير هو : ان قيام رسالة الله تعالى نفسها ، وتحقق وجدودها في هذه الارض – وكما شاءته حكمة التشريع لها – ما كان ليتم بدون هذا الامر المنزل من الله سبحانه ، ولولاه لم تكن لتلك الجهود المضنية التي قام، بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مراحل حياته كافة ، ولم يكن للتضحيات التي قدمها في تبليغ الرسالة ، ولا للعناء الذي بذله في سبيلها أي معنى .. بل ، ولم يكن هناك داع لتلك الرعايات الالهية التي واكبت كلاً من الرسالة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم (منذ ان القيت اليه مهمتها ، ومضت معها خطوة خطوة ، حتى ذلك اليوم الخالد الذي نزلت فيه هذه الاية الكريمة..

)فالكلام موضوع في صورة التهديد، وحقيقه بيان اهمية الحكم ، وانه بحيث لو لم يصل الى الناس كان كأن لم يراع حق شيء من اجزاء الدين فقوله : (وان لم تفعل فما بلغت (جملة شرطية سبقت لبيان اهمية الشرط وجوداً وعدماً) (٦٥.(

اما لو لاحظنا المسألة من زاوية اخرى..

اما لو لاحظناها من خلال ما سبقت الاشارة اليه ، من ان للاسلام كيانه الحيوي المتكامل ، الذي يستحيل فيه تحقق الغاية الربانية من الهدى ، وقيام الحجة الكبرى على الانسان دون ان تتكامل جميع

مظاهره وحقائقه، فان اهمية الامر المنزل تتسع حينئذ لتشمل جميع رسالات الله تعالى في هذه الارض ، منذ الرسول الاول (عليه السلام (، وحتى الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وما كانت لتتم هذه السلسلة المباركة باجمعها بدونه، وما كان لرعايات الله سبحانه والطافه بجميع الرسل والانبياء معنى لولاه، وما كانت لتضحيات هؤلاء المصطفين واتباعهم أي ثمرة بغير تبليغه واقامة الحجة به على الناس.

فكما ان الحيوية والتكامل من سمات رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في نفسها، هما كذلك سمة في كل رسالة اخرى سبقتها في النزول، وهما كذلك سمة لسلسلة الرسالات الالهية في حلقاتها المتواترة مع حاجة البشرية في نمو وعيها المتصاعد، فهي جميعها تشكل وحدة متكاملة، ذات طبيعة حيوية بمجموعها.

فلكل رسالة من تلك الرسالات دورها المعين وموقعها الخاص في تلك السلسلة حيث تفي بحاجة الناس من الهدى والنور الرباني في مرحلتهم الحضارية التي يعيشون فيها.

بمعنى ان لكل رسالة انما هي استكمال لدور الرسالة السابقة في حين انها تمهيد للرسالة اللاحقة ، حيث تتطور المعرفة وتتقدم الخبرة والنضج الفكري بالانسان.

ومن هنا امكن اعتبار جميع الرسالات السابقة ممهدات لرسالة محمد (صلى الله عليه واله وسلم) خاتم الانبياء ، وهذه الرسالة هي القمة لها جميعا ، واكمالا لدورها في البشرية، اذن فاي شرط لتبليغ هذه الرسالة ، وكمالها ، وتمام امرها ، انما هو شرط لتحقق الغاية من تلك السلسلة باجمعها ، دون استثناء كما ان أي خلل يرد على هذه الرسالة يرد على هذه السلسلة كلها كذلك ..

)والله يعصمك من الناس) (٦٦(

وهذا هو الضمان الالهي الصريح للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في قيامه بهذه المهمة الكبرى.

ولم يكن (صلى اله عليه واله وسلم) ليحتاج الى التصريح بهذا الضمان ، كما لم يكن محتاجا الى تلك الصراحة في الامر بالتبليغ او التحذير اللذين سبقا هذا الضمان في هذه الاية المباركة ، لولا عظمة هذا الامر المنزل.

فهو نفسه الذي يلمس من مظاهر رعاية الله له، وعنايته به مالم يلمسه احد من الناس، وهو الذي يعلم من الدلائل الالهية لتصديقه، ومن شواهد الاثبات لكل كلمة يقولها، وكل بادرة تصدر منه مالم

يعلمه الاخرون عنه.

وهو الذي يرى من صور الامداد الالهية التي تعهدت بتاييده منذ ان صدر اليه أول أمر إلهي بحمل اعباء الرسالة ومسؤولية الصدع بها في البشرية ، وما قبل هذا الامر ايضا، فمحمد (صلى الله عليه واله وسلم) كان نبيا منذ أن كان نوراً بين يدي الله قبل خلق ادم (عليه السلام) باربعة عشر الف عام ، كما في الرواية عنه (صلى اله عليه واله وسلم) وها هو قرانه تعالى يخاطبه بقوله (واصبر لحكم ربك انك باعيننا)(٦٧(

كما يقول له : (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين . انا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله الها اخر فسوف يعلمون)(٦٨)، الى غير هاتين من أي الكتاب العزيز التي ضمنت للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) عصمته وعصمة رسالته من الناس ، وهي جميعها ايات نزلت قبل الغدير ، كما هو معلوم.

تعم ، ان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لا يحتاج الى التصريح بمثل هذا الضمان الالهي له ولرسالته ، وما كان هذا التصريح ليزيده علما به ، الا ان عظمة الموقف مرة اخرى ، وجلالة الامر المنزل فيه ، مما يستوجب مثل هذا التصريح، لا للرسول نفسه ايضا وانما للبشرية كافة من خلال شخصه الكريم ، ليكون ابلغ في التاكيد، واجدى ، في وضع النقاط على الحروف امام بصائر الناس على مر العصور ، حيث يحسن طرح هذا التعهد الالهي ، كعنصر خاص وفريد من عناصر القوة الربانية، التي تحتاجها رسالة محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في قيامها في البشرية ، وقيام حجة الله بها على العباد ، ولتثبيت من يحتاج الى التثبيت من الامة المسلمة ، وقطع السبيل امام طمع الطامعين في نيل من قدس الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، ومن عظمة رسالته الخالدة.

عظمة الرسالة ككل مجموع ، وعظمتها في كل حقيقة من حقائقها . بل وعظمتها في نفس الولاية التي اعلنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في يوم الغدير ، فلاشك انها كانت – وبدلالة هذا الاعلان نفسه – احدى الحقائق الكبرى لتلك الرسالة وبعض ابعادها المهمة.

ولهذا فما كانت لتتم العصمة الالهية لهذه الرسالة ولا للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) – معاً- لو أمكن لأحد من مرضى النفوس أن يبلغ مطمعا في هذه الولاية ، أو في الشخص الذي انتجبه الله تعالى لها بحكمته.

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والولاية

من ذلك الأمر الرباني الصريح للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، ومن هذا التهديد المشعر بعظم شأن الولاية في دين الله ، ومن هذا التعهد الصريح أيضا بعصمة الله العزيز الحكيم للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الناس ، ينبثق موقف الغدير.

ومن علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعظم المسؤولية التي ألقيت على كاهله ، ومعرفته بالنتائج . والآثار التي ستترتب على إعلان الولاية ، وأخذ البيعة بها من العالمين .. يمضي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالوفاء بالأمر.

" فسألت جبرئيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة إقبالي عليه حتى سموني اذناً.." . كما في الرواية السادسة السابقة عن زيد بن أرقم.

وفي رواية أخرى : (ان الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري ، وظننت أن الناس مكذبي..)(٦٩.(

وفي رواية ثالثة : (رأيت الناس حديثي عهد بالجاهلية ، ومتى أفعل هذا يقولوا :صنع هذا بابن عمه) (٧٠(

وواضح أن حذر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتخوفه هذا ، إنما يردان في سياق تحذير الآية المتقدمة ، وتصريحها بالضمان الإلهي لعصمته من الناس.

فكما كان المقصود هناك بيان عظمة الأمر المنزل من خلال ذكر عظمة نتائجه في دين الله ، فكذلك مقصود الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في إبراز هذا الحذر والتخوف في إعلان ذلك الأمر ، وتبليغه إلى الناس . فهو إشعار للأمة بجلالة هذه الولاية ، وبضرورة أن تلقي فيها كلمة الله تعالى على البصائر ، وأن تقام بها حجته على العقول ، مع غض النظر عما يتخذه الناس من مواقف ازاء تلك الكلمة وهذه الحجة . بل وإن كانت السلبية والعناد هما المؤملين في تلك المواقف.

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) – وكما هو معلوم عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) – لم يفاجأ بهذه الولاية في يوم الغدير خاصة ، ولم يكن علمه بحقيقتها ، وموقعها في دين الله تعالى ، ودورها في وجوده وقيام حجته ، وليد تلك الساعات أو الأيام التي سبقت موقف الغدير فحسب.

كما لم يكن (صلى الله عليه وآله وسلم) غافلا عما يحمله مرضى النفوس من الناس عامة ومن أصاحبه خاصة من انحراف عن نهج الحق . ولا غافلا عن مطامع قسم منهم في تسلم مراكز عليا في

المجتمع المسلم ، والتسلط على مقدرات الأمة ، أو جاهلا بتلك الرغبات السوداء الموجودة لدى البعض في النيل من قدسه (صلى الله عليه وآله وسلم) وقدس رسالته .. كما لم يكن بعيدا عما يحمله الحاقدون على علي (عليه السلام) خاصة من إحن وضغائن كان من أسبابها مواقفه الحاسمة المعروفة في الصراع بين الحق والباطل ، ودوره المتميز في إرساء دعائم الإسلام ، وكسر شوكة الكفر والظلم التي جوبه بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإظهار أمر الله بين العباد وإعلاء كلمته ولو كره المبطلون.

أفهل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعلم عن ولاية علي (عليه السلام) هذه وهو الذي رأى ليلة أسري به إلى السماء ما كان مكتوبا على أبواب الجنة الثمانية : (لا إله إلا الله . محمد رسول الله . علي ولي الله) (٧١) ؟

كما انه (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ هذه الكلمات على أوراق أشجار الجنة أيض)٧٢(؟

وهل كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يجهل هذه الولاية وهو الذي يقول بأنه وعلياً كانا (نوراً بين يدي الله سبحانه قبل أن يخلق آدم (عليه السلام) بأربعة عشر ألف عام ، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزأين) . فكان هو (صلى الله عليه وآله وسلم) جزءا وعلي (عليه السلام) جزءاً (٧٣) ؟

وهل انه (صلى الله عليه واله وسلم) كان يجهل هذه الولاية وهو الذي كان يصرح بان عليا منه ، وانه من علي ، وان عليا من طينته كما خلق هو (صلى الله عليه واله وسلم (من طينة ابراهيم (عليه السلام) وهو افضل من ابراهيم (٧٤)؟

وهل ...؟ وهل ..؟

كلا . ابدا ، ما كان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) قد فوجيء بهذه الولاية في يوم خم كما لم يفاجأ بها في يوم من الايام، لانه (صلى الله عليه واله وسلم) لم يكن يجهلها في يوم من الايام ولم تغب عن ذاكرته يوما من الايام..

وما اكثر ما كان (صلى الله عليه واله وسلم) يملي هذه الولاية الكبرى على الامة ، ويبين فضل صاحبها على الاشهاد!!

وما اكثر المناسبات التي كان (صلى الله عليه واله وسلم) يبين فيها المعاني المطلوب له في هذا المنصب العظيم ، دلالاته في مسؤولية المسلم تجاه دينه.!!

فمنذ الايام الاولى التي حمله الله فيها مسؤولية الصدع بهذه الرسالة كان (صلى الله عليه واله وسلم

) يستغل كل مناسبة وكل فرصة سانحة منبرا لهذه الغاية..

..فمنذ ان نزل عليه قوله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين)(٧٥) - بدء دعوته ينهض ليعلن – مع هذا الانذار – ولاية علي (عليه السلام) رديفة ملازمة لرسالته ، وكمالاً لها ، واصلاً من اصولها ، ويبين عمق الرابطة الوثيقة بين مهمته هو (صلى الله عليه واله وسلم) كصادع اول بهذه الرسالة العظمى ، ومهمة علي (عليه السلام (من بعده كوصي امين عليها: (يابني عبد المطلب ؟ اني قد جئتكم بما لم يجيء به احد قط ..الى ان يقول (صلى الله عليه واله وسلم) – وقد مد يده – من يبايعني على ذلك ان يكون اخي وصاحبي ووليكم من بعدي ؟

فقال علي (عليه السلام) : فمددت يدي ، وقلت : انا ابايعك . فما يعني على ذلك. (76) (وبقي رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) يؤكد هذه الولاية والحقائق التي تكتنفها طول ايام رسالته (صلى الله عليه واله وسلم)، وقد حفظت لنا كتب السيرة ومصادر الحديث الكثير من تلك التاكيدات في العديد من المواقف والمناسبات الخاصة والعامة :

)انت ولي كل مؤمن بعدي... (

)واعطاني انك ولي المؤمنين من بعدي..(

)ان عليا مني وانا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي.. (

)وانه وليكم بعدي) (٧٧) ... وهكذا اذ ما اكثر الروايات التي وردت بهذا اللفظ فضلا عما ورد في معناها وسيأتي – ان شاء الله تعالى – مزيد من هذه الروايات في مباحث لاحقة.

نعم لم يكن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ليفاجأ بولاية علي (عليه السلام (ولم يكن جديد عهد بموقعها الخاص من دين الله ، وقيادة ركب الامة المسلمة من بعده ، الا ان الرهبة في الامر المنزل في موقف الغدير ، وتهيب الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) من اعلانه ، انما كان بسبب اعتباره دخولا في مرحلة جديدة من مراحل الرسالة ذاتها .. فالموقف كان تمهيدا فعليا لبروز هذه الولاية وصاحبها في موقع الصدارة من قيادة الامة، والمباشرة في حمل اعبائها، والتصدي لرعاية شؤونها .. وهي نقطة انعطاف مهمة يجب ان يؤخذ كل شيء فيها بالحسبان، لتقام بها الحجة كما اقيمت بالرسالة ذاتها ، لا في ذلك العصر فحسب وانما في كل العصور وحتى يوم القيامة اذ هو الزمان الذي اعدت له رسالة محمد (صلى الله عليه واله وسلم) .. انه عقد بيعة واخذ عهد.

وهكذا – فبينما – كانت هذه الولاية تتحمل مسؤولياتها في كنف الرسالة وتحت ظلالها .. وبينما كان

علي (عليه السلام) يمضي في مهماته تحت رعاية الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) واشرافه ، الا ان يوم الغدير هو اليوم الذي يهيء له البدء بالاستقلال بحمل اعباء القيادة ، والمواجهة في التصدي للمهمات ، ومقابلة الاحداث. وهي مرحلة لها دورها في ديمومة وجود الرسالة المحمدية وخلود حجتها ، كما كان الشأن في بعثته هو (صلى الله عليه واله وسلم) ، في انشاء كيانها في واقع الانسان ، وقيام صرحها في هذه الحياة ، فطبيعي حينئذ ان تنال الولاية من الاهواء والمطامع ما نالته نفس الرسالة في مرحلتها الاولى من مضايقات ، وان تقف أمامها مرضى النفوس نفس مواقفهم المكابرة والمعاندة للرسالة.

فتخوف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وحذره لم يكونا – كما قلت – لسبب يعود الى ذاته ، ولم يكونا لسبب يعود الى ذات الرسالة ، فهي في نفسها هدى الله وبصائره التي يستحيل ان يتطاول عليها المتطاولون ، او ينال من اشعاعها النائلون ، وانما كانا منه (صلى الله عليه واله وسلم) لعلمه بنكث من سينكث من امته او يزيغ من يزيغ من ابنائها بعد ان الجأتهم الايام الى اعلان الطاعة ، واظهار الاسلام دون رصيد ثابت من الايمان الصحيح والاعتقاد العميق بدلائل الله وكلماته.

ولكن – كما اشرت – فان كلمة الحق يجب ان تقال ، وحجة الله يجب ان تبلغ ، فما كان رب الارباب ليمنع لطفه ورحمته لارضاء فئة ضالة من الناس، وما كان ليقطع رحمته عن البشرية من اجل اهواء جماعة كفرت بانعم الله .. (فلم يرض الا بتبليغي فيه) . كما في رواية زيد بن ارقم.

)يا ايها الناس ان الله ارسلني اليكم برسالة ، واني ضقت بها ذرعاً مخافة أن تتهموني وتكذبوني حتى عاتبني ربي فيها بوعيد انزله علي بعد وعيد ..) (٧٨.(

قرائن وممهدات

ومن الطبيعي ان يتمثل الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وامر الله سبحانه له ، فيعلن هذه الولاية على الأشهاد ، ويصدع بها بعد ان استجمع لها كل ما كان من شأنه ان يقيم حجة الله تعلى فيها على العباد، وبعد ان مهد لها بكل ما يوجب الخلود الأبدي لهذه الحجة مع بقاء دين الله وخلوده.

نعم ، فما كان ذلك الامر الرباني الصريح ، وما كان هذا الاهتمام الكبير من القران ومنزله العظيم تعالى شأنه وهذا الاعداد الدقيق من الرسول (صلى الله عليه واله وسلم (، وضمان الله له بعصمته من الناس .. ما كان كل هذا من اجل حالة آنية مؤقتة ستنتهي في فترة قصيرة من الزمن . وستتلاشى

دون أبدية الرسالة المحمدية ذاتها ، وقيام حجة الله بها على العباد.

فالقران نفسه يصرح بان هذه الرسالة لم يتم تبليغها الا بتبليغ الولاية ، وان كمال الدين وتمام النعمة به لم يحققا الا بعد الصدع بها ، وهي – كما نراها – قضية مطلقة لا تحددها الا حدود الرسالة المحمدية ذاتها ، في الزمان او المكان او المراحل الحضارية المتعاقبة.

ولهذا فحين نقرأ مثل قوله تعالى : (انّا ارسلناك كافة للناس بشيراً ونذيراً. (

وقوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)(٧٩(

فاننا نعلم حينئذ – و دون ريب – ان حدود الرسالة والولاية معاً انما هي حدود الوجود البشري على سطح هذه الارض.

ولهذا – ومن اجل هذا التخليد للولاية واعلانها – اختار الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لتبليغ الامر بها اجتماع الحاج معه من مختلف بقاع الوطن الاسلامي في ذلك العهد.

..فكما يقول ابن الجوزي : كان مع الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) من الصحابة ومن الاعراب ، وممن يسكن حول مكة والمدينة مائة وعشرون الفا ، وهم الذين شهدوا معه حجة الوداع وسمعوا منه هذا المقالة (٨٠.(

فهذا الجمع الكبير الوارد من اطراف البلاد الاسلامية في ذلك الحين كان اجدى السبل الممكنة – وقتها – في نشر هذا الاعلان بين الامة ، بل وضمان تواتره الخالد في التأريخ ، دون ان يضعف قيمته العامية تسلسل وسائط النقل في أي عصر من العصور ، بمعنى ان يصبح هذا الاعلان ، وموقف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) به من البدائة الاسلامية المتواترة مع الاجيال حتى الابد.

ولهذا السبب ايضا ، فقد اختار الزمان وقتا يفترق فيه هذا الجمع الكبير ، بعد ان لبى كل فرد منه نداء ربه بالحج الاكبر ، وبعد ان استغفر الله تعالى ، منهم من استغفر من ذنوبه ، فنقت الذمم اوضار الاثام ، وتزلفت النفوس من ادناس الخطايا ، وكفرت عن سيئاتها ، فكانت اقرب الى استماع كلمة الله تعالى ، وادنى لفهم حجته ومعرفة بصائر هداه..

كما اختار (صلى الله عليه واله وسلم) من المكان غدير خم قرب الجحفة – حيث مفترق السبل بذلك الجمع ، او من ذلك المكان يتجه كل فريق الى اهله – ليكون هذا الموقف الفريد وما جرى فيه من المشاهد هو الحدث الاخير الذي ينهي اجتماع ذلك الجمع الغفير ، قبل ان تستطيع الاهواء ودسائس النفاق صنع شيء يمكّنها من التدخل في نصوع الهدى بهذه الامانة الكبرى التي سيحملها كل حاج

الى ذويه ، والتي سيؤديها – من ثم – كل جيل الى من بعده من اجيال الاسلام الى يوم القيامة.

وهو اختيار دقيق ولا ريب ، وفيه تبدو دلائل الرعاية الالهية الخاصة بوضوح ، حين قرنت بين هذا الاجتماع الحاشد والزمان والمكان ، وما اكتنف الموقف كله من ظروف مناسبة لتحقيق تلك الغاية.

ولم يكتف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بالاعتماد على القرائن التي تعبر بها هيئة الموقف هذه ، وهي قرائن كافية – ولا ريب – حين تصفو النفوس من الاردان ، وحين يكون التطلع الى الحق هو هدف العقول.

الا ان الاحقاد كانت اشد من ان يكتفى معها بمثل هذه القرائن وحدها ، وان الضغائن كانت اعمق من ان تسمح للنفوس باتباع دلائل الهدى فيها.

والرسول (صلى الله عليه واله وسلم) كان يعلم كل هذا من الكثيرين من اتباعه والمحيطين به ، ويعلم ان للباطل صراعه الدائم والمتجدد مع الحق وان له نزواته التي تترصد المنافذ والثغرات في كل كلمة ، وكل اشارة ، للنيل من قدسه والانحراف بالبصائر عن هداه .. وحينئذ كان لابد له (صلى الله عليه واله وسلم) – وهو الحكيم العارف – من ان يجعل في كل ما يصدر عنه في اعلان الولاية من عمل ، وما يقوم له من كلمة دليلا واضحا على ما يقصده فيه ، وان يضع في كل منها بيّنة تقطع الطريق امام تطاول المتطاولين وتشدق المتشدقين ، ومنعهم من ان يؤثروا في جلاء مراده فيما يقول وما يفصل ، ووضوح حجة الله فيه. ولو في مستقبل الزمان مادام للغدير دوره في دين الله وما دام لولايته موقعها الخاص بين حقائقه.

وهكذا نرى ان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) يبدا في اعلان ولاية علي (عليه السلام) من خلال استثارته لاعماق النفوس .. نعم اعماق النفوس، ليضع الولاية في هذه الاعماق ذاتها ايضا.

ولهذا فهو (صلى الله عليه واله وسلم) – وقبل صدعه بالأمر _ يستعلم الجميع الذي يقف امامه – بل ويستعلم جميع حاملي كلمته على مر – الزمان من خلال ذلك الجمع – عن موقفهم من ذاته المقدسة ، ليشهد الله ، ويشهد انفسهم على انفسهم ، ويشهد العالمين باجمعهم عليهم – بانهم قد علموا انه قد ادى اليهم امانة الله كما هي ، وانهم يعلمون –حق العلم – بانه قد بلغ رسالته اليهم دون تهاون ، وانه وضع مسؤولياتهم في اعناقهم ، وان هلاك من يهلك منهم كان عن بينة ، وان حياة من يحيى منهم كانت عن بينة ايضا.

)ايها الناس ، قد نبأني اللطيف الخبير انه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله .واني لاظن ان

يوشك ان ادعى فأجيب . واني مسؤول وأنتم مسؤولون ، فماذا أنتم قائلون (

)فانه لم يكن لنبي من العمر الا النصف من العمر الذي قبله ، وان عيسى بن مريم لبث في قومه اربعين سنة واني شرعت في العشرين ، الا واني يوشك ان افارقكم . الا واني مسؤول وانتم مسؤولون فهل بلّغتكم ، فماذا انتم قائلون ؟(

من الطبيعي ان يجيبوا بالايجاب ، وهم يعلمون من جهد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) معهم ، وعنائه في سبيل ابلاغهم هدى الله ما يعلمون..

)نشهد انك عبد الله ورسوله ، قد بلّغت رسالته ، وجاهدت في سبيله ، وصدعت بأمره وعبدته حتى اتاك اليقين ، جزاك الله خير ما جزى نبيا عن امته(

انها مقدمة جيدة وكافية لتهيئة هذه النفوس واعدادها لاستماع كلمة الرسول ، وحمل امانة الله الكبرى فيها ولكن هاهنا ملاحظة مهمّة حريّ بالرسالة ان تأخذها بالاعتبار في التهيئة والاعداد..

..ملاحظة منشؤها الموقع الخاص لولاية علي (عليه السلام) في كيان الاسلام ، ودورها الاساس في قيام صرحه .. اذ لابد ان يبلغ التهيؤ والاستعداد في النفوس الى الدرجة التي تمكّنها من حمل مسؤولية الولاية من خلال هذا الموقع والدور بالذات ، وليس من درجات ادنى .. لتكون هذه الدرجة العليا هي المنطق كذلك في فهم هذه الولاية والاعتقاد بها ، وحمل ما تستوجبه من مسؤوليات كبرى في حياة الانسان..

)الستم تشهدون ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، وان جنتة حق ، وان ناره حق ، وأن المت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ؟(

)ألستم تشهدون أن لا إله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وتؤمنون بالكتاب كله ؟(

وطبيعي ان يجيبوا بالايجاب ، فهي الاصول الاسلامية الاولى التي بني عليها كيان الاسلام ذاته (بلى نشهد بذلك.(

انها الاصول الاسلامية يشهدهم بها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، ليوحّد بين اجوائها ، وأجواء الموقف الذي يقفه بينهم ، وليشعرهم بأن ما يريد قوله امامهم انما هو ضمن هذه الافاق ايضاً، وليس هو في درجة ادنى من هذه الاصول في بنية الاسلام وكيانه ، وان ولاية علي (عليه السلام) هي الامتداد الطبيعي لعقائده الاولى هذه وانها احد اركانه الثابتة التي يعتمدها في قيام

صرحه كما يعتمد ايا منها..

فكما لا اسلام بدون عقيدة التوحيد او النبوة او الميعاد فكذلك لا اسلام بدون هذه الولاية : (وان لم تفعل فما بلغت رسالته.(

وما كانت شهادتهم تلك الا تأكيد منهم بأنهم سسسسقد علموا هذا القصد منه (صلى الله عليه واله وسلم) وفهموا مراده.

وملاحظة اخرى جدير بالرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ان يلفت اليها الانظار في هذه التهيئة كذلك.

وهذه الملاحظة هي ما تعنيه هذه الولاية في طبيعة التزام المؤمن بدينه ، ومدى اذعانه لحجته ، وحدود تسليمه لقيادته الالهية المصطفاة..

وهي كما نعلم حدود مطلقة لا تحدها ذاتيات ، ولا تضيقها اعتبارات او مصالح..

)النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم ...)(٨١(

)فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)(٨٢(

اذن فتهيئة الرسول (صلى اله عليه واله وسلم) للنفوس الى ما يريد اعلانه ، يجب ان تستوعب هذه الناحية ايضا، لتدرك البصائر ان الامر المعلن يستوجب منها هذا المدى من المسؤولية والتسليم ايضا.

)ألستم تزعمون إني أولى بالمؤمنين من انفسهم ..؟(

)ايها الناس ، انا اولى بالمؤمنين من انفسهم ليس لهم معي امر(

)ايها الناس ، ان الله مولاي وانا مولى المؤمنين وانا اولى بهم من انفسهم.(

ومن الطبيعي ان يجيب الجميع بالايجاب ، فهو صريح القرآن كما علمنا.

ولا ريب انهم قد قرأوا الاية الكريمة السابقة مرات ومرات ، فهموا معناها دون التباس، ولو خلال بيان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) له.

وواضح ما تعنيه هذه الملاحظة في غلق أي منافذ للريب في النفوس – حين تخلص بنيّاتها الى الحق – فمن غير الممكن ان يشك معها ذو بصيرة في مدلول كلمة الولاية ومشتقاتها الواردة في اعلان الغدير ، فهي تحتم ان يختلف عن تلك الولاية التي جعلها الله سبحانه للرسول (صلى الله عليه واله

وسلم) واولويته (صلى الله عليه واله وسلم (بالمؤمنين من انفسهم ، وان ذكر اللغويون ما ذكروه لهذه الكلمة من معاني شرقوا بها او غربوا ، اذ للسياق حكمه الجازم في تعيين المراد منها.

ومن هنا كانت هذه الملاحظة وهي تروي ضمن حادثه الغدير احدى القرائن الابدية الخالدة في تعيين ما اراده الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) من هذه الولاية دون سواء..

لباب الموقف..

ثم ..ثم يصدع الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بما أمر به ، ويعلن هذه الولاية الكبرى ويعين وليها العظيم .. ويقرر موقعهما الخاص في دين الله وما يستوجبانه من مسؤليات في اعناق البشرية.

)من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله وادر الحق معه حيث دار) . يقول ذلك ثلاث مرات – كما في الرواية السابقة عن يزيد بن ارقم ، وفي لفظ احمد أربع مرات (٨٣.(

اذن فالولاية هي لباب الموقف كله – كما علمنا – واعلانها هو الهدف الذي تتمحور عليه جميع تلك المقدمات والممهدات والاستعدادات التي اشرنا الى بعضها.

ان لعلي (عليه السلام) ولاية كولاية الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في دين الله ، والقيام على امره ، وفي قيادة الامة .. كما ان له ولاية كولايته (صلى الله عليه واله وسلم) في اعتقاد الناس ، ومسؤولياتهم وانقيادهم المطلق لله تعالى..

ولنقف مع اعلان الرسول صلى الله عليه واله وسلم) عند هذه الحدود ، فهي النقطة الجامعة التي اتفقت عليها روايات مشهد الغدير ، ولا نتصدى في هذا البحث الى دلالة هذه الولاية على منصب الامامة او الخلافة بعد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم (، او غيرها مما يمكن ان يقال بهذا الصدد، امور لاتدخل ضمن منهجنا هنا..

نعم من الواضح ان الولاية هي الطابع الذي يسم تلك المناصب ومفاهيمها وحدودها كافة ، بالطابع الاسلامي الخاص ، اذ لا يمكن ان تصبح الخلافة او الامامة ذات معنى اسلامي صحيح مالم تكن الولاية التي اعلنها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ركنا فيها ، ومالم يكن لولي الامر فيها مثل هذا الدور الخاص في دين الله وفي البشر معا..

على ان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لم يغفل تلك المناصب ايضا في اعلان الغدير .. فكما

قرأناه في رواية زيد بن أرقم السادسة ، انه (صلى الله عليه واله وسلم) قال:

)معاشر الناس، هذا اخي ، ووصيي ، وواعي علمي ، وخليفتي على من امن بي وعلى تفسير كتاب ربي .. اللهم انك انزلت عند تبيين ذلك في علي (اليوم اكملت لكم دينكم (بامامته ، فمن لم يأتم به ، وبمن كان من ولدي من صلبه الى القيامة (فأولئك الذين حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون(.(

وعلى أي حال، فمن الطبيعي حينئذ ان يستتبع اعلان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم (هذا دعاؤه بموالاة الله لمن والى علياً، ومعاداته لمن عاداه ، ونصرته لمن نصره ، وخذلانه لمن خذله، وادارة الحق معه حيث دار ، فعلي (عليه السلام) هو امتداد لمحمد)صلى الله عليه واله وسلم)، وولايته امتداد لرسالته ، فجدير ان ينالا من رعاية الله تعالى وفضله ما ناله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) ورسالته من قبل ، ومن تعهده ما تعهده لمحمد ورسالته ، والا لم تتحقق الغاية الربانية بهذه الولاية، ولم تستكمل الحكمة الالهية اهدافها فيها ، وهذا محال .. كما هو واضح.

لواحق

ويتم الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) هذا الاعلان بتعميمه عليا بعمامته (السحاب (، لان (العمائم تيجان العرب) (٨٤) كما قال (صلى الله عليه واله وسلم) . او هي) الحاجز بين الكفر والايمان) (٨٥) كما في حديث آخر.

)ان رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) دعا عليا يوم غدير خم ، فعممه وارخى عَذبة العمامة من خلفه) (٨٦. (

وعن علي (عليه السلام) قال : (عممني رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) يوم غدير خم بعمامة ، فسدل نمرقها على منكبي، وقال : ان الله ايدني يوم بدر وحنين بملائكة متعمين بهذه العمامة) (٨٧)

ويختتم الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) هذا المشهد العظيم بأمره للمسلمين ان يهنئوا عليا بمنصبه الالهي الجديد ، ويقيم (صلى الله عليه واله وسلم) في ذلك المنزل ثلاثة ايام حتى تمت التهنئة والمصافقة والبيعة من كل الذين حضروا ذلك الجمع الحاشد...

)وسلموا على علي بامرة الؤمنين ، وقولوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا ان هدانا الله.(

ويضيف المؤرخ ابن خاوند شاه عند روايته لهذه التهنئة:

)ثم جلس رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) في خيمة تخص به ، وامر امير المؤمنين عليا ان يجلس في خيمة اخرى وامر اطباق الناس ان يهنئوا عليا في خيمته.

ولما فرغ عن التهنئة له امر رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) امهات المؤمنين بان يسرن اليه ويهنئنه ففعلن ، وممن هنأه من الصحابة أبو بكر وعمر بن الخطاب حيث قال كلمته المشهورة : (هنيئاً لك يا ابن ابي طالب ، اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.(

)) وبادر الناس بقولهم : نعم ، سمعنا وأطعنا على أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا(، وكان اول من صافق النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وعليا (عليه السلام) ابو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وباقي المهاجرين والانصار الى ان صلى الظهرين في وقت واحد ، وامتد ذلك الى ان صلى العشاءين في وقت واحد وواصلوا البيعة والمصافقة ثلاثا (

ويتم القرآن العظيم دوره في رعاية هذه الحقيقة الاسلامية ، فيختم هذا المشهد العظيم بنفسه في آية الاكمال كما بدأه بنفسه في آية التبليغ:

)اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً.(

وهكذا تصبح الولاية بتلك البداية وهذه النهاية بعض حقائق القرآن ذاته ، بل ، وطابعاً عاماً بجميع حقائقه الاخرى ، وركنا تعتمدها حجته في كل أفق من آسسفاق الحياة.

(5)

معنى الولاية في الغدير

هذه هي الملامح البارزة لموقف الغدير ، وهذه بعض مشاهده المهمة التي لم يستطيع التأريخ تجاهلها ، بالرغم مما عرف عنه من مجانبة وتنكر للغدير والولاية وعلي (عليه السلام). فأورد جزءاً منها هنا ، وجزءاً هناك، ومشهداً في هذا الحديث، ومشهداً اخر في حديث ثان وهكذا.

وقد لاحظنا ان اعلان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لولاية علي (عليه السلام (والتزام القرآن لها مبدأ ومنتهى ، وضمان الله لها بعصمتها وعصمة الرسالة بها من الناس هي المحور الاساس الذي استقطب جميع تلك المشاهد والاهتمامات.

اذن فهل هناك – بعد كل هذا – مجال لتشكيك مشكك أو ريب مرتاب في معنى هذه الولاية ، وكلمة الولي وردت في كلمات الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) كمايحلو للبعض ان يقول...

امر من الله تعالى بتبليغ شيء انزله على رسوله (صلى الله عليه واله وسلم) وربط صريح بين هذا الامر والرسالة ذاتها. وتحذير للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بان وجود الرسالة لا يتحقق بدون هذا التبليغ .. ثم تعهّد رباني خاص بعصمة الرسول من الناس في قيامه بهذه المهمة العظمى..

ثم اهتمام بالغ من الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) نفسه ، ورعاية حكيمة منه تستجمع كل تلك القرائن الابدية المخلدة لذلك التبليغ وحدوده ، وقيام حجة الله فيه .وتمهيد منه (صلى الله عليه واله وسلم) في جعل هذه الولايه مع اصول الاسلام الكبرى ومع ولايته هو بالذات، حيث جعله الله اولى بالمؤمنين من انفسهم.

ثم تتويجه بعد التبليغ بعمامته التي كان الملائكة الذين ايدوه يوم بدر وحنين يعتمرون بها ، وأمره (صلى الله عليه واله وسلم) لعامة المسلمين ان يهنئوا عليا على ما اعلنه له من منصب خاص في كيان الاسلام وقيادة الامة ثم يبايعوه بأمرة المؤمنين ليأتي التصريح القرآني بعد هذا بان الله قد اكمل بهذه الولاية، واتم بها النعمة على العباد ، ورضي الاسلام بها دينا للناس.

ومع هذا كله تبقى كلمة الولاية مجملة غامضة المعنى لأن كلمة المولى موضوعة لعدة معاني هي الناصر والمحب وابن العم والمعتق والمعتق – بالكسر والفتح - ... الخ ؟..

أفيمكن تصور هذا من ذي مسكة أخلص لله دينه ، وانقاد إلى الحق في دلائله وحجته ؟...

إذا فما معنى كل هذه القرائن ؟ .. وأين هي حكمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم (بل وحكمة الله تعالى التي واكبت هذا المشهد كله بالتسدسد والرعاية الخاصة في كل خطوة..

نعم ، لتذكر كتب اللغة لكلمة المولى والولاية ماشاءت أن تذكر من معاني، إلا أن لأجواء الغدير ومجرياته الخاصة وقرائنه حكمها الصريح في تحديد معنى أوحد لهما ، لا يدانيه أي ريب .. أنه ولاية الأمر ، والأولوية بالتصرف ، وحكمة الله تعالى أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بتبليغ هذه الولاية ، وحكمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي اتخذ كل تلك القرائن في تنفيذ هذا الأمر هما : المستند الأول في هذا التحديد.

فما معنى أن يرد الأمر الإلهي بتبليغ ما تعتمد عليه نفس الرسالة في وجودها ، ويحذر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن لاوجود لهذه الرسالة بدون هذا التبليغ ويعده بعصمته من الناس ؟.

وما معنى أن يوقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لإنفاذ أمر الله كل تلك الجموع في هذا الوقت الحرج والمكان الشديد ، حيث شدة القيظ ، وحر الرمضاء ، ويشهدهم تلك الشهادات العظام بالله تعالى وبرسالته وبالبعث والنشور والجنة والنار ، ويشهدهم على علمهم بمعنى ولايته هو (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم ، وأولويته بهم من أنفسهم .. ثم ، وبعد أن يجيبوه بالإيجاب ، ويعترفون أمامه بكل ذلك يخبرهم قائلاً : بأن من كنت ناصره فعلي ناصره ، أو من كنت محبه فعلي محبه أو من كنت ابن عمه فعلي ابن عمه ..أو غير هذا من معاني ذكرت بكلمة المولى ؟ ثم هو لأجل هذا المعنى يعممه بعمامته ، ويأمر المسلمين بالبيعة له والمصافحة والتهنئة وغيرها مما جرى في ذلك المشهد الخالد ...؟..

فهل أن واحدا من هذه المعاني يتناسب وتلك الإهتمامات ؟..

وأي منها يعني كمال الدين ، وتمام النعمة ، ورضا الرب بالإسلام ديناً للناس ؟

وأي من هذه المعاني يستحق المصافحة والبيعة والتهنئة والتتويج ؟.

بل وأي من هذه النعاني هو المناسب لمهمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ودوره الخاص في تبليغ كلمة الله وإقامة حجته في هذه الأرض ؟..

وبالمناسبة فإني اتذكر الآن حديثاً لأحد أعلام الأمة – دام ظله – ألقاه في أحد منتديات الغدير، قال فيه:

)يذكر المسلمون جميعهم حديث الغدير على السواء ، ويتفقون على لفظه في الأكثر ، ثم تذكر له تأويلات متنافرة ترتسم عليها الأغراض ، وتبين فيها الغايات يقولون : إن المولى في هذا الحديث بمعنى الناصر أو بمعنى المعتق .. أسمعت أعجب من هذا ؟

)يجمع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) سبعين ألف)٨٨(من المسلمين في حر الهجير ، وفي رمضاء الغدير .. يجمع هذا الحشد العظيم في هذا الزمان ، وفي هذا المكان ، يستوقف الاول من الركب ، ويستلحق الاخر ، يجمعهم في هذا الصعيد الواحد ، ثم يرتقي المنبر التأريخي ويصعد علياً معه ، ويرفعه بيمينه حتى يبين للناس بياض ابطيهما .. يصنع محمد كل هذا ليقول: من كنت ناصره فعلي ناصره او من كنت معتقه فعلي معتقه..

انها مهزلة من المهازل، او منقصة من النقائص، يريدون ان ينحّوا عليا عن امامته فيطعنون محمد في حكمته.(

نعم ، ان الغدير كله وما نزل فيه من آي الكتاب العزيز .. وما جرى فيه من مواقف ، وما اعتمده الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) من قرائن ، وما قاله في بيان هذه الولاية ... كلها تحتم ان تكون ولاية علي (عليه السلام) هي نفس ولاية رسول الله التي جعلها الله امتدادا لولايته التكوينية على الخلق ، وتحتم ان يكون مشهد الغدير هو اعلان الإسلام (لالتزامه) بهذا المنصب لعلي (عليه السلام) ، كقيّم على امره بعد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وقائد لامته ومثل شاخص لهداه في الوجود تماما ، كالتزامه للرسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه واله وسلم) من قبل، حين جعله شاهداً وشهيداً على البشرية ، وسراجاً منيراً في الانسانية..

وتحتم ان يكون موقف الغدير اعلانا لتعهد الله عز وجل لعلي (عليه السلام) وولايته ورعايته لهما ، كما تعهد – سبحانه – محمدا ورسالته في كل اولئك.

وتحتم ان يكون موقف الغدير القاء لمسؤولية إلهية كبرى وجبت في اعناق البشرية ، واقامة لحجة الله عليها ، حين جعل من علي (عليه السلام) امتداداً لمحمد (صلى الله عليه واله وسلم) ومن ولايته امتداداً للرسالة العظمى.

فكان لابد للمؤمن ان يتعامل مع علي وولايته من نفس المنطق الذي يتعامل به مع محمد ورسالته وان يضعها جميعاً حيث وضع هذين في ايمانه بالله واسلامه له ، وان يستجيب لهما نفس استجابته لهذين المفهومين في خضوعه لله وانقياده لامره.

)انا اولى بالمؤمنين من انفسهم ليس لهم معي امر ، وعلي من بعدي اولى بالمؤمنين من انفسهم ليس لهم معه امر(..

وصدق جبرئيل حينما قال لعمر بن الخطاب – كما في روايته السابقة : (يا عمر لقد عقد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) عقدا لا يحله الا منافق. (

كما صدق ابن عباس حينما قال – بعد نقله لكلمة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم (في الولاية – (فقد وجبت – والله – في رقاب القوم.(

والواقع ان الولاية – بهذا المعنى وحده – هي التي كان من شأن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) اعلانها وتبليغها الى الامة كرسول عن الله عز وجل ، وقيّم على رسالته الكبرى ، فغيره من المفاهيم لا يعني منصب الرسالة من قريب او بعيد.

ولهذا فان هذا المعنى من معاني الولاية هو الذي فهمه اولئك المسلمون الذين حواهم ذلك الجمع

الموجود في مشهد الغدير ، وعلى اساسه بايعوا وصافقوا الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وعلياً (عليه السلام) وهم يقولون:

))نعم ، سمعنا واطعنا على امر الله ورسوله بقلوبنا) ولم يذكر التاريخ أن أحدا قد راجع الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في معنى هذه الكلمة ليستوضح عن مدلولها ، أو اعترض عليها بأن المعنى المقصود لا يستحق هذا الاهتمام منه (صلى الله عليه واله وسلم.(

وهذا المعنى من الولاية هو الذي فهمه حتى اولئك الذين اتخذوا موقفاً سلبياً منها ومن موقف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) فيها ، ومن وليها جميعاً ، كجابر ابن النضر بن كلدة حينما قال للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) (.. ثم لم ترض حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا.(

واخيرا فالولاية – بهذا المعنى وحده – هي التي كانت – وستبقى ابد الدهر – النقطة البارزة في هذا المشهد الخالد ، والمحركة لتأريخ الاسلام والأمة الإسلامية ، مهما شرّقت الاهواء وغرّبت ، ومهما حاولت الالسن التشدق والنيل منها ، فحجة الله قد اقيمت بها ، وكلمته قد ثبتت.

ومن الولاية – بهذا المعنى وحده – تنطلق مناصب علي (عليه السلام) في دين الله تعالى ، وفي قيادة البشرية ، كالامة والخلافة وامارة المؤمنين ، وغيرها :

ومنها كذلك تنطلق مسؤولية الأمة المسلمة في التولي والخضوع له والتبعية لأمره ، وعليها يعتمد حساب الله للناس يوم الجزاء – كما ستعرف ان شاء الله. -

وهكذا فستكون الولاية – بهذا المعنى ايضاً – هي منطلقنا في حديثنا هذا ومحاولتنا لفهم دلائل الالتزام الالهي لها ولشخص علي (عليه السلام) ثم رؤية ما ترتب على الامة من مسؤولية في حياتها واستمساكها بدين الله العظيم.

إذ انَّ التزام الاسلام للولاية ووليها العظيم يعني ضرورة استيفائها معاً لجميع الضرورات والخصائص الإسلامية العامة دون أدنى تفاوت ، فهي – وكما قلت في مباحث سابقة – قد اصبحت – بهذا الالتزام – حقيقة اسلامية يجب ان تستوعب جميع خصائص الاسلام الداخلية في كل حقيقة من حقائقه ، لتتراءى فيها وحدة الاسلام ووحدة الحق الذي يمثله وغايات حكمة الله فيه ، اذ لا تفاوت في هذه الحكمة ولا عجز في قدرتها.

وكما اشرت في المقدمة فان ملاحظة الولاية ووليها من هذا المنطلق هي التي تمكن الانسان من الاستقامة معهما ومع مقتضياتهما في تصوره والتزامه وسلوكه، واي ملاحظة لاترد ضمن هذا الخط

هي اقصر من أن توفي متطلبات تلك الاستقامة.

ونحن حين تطلعنا الى دراسة الولاية وشخصية علي (عليه السلام) من هذا المنطلق فانما نهدف الى ادراك هذه الاستقامة.

كما اننا – وبعد ان استعرضنا ثلاثة من شرائط الحق في الاسلام هي مطابقته للواقع التكويني والاستقامة المطلقة معه ، ووضوح دلائله فيه – يمكننا ان نعتمد هذه الشرائط في دراستنا هذه ، لنفهم مدى اشتمال الولاية وصاحبها (عليه السلام) على هذه الشرائط ، واستقامة الخصائص الاسلامية كافة فيهما كأتم ما تكون الاستقامة.

نعم ان منهجة البحث هنا تستدعي تقديم الحديث في عنصر الوضوح من هذه الولاية قبل الشرطين الاخرين لاعتماد الحديث فيهما عليه ، وعلى ما فيه من دلائل دخيلة في مفهوميهما .

هوامش

- 1الأحزاب: ٤٥.

- 2الأحزاب: ٣٣.

- 3آل عمران: ٣٣ – ٣٤.

- 4البقرة : ١٤٣.

- 5الأحزاب: ٦.

- 6الأحزاب : ٢١.

- 7آل عمران : ٣١- ٣٢.

- 8النساء: ٦٥.

- 9الحجرات : ١٥.

- 10الحجرات : ١- ٢.

- 11النور : ٦٢ – ٦٣.

- 12إبراهيم :١.

- 13الصف: ٩ .

- 14الجمعة: ٢.

- 15محمد : ١ – ٣.

- 16الأنبياء : ١٠٧.

- 17النجم ٢- ٤.

- 18آل عمران : ١٧٩.

- 19الأنبياء : ٧٣.

- 20البقرة: ١٢٤

- 21المائدة ٥٥

- 22الحج : ٧٥

- 23البقرة : ١١٩

- 24يونس : ١٠٨

25الإسراء : ١٠٥

- 26النساء: ١٧٤

- 27المؤمنون ٧٣

- 28الجاثية : ١٨

- 29تاج العروس : مادة (حقق(

- 30فصلت : ٤١ – ٤٢.

- 31النجم : ٢ – ٤.

- 32الزخرف: ٤٣.

- 33الحج : ٦٧

- 34يوسف: ١٠٨

- 35المائدة: ١٦

- 36مجمع الزوائد للهيثمي ، ج ٩ ص ١٦٥ ن مكتبة القدسي القاهرة. والبداية والنهاية للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ج ٥ ص ١٠٩ ، وج ٧ ص ٣٤٩ ن مطبعة السعادة بمصر ،

ويراجع كتاب الغدير للشيخ عبد الحسين الاميني ج ١ ص ٢٦ – مطبعة الغري في النجف سنة ١٣٦٤ لمعرفة المصادر الأخرى للحديث.

- 37الغدير ج ١ ص ٣٥ عن الروضة النديه شرح التحفة العلوية ج ٢ ص ٢٣٦.

- 38المائدة :٦٧.

- 39الغدير ج ١ ص ٥٠ عن كنز العمال ج ٦ ص ١٥٣ ومصادر اخرى..

- 40الغدير ج ١ ص ٥٠ عن كتاب الولاية للسجستاني.

- 41ينابيع المودة للقندوزي ج ٢ ص ٧٤ ن مكتبة العرفان – بيروت.

- 42التوبة : ٦١.

- 43الحشر ١٨.

- 44المائده : ٣.

- 45التوبة ١٧.

- 46التغابن ٨.

- 47النساء : ٤٧.

- 48القصص : ٤١.

- 49الغدير ج ١ ص ١٩٦ – ١٩٨ عن كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري.

- 50الاعراف : ٤٣.

- 51الفتح : ١٠.

- 52الزمر: ٧.

- 53الغدير ج ١ ص ٢٤٦ عن كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري.

- 54كتاب سليم بن قيس ص ١٨٥ – ١٨٦ ط المطبعة الحيدرية – النجف.

- 55محمد:١٧.

- 56ابراهيم :٢٧.

- 57المائدة: ٦٧.

- 58يراجع كتاب الغدير : ج ١ ص ١٩٦- ٢٠٤.

- 59يراجع كتاب الغدير : ج ١ ص ٢١١ – ٢١٥.

- 60يراجع كتاب تفسير الميزان ج٥ ص ١٧٧-١٩٤ وج ٦ ص ٤٦- ٦٤. دار الكتاب الاسلامية طهران .سنة ١٣٧٧. وكتاب الغدير ج١ ص٢٠٥- ٢٠٩ وص ٢١٦- ٢١٧.

- 61المائدة : ٦٧.

- 62المائدة: ٦٧.

- 63المائدة :٦٧.

- 64طه : ١- ٢

- 65الميزان في تفسير القران : ج ٦ ص ٥.

- 66المائدة : ٦٧.

- 67الطور :٤٨.

- 68الحجر : ٩٤ – ٩٦.

- 69الغدير ج١ ص ١٥١ عن الحموي في فرائد السمطين . السمط الاول – الباب الثامن والخمسون.

- 70المصدر السابق ج ١ ص ٥٠ عن العديد من مصادره.

- 71احقاق الحق وازهاق الباطل ، تحقيق السيد شهاب الدين المرعشي ج ٥ ص ١٢٨ عن) دار بحر مناقب) ص ١٢١ – مخطوط) . ن المكتبة الاسلامية – طهران.

- 72المصدر السابق : ج ٥ ص ٢٨١ عن (در بحر مناقب) ص ٣١ وغيره.

- 73فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها من ج ١ ص ١٦٨ عن العديد من مصادره.

- 74مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٢٨.

- 75الشعراء : ٢١٤.

- 76كنز العمال ج ٦ ص ٤٠١ عن ابن مردويه.

- 77يراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) من مصادر هذه الاحاديث.

- 78شواهد التنزيل لقواعد التاويل للحاكم الحسكاني الحذاء الحنفي النيسابوري تحقيق محمد باقر المحمودي ص ١٩٣.

- 79الحجر : ٩.

- 80الغدير ج ١ ص ١٢ عن الخوارزمي في المناقب ص ٩٤.

- 81الاحزاب :٦.

- 82النساء : ٦٥.

- 83الغدير : ج ١ ص ١١ عما يذكر من مصادر.

- 84ابن الاثير في كتاب (النهاية) ، والزبيدي في كتاب (تاج العروس) مادة (توج)

- 85كنز العمال ج ٢ ص ٦٠.

- 86الغدير ج ١ ص ٢٦٤ عن الطبري في الرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٧.

- 87ن . م عن فرائد السمطين ب ١٢ وابن الصباغ في الفصول المهمة ص ٢٧.

- 88سبق ان نقلنا عن ابن الجوزي روايته في ان عدد الجمع يومئذ كان مائة وعشرين الفا.

الباب الاول

الولاية والوضوح الاسلامي

تمهيد

لابد للتعرف على عنصر الوضوح الاسلامي في ولاية علي عليه السلام من البدء معها من المراحل المبدئية الاولى لوضوح الحجة الالهية التي صدعت بأمرها ، ومن اضطراد خصائص الحق وشرائطه فيها – كما علمناه في المباحث المتقدمة.

لان الحجة الالهية في ولاية علي عليه السلام لا تختلف في خصائصها عن أي حجة لله اخرى ، ترد في أي حقيقة من حقائق الاسلام فلابد ان تكون حينئذ في الحديث سعة تستوعب هذه الحجة في اطارها الاسلامي العام ، لان ملاحظة هذا الاطار – وان كانت بنحو من الاختزال او الاجمال السريع – هي التي تمكننا من ادراك صورة جامعة عن استيعاب خصائص الحق لجميع مظاهر تلك الحجة ، وللافاق الاسلامية التي تنتهي اليها ، بما فيها مفهوم الولاية والولي – فهي جميعها فروع تكتسب سماتها وميزاتها من تلك الاصول الاولى- كما هو معلوم. -

ولهذا كان لابد من الانطلاق في متابعتنا لخصائص هذه الحجة من اول حلقاتها الاسلامية الثابتة وامتدادها – من ثم – في الحلقات الاخرى ، لان الغموض او القصور في أي من تلك الحلقات عن استيعاب شيء من متطلبات الحق سينعكس – ولا ريب – في سلبياته على كل ما يستتبعه من حلقات

وشؤون ، فالفرع تبع لاصله والنتائج تتبع اخس المقدمات (كما يقول المنطقيون.(

بل – وحين نلتفت الى المسألة من خلال ذلك التوحد الاسلامي العام ، وتكامل البنيات الاسلامية كافة ـ كما أشرنا الهما اكثر من مرة ـ فان تلك السلبيات ستطال تلك البنيات الاسلامية باجمعها ، ما سبق من حلقاتها وما لحق بعد ثبوت التزام الاسلام لها . وهذا محال ، بعد فرض ان الاسلام هو دين الحق ، وانه منزل من الله العليم القدير الحكيم.

على ان من المحال – من جهة ثانية – ان ندرك وضوح الحق في هذه الولاية وشؤونها قبل ان نقف على مستلزماته في الحلقات السابقة التي اعتمدت هذه الولاية في وجودها ، وبيّنت دورها العظيم في دين الله.

ونحن – بهذا الصدد – نعود الى ما ذكرناه سابقا من حاجة المذهب الحق الى المصدر الالهي ، وان هذه الحاجة انما هي لقصور الانسان عن الاستقلال بنفسه في الاحاطة بواقع الامور ، وعن ادراك مستلزماتها في وجود الانسان وحياته ، وانتظام علاقاته المختلفة مع بارئه تعالى ، ومع ذاته ، ومع مختلف مظاهر التكوين الاخرى . ولهذا فهو عاجز عن ان يضع لنفسه التصورات والمناهج المناسبة التي تكفل له الاستقامة مع ذلك الواقع ، ومع متطلبات الحكمة الربانية فيه ، حيث يعنيه مفهوم الحق ذاته، وحيث يستدعيه تحققه في سلوك الانسان.

كما نعود ايضا الى ما ذكرناه من ان الله تعالى قد قضى – للطفه الشامل ورحمته الواسعة – بسداد هذه الحاجة للانسان في الاسلام بدينه العظيم ، فجعله هو ذلك المنهج والنور الذي يهيء له البلوغ الى غاياته تلك من ايسر سبيل واهنئه.

ومن المستلزما ت الواضحة لهاتين الملاحظتين : ضرورة ان يصبح وفاء الاسلام بحاجة الانسان تلك ، وفاء عاماً لا تحدّه حدود ، دون حدود الانسانية ذاتها ، ودون حدود أصعدة حياتها في هذه الارض ، لان قصور الانسان نفسه عام شامل ، وحاجته الى مذهب الحق عامة ايضاً ، يستوعبان تلك الحدود بأجمعها كذلك.

ومن هنا كان لابد أن تكون الحجة الالهية – وهي تأخذ بيد الانسان في سبيل الحق تلك – عامة كذلك ، وبدرجة من الوضوح تمكنها من ان تملا افاق الوعي الانساني حين يسترشد هداها في كل صعيد ، وعلى أي حال ، لانها لا تستطيع تحقيق غاياتها في واقع الانسان مع أي غموض يغلق امامها منافذ الوعي.

ومن هنا كان وضوح هذه الحجة في الاسلام هو الاساس الذي يستند اليه أي وضوح اخر فيه يرد في أي موقع من مواقعه ، في أي رشد او هدى يمليه فبوضوح هذه الحجة يصبح الحق عنواناً لأي حقيقة من حقائق الاسلام ، وقاعدة أساسية في أي أطروحة يقدمها للانسان في أي صعيد .. وهي خاصة اسلامية فريدة يستحيل ان تتراءى في غير دين الله من الاديان والمذاهب ، لانها تتطلب اضطراد سمته الواقعية، واستقامة دلائلها في كل شان من شؤون الدين او المذهب ، وفي كل جزء من اجزائها ، وهو مالم – ولن – يتوفر في غير الاسلام.

ويمكن استفادة هذه الخاصية الاسلامية من التأمل في الايات التي ذكرناها سابقا شواهد على عنصر الوضوح في الاسلام ، كقوله تعالى مثلا :

)قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني)(١(

وقوله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه انه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صارط مستقيم.(2) (

وما اكثر ما يتخذ القران هذا الجلاء والوضوح في ذاته وفي البيانات الاسلامية الاخرى مستنداً لايضاح مختلف المفاهيم والحدود الاسلامية ، وتتراءى هذه الطريقة القرانية للباحث مع قليل من التامل في الايات السابقة وغيرها ، كما تتضح في العديد من اشارات القران الى إعجاز ذاته لينطلق من هذا الاعجاز الى بناء مفاهيمه وحقائقه التي يطرحها امام الوعي البشري.

ولا اشكال في الأمر ، اذ النور كما هو جلي في نفسه يمكن ان يصبح منشأ للجلاء في كل شيء ينبثق منه او ينعكس عليه.

ولا افيض في الحديث حول هذه الناحية من دين الله ، اذ التفضيل مما لا يعنينا الآن ، وراء هذه الحدود العامة التي نريدها هنا . حيث استبان لنا ان أقرب السبل لرؤية وضوح الحق في ولاية علي عليه السلام هو تتبع منابع هذا الوضوح في دلائل الاسلام وبياناته العامة ، وتسلسلها الى حيث تستند ولاية علي عليه السلام ، واعلان الرسول صلى الله عليه وآله لها في غدير خم ،فمن وضوح حجة الله تعالى فيها يتضح مفهومها الاسلامي المطلوب ، وتتجلى ابعادها كافة ، كما تتضح جميع الشرائط والشؤون والمستلزمات والاثار التي تتعلق بها ، لا في حدود الافاق الاسلامية خاصة ، وانما في حدود ما يمليه الواقع في تطلع الانسان الى الحق ، وفي مسؤولياته الكبرى في اتباع سبيله.

شواهد التصديق الالهية

من الحلقات الاولى التي يتجلى بها وضوح الحجة الالهية في دلائل الاسلام وبيناته كافة ، هي تلك الشواهد التصديقية التي يؤيد الله تعالى بها كلمته وهداه في هذه الارض ، ويبين بها صحة انتساب شخص من الاشخاص اليه ، ورفع جميع الريب والشكوك التي يمكن ان ترد في النفوس السليمة حول هذا الانتساب.

فمع ما تحمله الدعوى الصادقة لهذا الانتساب من الدلائل الذاتية على صدقها ، بحيث ان النفوس السامية قد لا تحتاج الى شواهد اخرى دون ما في ذاتها من معالم الحق ، وما في فطرتها من دلائل الهدى لتدرك بدون ادنى ريب صحة انتسابها الى الله تعالى حيث ترى النور في منابعه، الا ان عموم حاجة الناس للهدى الالهي وشمولها فيهم كافة مما يوجب ان تسند تلك الدعوى ببعض الشواهد الالهية ، التي تثبت صحتها لكل احد وان زاغ به الهوى عن سلامة الطريق ، وتملا بها كل وعي وان قصرت به الصوارف عن ادراك النور في منابعة ، اذ ليست النفوس الانسانية كلها بدرجة من الصفاء والاستقامة تمكّنها من ان تدرك الحق في ذات الدعاوى المحقة ، وان لم يكن معها من الشواهد الملفتة ما يأخذ بالعقول اليها بشكل جازم لا ريب معه ، في حين انه لابد ان تقام حجة الله على الناس كافة ليهلك من يهلك عن بينة كما يحيي من يحيي عن بينة.

هذا اضافة الى ان عجز الانسان ذاته عن الاحاطة بالواقع ومتطلباته قد يقعده عن التمييز بين المحق والمبطل من تلك الدعاوى ، اذ للباطل طرقه الاخاذة في التمويه وجلب الانتباه ، مما يعني ضرورة أن نجعل له من الشواهد ما يرفع من نفسه أي ريب وهو يسلّم زمام ذاته وحياته الى تلك الدعاوى الصادقة ، ويستهدي انوار من اصطفاه الله حقاً لابلاغ كلمته الى الناس ، وللتعبير عنه في البشرية.

بهذه الشواهد – مع تلك الدلائل الذاتية للصدق في الدعاوى طبعاً – يمكن أن يتضح ذلك الانتساب الى الله تعالى ويتجلى فيه برهانه بشكل تقام به الحجة على الناس كافة ، وان رانت على بعضها اوضار الانحراف والشذوذ عن قويم السبيل.

فاي دعوى من أي احد تبقى ناقصة الحجة دون هذه الشواهد التي تثبت صدقها أمام كل وعي ، وتغني بها كل بصيرة.

والعكس صحيح يضا ، اذ من غير الممكن ان تسند أي دعوى كاذبة ولو ببعض تلك الشواهد ، لانها ستصبح اغراء بالباطل ، وهذا محال في حكمة الله سبحانه كما هو واضح.

اذن فتلك الشواهد هي الحد الفاصل بين الصادقة من دعاوى الاصطفاء الالهي وكاذبتها ...بين الوضوح الذي يملأ العقل المنفتح بالنور والهدى ، والغموض الذي لا تهتدي معه النفوس الى قرار.

رسالات الله وشواهد التصديق

ولا تختص رسالة محمد صلى الله عليه واله وحدها بالضرورة الى هذه الشواهد ، وانما هي نقطة مشتركة في جميع الرسالات والمناصب الالهية إذ لابد من اثبات صدقها أمام البصائر كافة، وتعهد الله لها ، ورعايته إياها، فالملاك فيها واحد والحاجة معها واحدة ، والحكمة التي قضت بوجود تلك الرسالات والمناصب واحدة كذلك.

وهكذا واكبت الشواهد التصديقية دعوات اصفياء الاسلام ، وسفارات منتجبة في مراحلها المختلفة وصورها كافة منذ اولى الرسالات الله في هذه الارض ، وحتى الرسالة العظمى التي صدع بها محمد خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله.

وعنصر الاعجاز كان ولا يزال هو أجلى واهم تلك الشواهد – ولا ريب – لوضوح إرتباطه بالله سبحانه وحده اذ لا يستطيع التطاول اليه بشر بدون اذنه تعالى .. وعلى هذا الوضوح يعتمد جلاء الحجة الالهية ذاتها ، وما تدل عليه من حقائق في كل جانب من جوانب تلك الدعوات .. فحين تسند دعوى الإصطفاء الإلهي أو السفارة عن الله في أمر بما تعجز عنه القدرة البشرية ـ كما في خرق بعض النواميس الطبيعية مثلاً ـ فلا مجال حينئذ لأي ريب أو شك في صدقها وصحة ماتتضمنه من مفاهيم ومناهج وبينات.

ومن هنا كانت المعجزات هي العنصر البارز من شواهد التصديق التي واكبت الرسل واصفياء الله في البشرية ، لتأييدهم في كل دعوى ، واسنادهم في كل موقف يحتاجون فيه الى هذا الاسناد ، دون فرق بين دعوى الاصطفاء ذاتها ، وبعض مستلزماتها الفرعية.

وهي مسألة لاتختلف فيها رسالة أو نبوة أو ولاية أو وصاية الهية على الحق ، فمستند الجميع واحد ، والقدرة الكافلة لها جميعاً واحد ـ كما أشرت ـ.

وهكذا فمن سفينة نوح عليه السلام .. الى نار ابراهيم عليه السلام .. الى عصا موسى عليه السلام .. الى مائدة عيسى عليه السلام .. الى ناقة صالح عليه السلام .. الى جذع مريم عليها السلام .. الى جلب من كان عنده علم من الكتاب لعرش بلقيس من اليمن الى بيت المقدس قبل ارتداد الطرف .. الى

غيرها من معاجز وكرامات الرسل والأوصياء والاولياء ، فهي جميعها ترد ضمن هذه القاعدة التي ذكرناها ولا ندخل في تفاصيل هذه المسألة فهي لاترد ضمن اهتمامنا وراء هذه الاشارة السريعة.

سعة الرسالة المحمدية

ورساله محمد صلى الله عليه وآله لاتختلف عن غيرها من رسالات الله في هذه الناحية ، اذ لابد أن يكون لها من شواهد التصديق مايثبت ارتباطها بالله تعالى دون أدنى شك او ريب يمكن أن يعتور بعض النفوس حولها ، وحول صدقها في الانتساب اليه سبحانه ولابد أن يكون هذا الارتباط بدرجة من الوضوح تكفي لأن تكون منطلقاً لكل وضوح أخر فيها ، وعلى أي صعيد.

إلا أن هناك فوارق مهمة بين هذه الرسالة العظمى ورسالات الله تعالى التي سبقتها ينبغي الالتفات اليها هنا ، لما لهذه الفوارق من آثار كبرى في دلائل هذه الرسالة وبيناتها ، وفي الشواهد التصديقية التي تفرض وجودها على الوعي البشري.

ومن أهم هذه الفوارق : تلك القاعدة الانسانية الواسعة التي جعلتها حكمة التشريع موضوعاً لهدى الله في هذه الرسالة ، اذ لم يؤخذ فيها ـ ماأخذ في غيرها من رسالات الله ـ شيء من الاختصاص بمجتمع من المجتمعات ، او طائفة من الطوائف ، او قومية من القوميات ، او زمن من الأزمان . أو بيئة من البيئات ، منذ نزولها وحتى القيامة ، وانما هي شاملة الهدى والنور للبشرية في كل زمان ومكان.

وهذه ناحية معروفة في هذه الرسالة ، وبها صرح القرآن دستورها الخالد ، اذ قال تعالى فيه :

)ومآ ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ..)(٣.(

)قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً ..)(٤.(

وشمولية الموضوع هذه مما يستوجب أخذه أساساً أو رصيداً في البينات الالهية التي تعتمدها هذه الرسالة كذلك ، وفي الشواهد التصديقية التي تثبت صدقها في الانتساب الى الله عز وجل، او تثبت بعض حقائقها امام البصائر.

فحكمة الله جل شانه حين شاءت أن تجعل من هذه الرسالة هدىً للبشرية جمعاء، كان من الضروري ان تملأ بيناتها ألباب البشرية جمعاء ، وان تجعل في شواهد تصديقها غناء البشرية جمعاء أيضا.

وحين قضت بان تجعل منها نوراً يستضيء به الإنسان في كل مسلك من مسالك الحياة ، وفي كل

زمام و مكان، وفي كل مستوى حضاري ، كان لابد أن تجعل في دلائلها ما يملأ بصيرته في كل أولئك ايضاً.

وحين ارادت ان تختم بمحمد صلى الله عليه واله جميع الرسل، وبرسالته العظمى جميع الرسالات، لتبقى هي الشفاء الدائم للناس، والنور الأبدي لاستقامتهم في سبيل الحق ، كان لابد أن تجعل في بيناتها وحججها ذلك النصوع والجلاء الأبديين كذلك لرفع أي ريب في النفوس.

اذ – وكما قلنا سابقا – لا تفاوت في حاجة البشر، ولا عجز في قدرة الله عز وجل ولا قصور في سلطانه ولا تفاوت في حكمته .. وكل ما قلناه مما تقضي به هذه الحكمة – كما وهو واضح.

وهكذا شاءت تلك الحكمة ان يكون القرآن – وهو اعظم الحجج الإلهية ، والشواهد المعجزة –هو المصدق الأول لمحمد صلى الله عليه وآله في رسالته ، وأن يصبح – وهو الاجلى وضوحاً والانصع بينة - هو المستند الاول لتوفيق دعوة محمد صلى الله عليه واله ، واثبات ارتباطها اليقيني بالله تعالى وبارادته.

ولهذا فقد جعلته شامل الإعجاز ، دائم الإعجاز ، بين الإعجاز لكل بصيرة ، يفي لكل متطلع للحق بحاجته من القناعة واليقين حين يخلص لله بنيته.

وهكذا كان القران هو الدليل الواضح على صدق ذاته – اولاً – والمصدق للرسول صلى الله عليه وآله الذي انزل عليه – ثانياً – وهو عنوان الوضوح في أي حقيقة اسلامية ترد فيه ، أو في السنة الحجج الالهية التي يعترف بها على امتداد حلقاتها اليقينية – ثالثا –

بل وكان القران ايضاً هو المصدق لمن سبق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من رسل الله تعالى واصفيائه عليهم السلام كافة ، وما سبق رسالته من رسالات الحق ونبواته جميعاً، اذ ما كانت دلائل الصدق فيها لتثبت امام البصائر في هذه العصور لو لم يكن لها شاهد من كتاب الله العظيم.

التحدي القرآني

وقد اتخذ القران السبل لتنبيه الوعي الانساني الى ما في ذاته من منابع الاعجاز ودلائله ، واتخذ من هذه المنابع اساساً لاقامة الحجة ببيناته على الناس ومدركا لارشادهم الى ما فيه من بصائر.

وكما كانت هذه السبل السديدة المتعمدة في البيان القرآني فعالة التأثير في زمن الرسالة ، فهي لاتزال فعالة في نتائجها بنفس الدرجة والوضوح في هذه العصور ايضا ، وستبقى ابدية التاثير بنفس

الدرجة كذلك مع خلود القران ، واستمرار الرسالة ودورها في حياة الانسان ، دون أدنى تحديد لفئة من الناس ، أو اتجاه حضاري معين، او مستوى علمي خاص ، وانما هو عموم الحجة الالهية ، وشمول الهدى الرباني لجميع البشرية.

واول ما يلفت الانتباه من القرآن في هذا المجال ، هو التحديات الصريحة والمتكررة للعقول بالاتيان بالمثل .. فمن تحدي البشرية – وغير البشرية ممن يمكنه حمل عنصر العقل والتفكير من المخلوقات – بأن يأتوا بمثله وان تضامّت جميع القوى وتكاتفت الطاقات والقابليات:

)قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٥.(

الى التنزيل مع الجميع – كذلك – بالاتيان ولو بعشر من سوره :

)ام يقولون افتراه . قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل انتم مسلمون) (٦(

الى التنزيل اخيرا بتحدي الجميع ايضا بالاتيان ولو بسورة واحدة .. نعم سورة واحدة من سوره القصار التي لا تتجاوز كلماتها عدد الاصابع .. بل وبتحديهم باثبات عجزهم حتى قبل محاولتهم التطاول والشروع بالاتيان:

)وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين)(٧(

وحين يلتفت المرء الى حقيقة ان هذه الآيات المباركة هي مما يقرأ اليوم في القرآن ، كما كانت تقرأ في عصر الرسالة ، وان العجز هو جوابها اليوم ، كما كان جوابها في ذلك العصر، فمن الطبيعي أن يعلم فارق مابين القرآن وغيره ، ويدرك ان مصدر القران هو ذلك العلم المطلق ، والقدرة المهيمنة ، التي لا ترقى اليها العقول ، وهي نتيجة واضحة لكل ذي بصيرة ، ولاتحتاج الى اطلاع واسع او فهم عميق لمعنى الاعجاز او موارده في القرآن او افاقه في حقائقه وكلماته.

اعجاز الخصائص القرآنية

وفي اتجاه آخر في هذا المجال أيضاً ، نرى القرآن في الكثير من آياته المباركات يلفت العقول الى مافي ذاته من سمات خاصة ومزايا معجزة ، والى مايحويه من جوانب للكمال تقصر العقول عن

ادراك مداها ، وتضيق طاقاتها عن الاحاطة بافاقها كما في قوله تعالى ـ مثلاً ـ:

)ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٨.(

)قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين)(٩.(

)الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً حسناً ماكثين فيه أبداً)(١٠(

الى غير هذه الآيات الكريمة ، فهذه النعوت تملأ جميع الآيات التي يعرض فيها القرآن الكريم الى بيان مافي ذاته من خصائص ، او الى ماله من أهداف في حياة الانسان.

ويلاحظ ان القرآن ـ وهو يذكر سمات الكمال هذه لنفسه ـ لا يأتي بها لمجرد الثناء والتعظيم لذاته ، دون ان يكون له من الأرصدة مايثبت به قوله أمام البصائر .. فهذا مما يستحيل في حقه ، لأنه ـ وكما علمنا سابقاً ـ يلتزم سمة الحق أساساً له في الوجود ، وقيمة عليا له ، حيث تنتهي اليها قيمة الاخرى كافة . ومن الطبيعي أن تعظيم ذاته دون رصيد من الواقع مما يتنافى مه هذا الالتزام ـ كما هو واضح ـ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى ، فإن القرآن وهو يعرض صور الكمال تلك لنفسه ، لا يعرضها كصور شاعرية خيالية ، من اجل استقطاب العواطف ، واثارة الاستحسان الأدبي ـ كما هو المشهور في قراءة القصائد الشعرية ، او النوادر والنصوص الأدبية ـ وانما هو يعرضها في موارد اقامة الحجة ، وتنبيه البصائر ، وتحدي العقول . ومن الطبيعي ـ حينئذ ـ ان يعد للحساب عدته المناسبة ،ويتخذ للصراع أهبته ، فهو يعلم أنه محاسب على كل كلمة فيه ، وان كل مفهوم له سيكون مجالاً لتمحيص الافكار والعقول ، لامن النفوس المعاندة فحسب ، وانما من العقول المتطلعة الى الحق ايضاً ، اذ لا يمكن اقامة الحجة عليها مع أدنى خلل يثبت عليه في أي مفهوم يقدمه او تفاوت يؤاخذ به في أي اطروحة يلتزمها . ولهذا كان عليه أن يتخذ من أرصدة الاثبات ما يحقق له أهدافه كاملة مع الانسان ، دون أي نقطة من الضعف يمكن ان تورد عليه ، حتى في أعماق النفوس.

وبالفعل فهذا هو المشهود من أمر القرآن العظيم ، في كل ما يطرحه من قضايا ومفاهيم ، في مختلف الجوانب ومنها ماسبق ان لاحظناه في التحديات الصريحة السابقة ، ومانراه في الآيات والسياقات التي يعرض فيها لخصائصه وبيان صور الكمال فيه ، فان العقول البشرية ـ في مختلف مستوياتها

واتجاهاتها ـ لم تتمكن من ان تقف معه على قدم فيها ، او تثبت أمامه في موقف مواجه ، فضلاً عن أن تبدي في أي مما ذكره بعض الخلل في دعوى ، او مجانبة للحقيقة في مورد ، او شططاً فيما طرحه من تحد او التزامه لذاته من سمات عليا .. وهو قصور لم يتميز به عصر من العصور ، أو مستوى من المستويات وانما هو عام شامل لجميع العصور والمستويات ، اذ ليس هناك أسهل من نقض كيان الاسلام ـ من اساس ـ لو وجدت البصائر شيئاً من الوهن في القرآن ، او رأت شيئاً يستحق ان تلتفت اليه العقول منها ، فحدّية الحق الذي يلتزمه القرآن لنفسه ، واستقامته المطلقه مع الواقع ، مما يبعد به عن الالتواءات والدخائل والنسبية ، فحقائقه ، أما ان توجد في اقصى درجات السمو والكمال واما أن لا توجد بالمرة ، اذ لا مرحلة وسطى بين الأمرين ، وهي ميزة قرآنية أو بالأحرى اسلامية خاصة لا يدانيه فيها مذهب او دين آخر سواه.

ولهذا فان نفس بقاء الاسلام والقرآن ، ونفس خلود تحدياته فيه دون جواب ، وسلامة نعوته وخصائصه دون وهن ، هي من أوضح المثبتات أيضاً على أنه من الله العليم الخبير .

وهي نتيجة واضحة كذلك ، لاتحتاج الى كبير تأمل او فهمم عميق.

التقدم العلمي شاهد لإعجاز القرآن

ومجال آخر لاعجاز القرآن ، لا ينبغي ان نغفله ، وان كنا بهذه السرعة ايضاً ، لما لهذا المجال من وضوح تدركه جميع العقول وعلى مر العصور ، ولا سيما في هذا العصر الذي لمست فيه البشرية بعض أثاره المباشرة.

وهذا المجال هو ذلك الوعد القاطع الذي أخذه القرآن على نفسه ، وعلى الاسلام ككل بأن يكون تقدم البشرية في العلم ، ومسيرتها في ركاب المعرفة ، وترقّيها في سلّم الكمالات الانسانية ، وما ستناله من نتائج التقدم في سبيلها ، كلها منابع متنامية الرفد والعطاء في ابراز ما يحمله الاسلام من أرصدة الحق ، واستقامته مع الواقع.

وهو وعد يعني أن تقدم الانسان في العلم والمعرفة ، وترقيه في درجات الكمال سيكون كذلك من الشهواد التصدقية الدائمة لرسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه واله وسلم وبعض دلائلها على ارتباطها المطلق بمصدرها العظيم ، وركونها الى مشيئته وحكمته . قال تعالى:

)سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء

شهيد(

وهو وعد ثابت ، جرت بتصديقه الايام ، ومضت لتحقيقه مسيرة الانسان في ركاب العلم ، كما يبدو مع قليل من التأمل.

وهكذا ، فبينما تتهاوى صروح اديان ومذاهب اخرى مع تقدم الانسان في المعرفة وتتساقط كتساقط اوراق الخريف اذ لا تستطيع الثبات امام تمحيص العقول ، وانوار العلوم ، وعواصف الزمن نرى ان حقائق الاسلام تتبلور يوما بعد آخر ، وتتجلى امام وعي الانسان عنوانا لبصائر الحق ، وسبيلاً فريدا لخلاص البشرية من الانحراف والسقوط.

الى غير هذه النواحي من اعجاز القران واصعدته التي يراها طالب الحق في كتب الاختصاص .. وللمرحوم السيد الخوئي قدّس سرّه مباحث جيدة حول هذا الاعجاز في مقدمة تفسيره للقرآن (البيان) وكذلك للشيخ البلاغي رحمه الله في مقدمة تفسيره (الاء الرحمان (فليرجع اليها من يرغب الاستزادة .

وهكذا تعددت اصعدة الاعجاز القراني ، وتعددت تحديات القرآن بها ، فلم تخل منها آية من آياته ، كما لم تستثن كلمة من كلماته او اشارة من اشاراته عن ان تكون مجلى لواحد او اكثر من منابع هذا الاعجاز . ولئن استطاعت البشرية ان تدرك شيئا من هذا المنابع خلال ممارستها الطويلة معه الا ان لقادم الزمان ، ولارتقاء البشرية في سلم المعرفة آثارهما المؤلمة في فتح منافذ اوسع لرؤية اشمل في هذا الاعجاز وادراك موارده ، وهذا بعض ما عنته الاية الكريمة السابقة ، واثبتت صدقها فيه الايام.

اذن فالقران هو كتاب الله الذي لا ريب فيه ، وهذه القضية هي اول ما يعنيه الاعجاز القراني من دلائل ، فهي قضيه واضحة بذاتها ، كما انها منبع لكل وضوح موجود في الاسلام ، وفي القران ايضا ، بل وفي أي التزام اسلامي دلت عليه البينات التي يقيمها، حيث تنظم بها سلسلة الحجة الالهية ، ويتكامل فيه تسلسل الوضوح ، اذ من البين ان القران بهذا الاعجاز – قد اصبح الصورة الفعلية القائمة للالتزام الالهي ذاته ، واليه تنتهي تلك السلسلة الاسلامية حين تكون مترابطة الحلقات محكمة الاصول.

دلائل الوضوح في رسالة محمد (صلى الله عليه واله(

ومع ملاحظة النتيجة السابقة التي انتهينا في الفصل المتقدم .. فاننا نعلم ان القران حين يلتزم محمداً بن عبد الله صلى الله عليه واله رسولاً في هذه البشرية ومثلاً شاحصاً لحقائقه في النوع البشري ، اذ يجسد امر الله تعالى بوجوده ، ويقيم كلمته في حياته ،وحين يتعهده ابدية لقيمه ومفاهيمه حيث يمكن للبشرية ان تترسم خطاه، وتنتهج سبيله في كل ما ينطبق به من قول ، وما يأتيه من عمل ..كان لابد ان يكون محمد صلى الله عليه واله هو هذا الرسول المصطفى ، وان يكون هو المثل الاعلى الذي يريده الله لمتبعي دينه دون شك ، وان يكون هو القدوة الخالدة للمهتدين بنوره مع الزمان . فما كان للقران ان يتفاوت في كلمة ، او التزام ، لانها كلمة الله سبحانه والتزامه – كما علمنا. -

ولهذا فان آيات كريمة مثل قوله تعالى:

)يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ..)(١١(

)هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله ..) (١٢.(

..ان ايات مثل هاتين كافيه كل الكفاية في الدلاله على هذا الالتزام بكل ما فيه من حدود وافاق وان لم تكن هناك دلائل اخرى لتاييده في دعوته صلى الله عليه واله وتصديقه في القيام بمهمته .. اذ لا نحتاج بعد هذا التصريح الى شيء اخر من هذا القبيل.

على ان وجود رسول الله صلى الله عليه واله نفسه ، ومواقفه ، وكلماته ، وما صدر على يديه من معاجز وكرامات كلها شواهد قائمة ومتواترة في تصديقه في رسالته ككل ، وفي كل جزئية من جزئياتها .

نعم وحين ضمن القران للانسان بان كل ما يصدر من الرسول صلى الله عليه واله وسلم من قول انما هو مظهر لكلمة الله سبحانه وارادته ، وان جميع ما يأتيه من فعل انما هو تجسيد لامر الله واذنه، وان كل ما منع منه انما كان لنهي الله وزجره .. كان لابد ان تكون هذا الضمان – وفي جميع موارده هذه – ثايتاً يسمو بالعقول عن ان تشك ، ويربأ بالبصائر عن ان ترتاب..

فما ورد مثل قوله تعالى:

..)ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى) (١٣.(

)ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه حاجزين)(١٤(

..انما هو تعهد قراني والهي للانسان بان لا يخرج هذا الرسول المطهر عن استقامة الحق في كلمة ، ولا يقصر عن حدود الله تعالى في عمل ، اذ لاهوى يمتلكه ، ولا ضلال يقعد به عن بلوغ الغاية ، ولا زيغ يحيد به عن الصواب ، و الا وجب – في حكمة الله تعالى – ان لا يملي له بمدد او يمهله في الحياة يوما.

والقران حين رسم للنبي صلى الله عليه واله دوراً خاصاً في البشرية كولايته عن الله تعالى فيها ، وأولويته بالمؤمنين من انفسهم . او حين حدد له مهمات معينة في هذه الحياة ، كا بلاغ رسالة الله عز وجل الى الناس ، وقيادتهم في سبيل الهدى ، او غير هذه النواحي من مسؤولياته صلى الله عليه واله .. كان لابد ان يكون له ذلك الدور ، ولابد ان يقوم بتلك المهمات كافة ، دون ادنى تفاوت او تقصير.

)انما وليكم الله ورسوله ..)(١٥(

)النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم ..)(١٦(

)هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين)(١٧(

وحين يصرح القرآن العظيم بوجوب اسلام المؤمن زمام نفسه الى الرسول صلى الله عليه واله ، والانقياد المطلق لامره ونهيه ، واطاعة كلمته ، وتولّيه ، والاستجابة لكل ما يصدر منه .. كل هذه كمسؤوليات اساسية يعتمدها نفس الايمان بدين الله تعالى واتباع هديه .. كان لابد ان تكون هذه المسؤوليات ايضاً بعض الاسس الاولى لهذا الايمان ايضاً ، اذ يعني استحالة تحققه بدون الوفاء بها كأدق واوفى ما يكون الوفاء.

)فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)(١٨(

)يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم)(١٩(

)يا ايها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)(٢٠(

)قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم)(٢١(

)ومن يتولى الله ورسوله والذين امنوا فان حزب الله هم الغالبون)(٢٢(

الى غير هذه الايات الواردة في بيان مسؤولية المؤمنين تجاه الرسول صلى الله عليه واله وسلم.

والقران – بهذه الاحكام واشباهها – انما يستقيم مع ذاته كبصائر لله ، ومع التزامه لسمة الحق ، فان وجود شخص كهذا المنتجب ، رسول عن الله سبحانه فيما يبلّغ، لا ينطق عن الهوى بكلمة ، ولا يقول الاما يريد عليه به الوحي ، ولا يعمل الا ما شرعه الله له عمله ، وله مثل تلك الولاية الالهية العامةعلى المؤمنين والاولوية بهم حتى من انفسهم ، وله مثل ذلك الارتباط المطلق بالحق والهدى الرباني.

..ان وجود شخص كهذا المنتجب ، لابد ان تكون مسؤوليات الامة تجاهه هي بمثل هذه الحدود المطلقة ، في التبعية والانقياد والتسليم ، دون ادنى حرج في النفوس ولا غضاضة في هذا ، فهي – قبل هذا – مسؤولية الحق نفسه ، وهي مسؤولية الانسان تجاه ذاته ، وتجاه استقامتها في الحياة معه وسعادتها ، اذن فهي ليست مفروضة عليه من خارج كيانه – كما هو واضح – وليست بعيدة عن تطلعاته الفطرية الى الدرجات التي يحتاجها من الكمال الذاتي.

دلائل الوضوح في ولاية علي عليه السلام

وفي هذا المسلك ايضا ترد ولاية علي عليه السلام..

فحين يصدر الامر الرباني في القران الى الرسول صلى اله عليه واله و سلم بتبليغها الى الامة – فيما يبلغه من امر الله عز وجل ورسالته – وحين يعين لها القران ذلك الموقع الرفيع بين اصول الاسلام الاولى ، والتي لا يتحقق له كيان بدونها..

...)يا ايها الرسول بلّغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)

..كان لابد ان تكون هذه الولاية امراً ربانياً وجزءاً من رسالة الله العظمى ، ولابد أن يكون لها ذلك الموقع المكين من دين الله ، كما صرح به القران تماماً .. اذ القران لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وحين يقف الرسول صلى الله عليه واله بها ذلك الموقف المشهود في يوم غدير خم (وفي غيره من المواقف التي اعلن بها الولاية) ليعلن أن (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من ولاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله) .. كان لابد ان تكون هذه الولاية الكبرى لعلي عليه السلام ، وان يكون الرسول صلى الله عليه واله صادقا في هذا الاعلان ، وان يمضي التعيين كما قاله

صلى الله عليه واله ونطق به ، اذ الرسول صلى الله عليه واله ((لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى)) بنص القرآن.

وحين ياخذ الرسول صلى الله عليه واله البيعة بهذه الولاية على العباد ، ويأمرهم بجعلها كدرجة ولايته هو صلى الله عليه واله في التوالي والانقياد والاستجابة لامر علي عليه السلام ونهيه..

)) ..فان الله قد نصب لكم ولياً واماماً وفرض طاعته على كل احد ، جائز قوله ، ملعون من خالفه مرحوم من صدّقه ـ اسمعوا واطيعوا فان الله مولاكم وعلي امامكم((..

))ايها الناس ، انا اولى بالمؤمنين من انفسهم ليس معي أمر ، وعلي من بعدي اولى بالمؤمنين من انفسهم ليس لهم معه أمر((

..كان لابد ان تمضي هذه البيعة مع المؤمن وهو يستمسك بدين الله ، وان تكون لولاية علي عليه السلام نفس ولاية الرسول صلى الله عليه واله ، وأولويته بالمؤمنين من انفسهم دون ادنى مجاملة او مبالغة ، اذ لا مجاملة في الحق ولا مبالغة في بيناته.

اذن فولاية علي عليه السلام التزام اسلامي واضح لا ريب فيه ، لانها حلقة ثابتة من هذه السلسلة الجلية المترابطة الحلقات .. حيث لم يسبقها وهن في حلقات ثبوتها ولا غموض في دلالات حجتها..

فالقران الذي أمر الرسول صلى الله عليه واله باعلان الولاية هو تلك المعجزة الالهية الخالدة، التي ثبتت بها رسالة محمد صلى الله عليه واله نفسها ، وصدقت من سبقه من رسل الله واصفيانه كافة.

ومحمد صلى الله عليه واله الذي اعلنها على الاشهاد ، هو ذلك النبي الذي يستحيل عليه ان يتقول على الله سبحانه بكلمة ،او ان يكذب عليه في مدعى ،اذ تعهد منه الله تعالى –صدقه في كل قول.

كما لا خفاء في مفهوم وحدودها ومعالمها ، بعد ان وضع لها القران والرسول صلى الله عليه واله كل تلك الدلائل والمهمات والادوار الخاصة في دين الله عز وجل – وفي البشرية كما سبق ان استعرضناه في احاديث سابقة – فهي ولاية كولاية الرسول صلى الله عليه واله التي جعلها الله تعالى ، وهي اولوية مطلقة بالمؤمنين كافة حتى من انفسهم فلا امر لهم مع علي عليه السلام ، كما لا امر لهم مع رسول الله صلى الله عليه واله.

ولا خفاء في دور هذه الولاية في البينة الاسلامية ذاتها ، حيث تمتد بها وبالشخص الذي اصطفى لها وجود الاسلام نفسه ، ومهماته الكبرى في البشرية ، وقيادة الحياة ، وابلاغ حجته بعد المولى الاول صلى الله عليه واله ، فكانت هذه الولاية – بحق – اكمالا للدين واتماما للنعمة ، وبها كان رضا الله

بالاسلام دينا للبشرية ، كما صرحت به آية الاكمال التي قرأناها.

ولا خفاء كذلك في موقع هذه الولاية من مسؤولية الانسان المؤمن ، وهو يستمسك بعروة الله الوثقى ويتبع دلائل دينه القويم بعد ان ربط الرسول صلى الله عليه واله وسلم بين هذه المسؤولية ومسؤلية المؤمن تجاه رسالته المقدسة ذاتها وولايته الكبرى التي جعلها الله له بنص القران . فالاتباع والتولي والطاعة والتسليم المطلق دون حرج هي الموارد الواضحة لتلك المسؤولية – كما هو معلوم. -

ولهذا فلم يكن القران ، ولا الرسول صلى الله عليه واله خارجين عن وحدة الحق ، ولا عن وضوح حلقاته في هذه المسؤولية ، كما لم يكونا خارجين عنها في اصل التزامهما للولاية ، وارتضائهما لعلي بن ابي طالب عليه السلام وليا فيها . فهي سلسلة واحدة متضامنة الحلقات ، لها مبدؤها الواحد ، وسبيلها الواحدة ، ونتائجها الواحدة المتكاملة ايضاً.

وضوح ولاية علي عليه السلام مع الزمن

اما نحن – فحيث نروم التعرف على وضوح الحجة الالهية في هذه الولاية من منطلق مسؤولياتنا الخاصة في هذا العصر الحاضر – فيجب ان نلتفت الى ما في هذه االحجة ودلائلها من هذا الوضوح خلال سلسلتها الطويلة التي مرّت بها في تأريخ الاسلام كله ، اذ الغموض في أي منها يستوجب – ولا شك – غموضها في أي مرحلة تستتبعها ، اذ النتائج تبع لاخس المقدمات – كما هو معلوم. -

وحين نلتفت الى ما قلناه سابقا ، من ان دور الاسلام في قيادة الانسان يمتد مع وجوده في هذه الحياة الدنيا ، ويستوعب جميع ازمنة بقائه فيها ، دون ان يحّده اتجاه حضاري او مستوى علمي ، وهذا يعني ضرورة ان تكون لدلائل الاسلام وبيناته نفس هذه السعة في ملء العقول ، والخلود في قيام الحجة ، والقدرة على هداية البصائر حتى اخر بشري هذه البسيطة.

وحين يكون لولاية علي عليه السلام من الشأن والاهمية ما قد علمنا ، فمن الطبيعي ان لا تقتصر في وضوح حجتها ، وجلاء بيناتها وحدودها عن هذه السعة ايضا ، والا قصر الاسلام ذاته عن ان تقوم له حجة امام العقول مع الزمن ، وهذا مستحيل ، فقد تعالى رب الاسلام ومنزله عن أي قصور في القدرة، او تفاوت في الحكمة.

وبالفعل فقد اضطردت الولاية وبيناتها مع الضرورة، ولم يقتصر عنا في عصر من عصور الاسلام حتى اليوم ، فكما كانت هذه البينات واضحة المفهوم والحدود والحجة حين اعلنها القران والرسول

صلى الله عليه واله في عصر الرسالة فكذلك هي اليوم تتخذ نفس الوضوح والثبوت امام كل بصيرة تتطلع الى الحق ، كما هو شأنها ايضا في مختلف مراحل التأريخ الاسلامي وعصوره السابقة كافة. وهي قضية لا يناقش فيها احد قرأ تاريخ الاسلام ولاحظ شيئاً من أحداثه ..

فتواتر بينات هذه الولاية ، وتصريح القران بها في العديد من اياته ، وكلمات الرسول صلى الله عليه واله في بيان حدودها ، ومواقفه المشهودة في اعلانها – بما فيها موقفه في يوم الغدير خاصة – كلها مما لم يرتب فيها احد من الناس في كل عصر ، وعلى أي مستوى في حياة الامة المسلمة على امتدادها ودخول هذه الولاية كمفهوم اسلامي في مختلف قضايا الفكر الشائعة في الحياة الاسلامية ، والاتجاهات السياسية والعلمية التي هيمنت على تاريخ الامة المسلمة في مختلف العصور ، وطرح مضمونها كمحور للنقاش والاخذ والرد .. كل هذا مما لا يجعل مجالاً للريب من ذي مسكة في انها اطروحة اسلامية ، وردت بها الحجة الالهية الخاصة ، واقيمت عليها مختلف البينات مع غض النظر الان عن اجتهادات العقول ونتائج الأخذ والرد في تعيين مدلولها ونتائجها.

والقضية – بهذه الحدود – من المسلمات الاسلامية العامة لدى المسلمين كافة ، على مختلف مذاهبهم ، حتى لدى اولئك الذين انطلقوا في التعامل مع الولاية ، و مع مشهد الغدير من منطلق سلبي ، او غير منصف يعتمد التعصب ورواسب الاحن والضغائن والأهواء اساساً في هذا التعامل.

ولاعطاء صورة واضحة قريبة لهذه القضية يكفينا ان نستعرض جهداً واحداً- من بين عشرات الجهود التي عنيت بالغدير خاصة – استطاع ان يقدم بلغة الارقام ما يعنيه ثبوت موقف الغدير خاصة – من بين مواقف الرسول صلى الله عليه واله وسلم في ولاية علي عليه السلام – ووضوح حجته امام المدارك البشرية في جميع عصور الاسلام ، ويؤكد تواتره والتسالم عليه ، وجلاء مفهومه للعقول في مصادر الاسلام ، ومختلف اطوار تأريخه.

..انه جهد المرحوم الشيخ عبد المحسن الاميني قدّس سرّه في موسوعته المعروفة) : الغدير في الكتاب والسنة والادب). فهو جهد – والحق يقال – سابق على ما سبقه من الجهود ، فالاصول العلمية التي اعتمدها ، والمثابرة التي وفق اليها ، وسعة الاطلاع التي كان عليها لم تتأت لاحد من قبله من باحثي الغدير – على كثرتهم. -

كما ان الملفت في هذا الجهد – بالرغم من سعته ودقته في الملاحظة والاستنتاج – هو استبعاده للمصادر التي تعود الى مذهب التشيع ، واعتماده على مصادر غيره من المذاهب الاسلامية خاصة.

فجزاه الله تعالى كما جزى من قبله من مخلصي رجال الله عن الاسلام وكلمته وولايته خير جزاء المحسنين ، انه ارحم الراحمين.

سير عام لمعالم وضوح الولاية مع التأريخ

ونبدأ مع هذا الجهد من اثبات وضوح هذه الولاية في عصر الرسالة خاصة..

اذ احصى (قده) من اسماء صحابة رسول الله صلى الله عليه واله الذين رأي هو اسماءهم كرواة الحديث الغدير في المصادر الموجودة لديه – مائة وعشرون صحابياً حضروا مشهد الغدير وسمعوا من رسول الله صلى الله عليه واله اعلانه لهذه الولاية وتعيين علي عليه السلام في منصبها.

ولم يكن هؤلاء الصحابة يمثلون اتجاها معيناً في مواقعهم تجاه هذه الولاية ، او كانوا ممن يذعن لعلي عليه السلام بها – بالمعنى الذي يراه شيعته له – بل شملت القائمة اسماء من مختلف المشارب والاتجاهات ، بل وردت فيها اسماء حتى اولئك الذين تقدموا علياً بالخلافة ، واولئك الذين حملوا عليه راية الصراع والشقاق.

ويمكنني أن اذكر هنا من هولاء اسم الخليفة الأول أبي بكر بن قحافة : اذ (روى عنه حديث الغدير ابن عقدة باسناده في (حديث الولاية) ، وابو بكر الجعابي في (النخب (، ومنصور الرازي في كتابه (حديث الغدير) ، وعده شمس الدين الجزري الشافعي في) أسنى المطالب) ممن روى حديث الغدير من الصحابة) (٢٣.(

ومنهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

وقد تقدمت احدى رواياته لهذا الحديث في الرواية الخامسة من الروايات التي اوردناها في فصل (مشهد الغدير في السنة) من التمهيد حيث قال :

)نصب الرسول صلى الله عليه واله علياً علماً فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه.(..

كما توجد له عدة روايات اخرى بهذا المضمون ايضاً (٢٤.(

ومنهم الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

)اخرج عنه الحافظ بن عقدة في (حديث الولاية) والمنصور الرازي في كتاب (الغدير (وهو احد العشرة المبشرين الذين عدهم ابن المغازلي من المائة الرواة لحديث الغدير بطرقه) (٢٥(

ومنهم الزبير بن العوام.

)روى الحديث عنه ابن عقدة والجعابي في نخبة ، والمنصور الرازي في كتاب (الغدير (وهو احد العشرة المبشرين الذين عدّهم الحافظ ابن المغازلي من رواة الغدير ، وعده الجزري الشافعي من رواة حديث الغدير) (٢٦(

ومنهم طلحة بن عبيد الله التميمي ، اذ روى ان النبي صلى الله عليه واله وسلم قال) : من كنت مولاه فعلي مولاه) (٢٧.(

هذا اضافة الى ما اخرجه حافظ الحديث من شهادته لعَلي عليه السلام بهذه الولاية واعلانها يوم الغدير حينما ناشده علي عليه السلام يوم الجمل ، كما أخرجه الحاكم في المستدرك بسنده عن رفاعة بن اياس الضبي عن ابيه عن جده قال :

)كنا مع علي يوم الجمل ، فبعث الى طلحة بن عبيد الله ان القني . فاتاه طلحة فقال : نشدتك الله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه واله يقول : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ؟.

قال : نعم.

قال : فلم تقاتلني ؟.

قال : لم اذكر . فانصرف طلحة) (٢٨(

وفي رواية المسعودي انه قال : (أستغفر الله ثم رجع.(

وقد روى هذه الماشدة ايضاً جمع من حفظة الحديث (٢٩.(

ومن رواة حديث الغدير من الصحابة سعد بن أبي وقاص ، اذ روى الحاكم في المستدرك : أن رجلا قال له : ان عليا يقع فيك انك تخلفت عنه.

فقال سعد: والله انه لرأي رايته واخطاء رأي .. ان علياً اعطي ثلاثة لأن أكون اعطيت احداهن أحب الي من الدنيا وما فيها:

قال له رسول الله صلى الله عليه واله يوم غدير خم – بعد حمد الله والثناء عليه : - هل تعلمون اني اولى بالمؤمنين ؟.

قلنا ،بلى..

قال : اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من مولاه وعاد من عاداه .. الى اخره (30) (

وكان سعد بن ابي وقاص يكرر هذه المقولة في مناسبات شتى ، ويكرر فيها روايته لحديث الولاية مع

احاديث اخرى في فضل علي في كل مناسبة ، وقد جمع صاحب الغدير من المصادر التي روت عن سعد حديث الغدير ما يربو على ثلاثين مصدرا (٣١.(

وفي شهادة اصحاب الشورى بصحة حديث الغدير حينما ناشدهم علي عليه السلام به ما يثبت انهم جميعا قد رووه ، اذ لم ينكر عليه احد منهم مناشدته ، او يبدي جهله به.

واصحاب الشورى هم الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة في احدهم حينما اشرف على الموت، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمان بن عوف ، والزبير بن العوام ، اضافة الى علي بن ابي طالب عليه السلام ، اما عبد الله بن عمر فكان فيمن يشاور ولا يولي.

وقد روي هذه المناشدة والشهادة ، بصحة الحديث جمع من الحافظ منهم الخوارزمي في مناقبه بسنده عن ابي الطفيل عمار بن واثلة قال:

)كنت على الباب يوم الشورى مع علي في البيت وسمعته يقول لهم : لأحتجن عليكم بما لا يستطيع عربيكم ولا عجميكم تغيير ذلك .. الى أن قال:

فانشدكم بالله : هل فيكم احد قال له رسول الله صلى الله عليه واله : ((من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليبلغ الشاهد الغائب)) غيري.

قالوا : اللهم لا) (٣٢.(

ومن الصحابة الذين رووا حديث الغدير عمرو بن العاص . روى عنه ابن قتيبة : ان رجلاً من همدان يقال له برد ، قدم على معاوية فسمع عمرواً يقع في علي عليه السلام فقال له :يا عمرو ان اشياخنا سمعوا رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول : ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) فحق ذلك أم باطل ؟

فقال عمرو: حق ، وأنا ازيدك : انّه ليس أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه واله وسلم له مناقب مثل مناقب علي) (٣٣.(

كما ذكر له الخطيب الخوارزمي كتاباً له أرسله الى معاوية يقول فيه :

)وقال فيه يوم غدير خم : الاّ من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من ولاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله(

وسيأتي – أن شاء الله – ذكر قصيدته الجلجية المعروفة، اذ هو يذكر فيها هذا الحديث ايضاً.

الى غير هؤلاء من الصحابة الذين رووا حديث الغدير مثل ابي سعد الخدري ، واسامة بن زيد ، وابي هريهرة ، وعبد الله بن عمر ، كما روته عائشة ام المؤمنين ، وغيرها من ازواج النبي صلى الله عليه وآله...

اما من التابعين الذين رووا حديث الغدير ، فقد احصى الشيخ الاميني قدّس سرّه منهم أسماء أربعة وثمانين تابعياً منهم الاصبغ بن نباتة ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم.

اذا خرج عنه الحافظ ابو نعيم في كتاب (حلية الأولياء) بسنده عن يزيد بن عمر بن مورق قال: كنت بالشام ، وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس، فتقدمت اليه فقال لي : ممن أنت ؟

قلت : من قريش . قال : من أي قريش

قلت : من بني هاشم . قال : فسكت.

فقال : من أي بني هاشم ؟

قلت : مولى علي.

قال : من علي ؟

قال فوضع يده على صدره فقال:

وانا – والله مولى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)... ثم قال : حدثني عدة أنّهم سمعوا النبي صلى الله عليه واله يقول : ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) (٣٤.(

الى غير هؤلاء من أعلام التابعين (٣٥(

كما أحصى كتاب الغدير من اسماء العلماء وحفاظ الحديث الذين رووا حديث الغدير في مختلف القرون – من غير رواة مذهب التشيع – ثلاثمائة وخمسين اسماً منذ القرن الثاني للهجرة وحتى القرن الرابع عشر لها (٣٦..(

اما الذين الفوا في رواية الغدير خاصة ، فقد ذكر منهم اسماء ستة وعشرين من رجال مختلف المذاهب الاسلامية.

منهم ابو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التأريخ المشهور ، حيث نقل عنه ابن كثير في كتاب (البداية والنهاية) عند ترجمته له قائلاً:

)وقد رأيت له كتاباً جمع فيه احاديث غدير خم في مجلدين ضخمين) (٣٧.(

ومنهم ابو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الحافظ المعروف بابن عقدة ، له كتاب في الولاية في طرق حديث الغدير رواه بمائة وخمسة طرق . اكثر عنه النقل ابن الاثير في) اسد الغابة) وابن حجر في (الاصابة.(

وقال في فتح الباري : اما حديث : ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) فقد اخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استودعها ابن عقدة في كتاب مفرد ، وكثير من اسانيدها صحيح وحسان.

ومنهم الحافظ ابو سعيد السجستاني ، له كتاب (الدراية في حديث الولاية) في سبعة عشر جزءاً جمع فيه طرق حديث الغدير ورواه عن مائة وعشرين صحابياً.

الى غير هؤلاء (٣٨(

كما احصى قدّس سرّه ممن صرح بصحة حديث الغدير أو تواتره ، من علماء الاسلام من غير الشيعة الامامية انثنين وأربعين ممن يشهد لهم ذوو الخبرة بالتثبت والقدرة على تمحيص الاحاديث ، وتمييزها ومن هؤلاء العلماء:

الترمذي صاحب السنن المعروف ، قال في صحيحه بعد نقله لحديث الغدير : (هذا حديث حسن صحيح) (٣٩.(

والطحاوي صاحب كتاب (مشكل الآثار) قال – بعد نقله لهذا الحديث – (هذا الحديث صحيح الاسناد ولا طعن فيه) (٤٠.(

والحاكم النيسابوري في كتابه (المستدرك على الصحيحين) حيث روى الحديث بعدة طرق وصححها جميعاً ، كما لا حظناه في حديثين سابقين.

وابن عبد البر في (الاستيعاب) قال بعد ذكره لحديث المؤاخاة وحديثي الراية والغدير) : -هذه كلها آثار ثابتة. (

والغزالي حجة الاسلام ابو حامد قال في كتابه (سر العالمين) ،(أسفرت الحجة وجهها ، وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته صلى الله عليه واله في يوم غدير خم باتفاق الجميع ، وهو يقول: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) . فقال عمر : بخ بخ ... الى آخره.(

وابن حجر العسقلاني قال في كتابه (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) : وأوعب من جمع مناقب (يعني عليا) النسائي ... الى ان يقول : (وكثير من اساندها صحاح وحسان .(

وابن حجر الهيثمي في كتاب (الصواعق المحرقة) قال عن حديث الغدير : (انه حديث صحيح لا

مرية فيه.(

وجلال الدين السيوطي نقل عنه زين الدين المناوي والشافعي في (فيض القدير) انّه قال في حديث الغدير : (حديث متواترة) ، ونقل هذا القول عنه آخرون.

ومن هؤولاء ايضا : ضياء الدين المقبلي ، حيث عد حديث الغدير في كتابه : (الابحاث المسددة في الفنون المتعددة) من الاحاديث المتواترة المفيدة للعلم . بل ونقل عنه قوله ايضا : (فان لم يكن هذا معلوما فما في الدين معلوم. (

ومنهم اخرون ذكرهم قدّس سرّه واسند قول كل واحد منهم الى مصادره (٤١.(

نعم هذا بعض ما احصاه الشيخ الاميني قدّس سرّه في كتاب الغدير ، وهناك مجموعات اخرى تتبعت هذا الحديث ، ولا ننسى بهذا الصدد جهدهم المرحوم السيد شهاب الدين المرعشي قدّس سرّه في تكملته لكتاب (احقاق الحق) للسيد التستري رحمه الله ، فقد تتبع من احاديث الولاية والغدير ما لم يبلغه الشيخ الاميني قدّس سرّه ايضا ، ولكن بمنهج آخر .(42)

كما لا ننسى أيضاً ما نقله السيد الفيروزآبادي في كتابه : (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) (٤٣). ففيه مجموعة جيدة من هذه الاحاديث.

وهكذا يتضح ما يعنيه حديث الغدير من وضوح في كل العصور الاسلامية حيث يبدو ما في قول القبلي من صدق :

)فان لم يكن هذا معلوماً فما في الدين معلوم.(

الولاية في نصوص الاسلام

هذا وتكملة للحديث السابق ينبغي ان نتذكر ان رسول الله صلى الله عليه واله وسلم لم يكن هو الوحيد من مصادر الاسلام التي صرحت بولاية علي بن ابي طالب عليه السلام ، فالقران الكريم كان قد صرح بهذه الولاية ايضا اذ قال تعالى :

}انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون {)٤٤)

فقد تواتر ان هذه الاية الكريمة قد نزلت في علي عليه السلام ، حينما تصدق بخاتمه وهو راكع في الصلاة.

كما اخرجه الهيثمي في (مجمع الزائد) عن عمار بن ياسر قال :

)وقف سائل على علي بن ابي طالب وهو راكع في تطوع ، فنزع خاتمه فاعطاه السائل ، فاتى رسول الله صلى الله عليه واله فاعلمه لذلك ، فنزلت على رسول الله صلى الله عليه واله هذه الاية: { انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.{

فقراها رسول الله صلى الله عليه واله ثم قال : (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) (٤٥(

ومما صرح به القران في ولاية علي عليه السلام ايضا قوله تعالى:

)هنالك الولاية لله الحق) (٤٦(

اذ روى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) بسنده الى ابي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال:

)تلك هي ولاية امير المؤمنين التي لم يبعث نبي الا بها) (٤٧.(

بل وقبل هذا فان ولاية علي هي بعض ما كتبه الله سبحانه على ابواب الجنة وأوراق اشجارها كما يرويه الحافظ جمال الدين محمد بن احمد الحنفي الموصلي في كتابه (در بحر مناقب) بسنده عن ابن مسعود قال:

)قال النبي صلى الله عليه واله : لما اسري بي الى السماء قال لي جبرائيل : قد امرت بعرض الجنة والنار .. الى ان قال : (والجنة لها ثمانية ابواب ، وعلى كل باب منها اربع كلمات كل كلمة منها خير من الدنيا وما فيها لمن يعلمها ، ويعمل بها . قال لي جبرئيل : فعلى الباب الاول مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله .. الخ) (٤٨.(

وهو حديث طويل يذكر ان الابواب الاخرى كتبت عليها هذه العبارة ايضا.

وفي حديث اخر روى ان هذه العبارة مكتوبة على اوراق اشجار الجنة كذلك (٤٩.(

كما أن موقف الغدير لم يكن هو الموقف الوحيد الذي صرح فيه الرسول صلى الله عليه واله بولاية علي عليه السلام فهنالك موقف اخرى ذكر فيها هذه الولاية واسندها – بلفظها الصريح – اليه ، مما يعني انه صلى الله عليه واله كان يستغل الفرص المناسبة للتأكيد على هذا المنصب العظيم ، وتعيين علي عليه السلام فيه ، ويقيم الحجج بها على الناس ، لا في تلك الحقبة القصيرة من حياته بل كل الحقب وعلى مدى التاريخ.

ومن هذه المواقف ما ورد في قضية بريدة المشهورة في كتاب الحديث ، اذ نقل الحافظ عنه –كما في

لفظ الحاكم في (المستدرك) ان قال :

)غزوت مع علي الى اليمن .. الى ان قال :

فقدمت على رسول الله صلى الله عليه واله فذكرت علياً فتنقصته ، فرايت وجه النبي صلى الله عليه واله يتغير ، فقال : يا بريدة الست اولى بالمؤمنين من انفسهم ؟

فقلت : بلى يا رسول الله.

فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه) (٥٠.(

ومنها كذلك قضية اسامة مع علي عليه السلام وهي مشابهة للقضية السابقة.

اضافة الى موارد اخرى كثيرة يطول الحديث باقتباسها ، وهي موجودة في اكثر مصادر سنة الرسول صلى الله عليه واله ، سواء منها ما ورد بلفظ المولى ، او الولى ، او مشتقات اخرى من هذه المادة . حيث بقي صلى الله عليه واله يؤكد هذه المقولة في علي عليه السلام حتى قرب وفاته صلى الله عليه واله ، كما اخرجه محمد بن احمد الحنفي الموصلي بسنده عن حارثة بن زيد قال:

)شهدت مع عمر بن الخطاب حجته في خلافته ، فسمعته يقول : ((اللهم قد عرفت بحبيبي(كذا) لنبيك وكنت مطلعاً من سرك)) (كذا) . فلما رآني أمسك وحفظت الكلام ، فلما انقضى الحج وانصرفت الى المدينة تعمدت الخلوة به فرأيته يوماً على راحلته وحده ، فقلت له:

يا امير المؤمنين ، بالذي هو أقرب اليك من حبل الوريد الا أخبرتني عما أريد ان أسألك عنه.

قال : سل عما شئت.

قلت : سمعتك يوم كذا وكذا تقول : كذا وكذا . قال فكأني القمته حجراً.

فقلت له : لا تغضب ، فوالذي انقذني من الجاهلية وادخلني في الاسلام ما اردت بسؤالي الا وجه الله عز وجل . قال فعند ذلك ضحك وقال:

يا حارثة : دخلت على رسول الله صلى الله عليه واله وقد اشتد وجعه ، واحببت الخلوة به ، وكان عنده علي ابن ابي طالب والفضل بن عباس ، فجلست حتى نهض ابن عباس وبقيت انا وعلي . فتبين لرسول الله صلى الله عليه واله ما اردت.

فالتفت اليّ وقال : جئت لتسألني الى من يصير الامر من بعدي ؟.

قلت : صدقت يا رسول الله.

فقال : يا عمر ، هذا وصيي وخليفتي من بعدي.

فقلت : صدقت يا رسول الله.

فقال : هذا خازن سري ، فمن اطاعه فقد اطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن تقدم عليه فقد كذب بنبوتي . ثم ادناه فقبل بين عينيه ، وقال : وليك الله وناصرك، والى الله من والاك ، فانت وصيي وخليفتي من بعدي في امتي.

وعلا بكاؤه وانهملت عيناه بالدموع حتى سالت على خده ، وخده على خد علي . فو الذي منّ عليّ بالاسلام ، لقد تمنيت في تلك الساعة ان أكون مكانه على الارض.

ثم التفت صلى الله عليه واله وقال لي : اذا نكث الناكثون وقسط القاسطون ومرق المارقون فاقر هذا مقامي حتى يفتح الله عليه وهو خير الفاتحين.

قال حارثه : فتعاظمني ذلك ، فقلت : ويحك يا عمر ! كيف تقدمتموه وقد سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه واله ؟.

فقال : يا حارثه بأمر كان.

فقلت : من الله ام من رسوله ام من علي ؟.

فقال : لا بل الملك عقيم والحق لابن ابي طالب) (٥١.(

مرادفات الولاية في النصوص

أما ما ورد في كتاب الله الكريم وعن الرسول صلى الله عليه واله مما يستقيم مع هذه الولاية ، وان لم تذكر بواحد من مشتقاتها فهو اكثر من ان يحصى ، بل واكثر من ان يشار اليه اشارة وافية في هذا الموقف السريع ، ويكفينا ان نَعلم:

..ان عليا عليه السلام كان مع محمد صلى الله عليه واله نوراً واحداً بين يدي الله)عز وجل) قبل ان يخلق ادم عليه السلام باربعة عشر الف عام ، فلما خلق الله ادم عليه السلام قسم ذلك النور جزءين فكان الرسول صلى اله عليه واله جزء وكان علي عليه السلام جزءاً (٥٢.(

وان الرسول صلى الله عليه واله وعلياً عليه السلام كانا من طينة واحدة .. (٥٣(

وانهم من شجرة واحدة والناس من شجر شتى .. (٥٤(

وان الله (سبحانه) قد اختار علياً عليه السلام كما اختار محمداً صلى الله عليه واله (55)، وان الله (تعالى)قد ايد الدين به (٥٦.(

وانه خليفة رسول الله صلى الله عليه واله في امته (٥٧). وانه وصّي رسول الله صلى الله عليه واله وموضع سره ، وخير من ترك بعده ، ينجز عدته ، ويقضي دينه (٥٨ ..(وهكذا.

ولا نقيض في هذه الاشارات اكثر ، فكما قلت : انها اوسع من ان تستوفي بمثل هذه السرعة .. على ان مناقب علي عليه السلام ونصوص الرسول في حقه، هي اوضح من ان تخفى على متتبع ، او تخفى على من يروم الاطلاع ويكفينا ان نتذكر ما قاله عمر بن العاص لبرد في حديثه السابق حينما استنكر عليه هذا ايقاعه بعلي عليه السلام:

)وانا ازيدك : انه ليس احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه واله له مناقب علي(

وفي هذا المضمون يقول الامام احمد بن حنبل ايضا:

)ما روي لاحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه واله من الفضائل الصحاح وما روي لعلي بن ابي طالب) (٥٩.(

وبعد فان هذا الوضوح الذي كان لولاية علي عليه السلام ولحجة الله فيها على الامة ، هو الاساس الذي اعتمده الاسلام في القاء مسؤوليتها على اعناق البشرية ، وفي تحديد هذه المسؤولية بدرجة ما لهذه الولاية من اهمية في كيان الاسلام ، ومالها من دور اساسي فيه ، حيث لا يتم للاسلام وجود بدونها – كما علمنا

فقد روى ابو سعيد الخدري قال : ان النبي صلى الله عليه واله قول : (وقفوهم انهم مسؤلون عن ولاية علي) (٦٠(

وعن ابي بكر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه واله يقول : (انَّ على الصراط لعقبة لا يجوزها احد الا بجواز من علي ابن ابي طالب) (٦١.(

فكما لم يتم للاسلام وجوده – ككيان قائم – بدون تبليغ هذه الولاية ، واقامة الحجة بها ، كذلك لا يتم استمساك المرء بهذا الدين ، دون جعلها في موقعها المناسب من هذا الاستمساك ، والوفاء بمسؤوليتها في الحدود التي جعلها الله لها ايضا.

اما حين يركب الانسان رأسه ، ويتمادى في الغي ، ويخالف ما اقيم عليه من الحجج والبيانات ، فمن الطبيعي ان يترقب ما يستحقه من الجزاء المناسب للتقصير بحق ذلك الدور ، وتلك الاهمية ايضاً..

وهكذا ، فمن أبغض عليا فقد ابغض الله عز وجل(٦٢.. (

وان بغض علي هو من النفاق (٦٣) ، وان من فارقه فقد فارق الله عز وجل .. (٦٤(

وان الله يعادي من عادى علياً (٦٥...)

وان من ظلم علياً مقعد رسول الله صلى الله عليه واله من بعده فقد كذب بنبوته صلى الله عليه واله وبنبوة الانبياء قبله (٦٦..)

والروايات الواردة في هذه المضامين اكثر من أن تحصى ايضاً.

ومن الحري ان نشير الى ان جهوداً مشكورة كثيرة بذلت في جمع الروايات الواردة في حق علي عليه السلام ومناقبه في مجموعات تسهيل متابعتها والاطلاع عليها لمن يرغب الاطلاع .. ويمكنني ان اذكر هنا:

كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها من الكتب المعتمدة عند اهل السنة والجماعة) للسيد مرتضى الفيروزآبادي.

وكتاب (الغدير في الكتاب والسنة والادب) للشيخ عبد الحسين الاميني.

وكتاب (احقاق الحق وازهاق الباطل) للمرحوم السيد التستري قدّس سرّه . مع ملحقاته الواقعية للمرحوم السيد شهاب الدين المرعشي النجفي قدّس سرّه.

وكتاب (ينابيع المودة) للقندوزي و (ذخائر العقبي في فضائل ذوي القربى) للمحب الطبري ، و (شواهد التنزيل لقواعد التأويل) للحاكم الحسكاني الحنفي وغيرها.

تواتر المضمون المشترك للنصوص

وحينئذ فمع هذا الاهتمام الاسلامي بعلي عليه السلام وولايته ، وهذا التواتر الذي فرضهما على مختلف المصادر ومختلف الاتجاهات والدراسات الاسلامية ، فان المناقشة إن امكنت في صحة بعض النصوص الواردة في هذا المجال ، او في دلالته على المطلوب ، الا أن اجتماعها ـ بهذه الكثافة ، وبهذا التركيز عليها من مصادر التشريع الاسلامي ومن القرآن كتاب الله خاصة ، ومن ولي الحق الأول محمد صلى الله عليه وآله ، الذي لا ينطق عن الهوى ، وبهذه العناية التي واكبت هذه النصوص من علماء المسلمين ورواتهم كافة على اختلاف مذاهبهم ، ولا سيما في تلك الحقب المظلمة من تاريخ الاسلام ، حيث كان لها مواقفها السلبية المشهودة من علي عليه السلام وولايته.

أقول : فأن المناقشة لو أمكنت في البعض كحالات جزئية خاصة في هذا الحديث او ذلك ، الا أنها غير محتملة أبداً في المضمون العام لهذه النصوص بأجمعها.

لأن توفرها بهذا الشكل الواسع ـ ومع تلك الظروف القاسية معها ـ مما ينفي أي احتمال بوهنها أو وهن مضمونها المشترك لها ، أي التزام الاسلام للولاية ، ولعلي عليه السلام وارتضائه لها بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

على اننا يجب ان نلتفت الى ان تلك الروايات ـ وكما يقول الشيخ محمد حسن المظفر في كتاب دلائل الصدق ـ : (مما يقطع عادة بصحتها ، لأن كل رواية لهم في مناقب اهل البيت عليهم السلام ومثالب أعدائهم محكومة بوثاقة رجال سندها وصدقهم في تلك الرواية وان لم يكونوا ثقاة في انفسهم ، ضرورة أن ما تعرف به وثاقة الرجل وصدقه في الرواية التي يرويها عدم اغتراره بالجاه والمال وعدك مبالاته في سبيلها بالخطر الواقع عليه ، فان غير الصادق لا يتحمل المضار بأنواعها لأجل كذبة يكذبها لا يعود عليه منها نفع ، ولا يجد في سبيلها الاّ الضرر. (

)ومن المعلوم ان من يروي في تلك العصور السالفة فضيلة لأمير المؤمنين علي عليه السلام أو منقصة لأعدائه فقد غرر بنفسه ، وجلب البلاء كما هو واضح لكل ذي أذن وعين . (

)ذكر الذهبي في " تذكرة الحفاظ " بترجمة الحافظ بن السقا عبدالله بن محمد الواسطي ، قال : انه أملى حديث الطير في واسط ، فوثبوا به وأقاموه وغسلوا موضعه. (

)وذكر ابن خلكان في " وفيات الاعيان " بترجمة النسائي أحمد بن شعيب صاحب السنن)أحد الصحاح الستة) : أنه خرج الى دمشق فسئل عن معاوية ، وما روي في فضائله فقال) : أما يرضى معاوية ان يخرج راساً برأس حتى يفضل. (

وفي رواية أخرى : (لا أعرف له فضيلة الا " لا أشبع الله بطنه. ("

فما زالوا يدفعون في حضنه ، و (في رواية يدفعون في خصييه) ، وداسوه حتى حمل الى الرملة ومات بها .. الخ. (

وهذه الناحية ـ التي اشار اليها الشيخ المظفر في الفقرة السابقة ـ قضية ارتكازية معروفه بين الناس ، ولها دلالاتها التي لا ينكرها أحد منهم ـ على تصحيح ماينقل من الأخبار عامة ، وفي مختلف نواحي الحياة ، لأنها نوع من شواهد الحال التي ترفع احتمال الصدق في خَبر المخبر ، مقابل احتمال الكذب فيه ،

وحتى مع غض النظر عن هذه الناحية التي لها اثرها في رفع قيمة احتمال الصدق في كل رواية وردت في فضل اهل البيت عليهم السلام وبيان فضلهم ، فان ذلك المضمون المشترك للروايات

الواردة في علي عليه السلام وولايته ، تبقى في مأمن من أي ريب وان امكنت المناقشة في بعض الروايات الواردة فيه كما قلت.

فان ورود قضية من القضايا بطرق مختلفة ، وبكيفيات مختلفة ، ومن مصادر مختلفة مما يوهي احتمال كذبها ، حيث تتناقص قيمة هذا الاحتمال مع كل طريق ترد فيه ، ومع كل كيفية ترد عليها ، ومع كل مصدر يذكرها ، حتى يتلاشى الاحتمال تماماً ، ولا تبقى له أي قيمة يمكن أن تسبب الشك أو الريب.

وهذا هو المعروف في كيفية دلالة القضية المتواترة على اليقين عند تحليلها ، بل وهذا هو السبب في حصول اليقين في جميع القضايا اليقينية غير البدهية ايضاً ، إذ اليقين فيها ينشأ نتيجة لتضاؤل احتمال الكذب فيها مع كل حالة يثبت فيها صدقها فهو ينشأ بشكل قهري لا يستطيع العقل تجاوزه بحال.

كما لا يمكن التفكيك بين هذا اليقين الحاصل من القضية المتواترة واليقين الحاصل من غيرها من القضايا اليقينية الاخرى المعروفة ، كالبدهية والحسية والحدسية ، وان استبعاد هذا اليقين الناشئ من التواتر عن الاعتبار ، مما يحيل على الانسان ان يمضي في المعرفة خطوة واحدة ، لتداخل عوامل اليقين حتى في أبسط قضاياه ، بل واستبعاد هذا اليقين مما يحيل على الحياة الانسانية أن تجري على طبيعتها في أي جانب من جوانبها ، فاعتماد الحياة والمعرفة والخبرة على القضايا المتواترة مما لا يحتاج الى بيان.

اما المجالات الدينية ، فان للقضايا المتواترة دورها الأكبر فيها ، اذ تواتر النقل عن المشرع هو القمة التي يأملها الدين في ثبوت ما يرد عن مصدر لدى أتباعه ، وقيام حجته أمام وعيهم ، واستبعاد اليقين الناشئ من التواتر عن الاعتبار في أي دين من الاديان معناه الحكم عليه بالموت والفناء من أساس.

والاسلام ـ بدوره ـ لا يخرج عن هذا الخط العام في المعرفة الانسانية أيضاً ، حيث شاءت حكمة الله تعالى ان يمضي مع الفطرة ، ومع مستلزماتها ، ومع حدودها في كل شيء، ولهذا فقد كان اعتماده الأساسي في اقامة كيانه في حياة الانسان ، ونشر هداه ، وتمام حجته على العباد ، وهوعلى التواتر بعد بداهة العقول والحدس ولهذا فقد كان يستخدم مختلف الوسائل لبلوغ بيناته الأولى الى هذه الدرجة العليا من أسباب اليقين..

اما لو شاء أحد أن يستبعد ـ ولو ـ بعض قضاياه المتواترة او اليقين الناشئ منها عن الاعتبار أو

الحجية ، فان هذا يعني نسف كيان الاسلام من أساس ، والحكم على حقائقه كافة بالموت ، اذ لا يمكن التفكيك بين يقين وأخر ، ولا بين قضية متواترة وأخرى .. وهي نتيجة لا يرتضيها مسلم لنفسه.

ولهذا فبعد ثبوت التواتر لكل من الولاية وارتضاء علي عليه السلام ولياً لها ، فلا بد من اعتماد هاتين الحقيقتين كأي حقيقة يقنية اسلامية أخرى ثبتت بهذا السبب ، وبنفس الدرجة من الاعتماد والوضوح دون أي تفرقة ، والا لم يمكن اثبات أي حقيقة اسلامية أخرى مهما كانت أهميتها في دين الله تعالى.

"فان لم يكن هذا معلوماً فما في الدين معلوم. "

وضوح ولاية علي عليه السلام لدى المسلمين عامة

وهكذا يبدوا أن التزام الاسلام لولاية علي عليه السلام التزام قطعي الثبوت ، واضح الحجة ، لا في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وحده ، ولا في هذه العصور الحاضرة فحسب ، وانما في مختلف الحقب التي يمر بها تأريخ الاسلام ، وبيناتها جليلة ، سهلة المثال لكل أحد يتطلع الى الحق ليستمسك به . سواء في اثباتها لنفس الولاية لعلي عليه السلام ، أم في بيان معناها وموقعها من دين الله عز وجل.

فما كانت هذه النصوص المتواترة الواردة في مختلف مصادر الروايات ـ وبهذه الألسن التي عرفناها ـ لتفتعل على الاسلام ومشرعه تعالى دون اعتماد منه ، أو كان ورودها لمجرد اضفاء صفات المدح والثناء على علي عليه السلام ، دون سند مناسب من الحق ودلائله.

نعم ماكان هذا الاهتمام الكبير في رعاية الله تعالى ومن دين الحق ، ومن حجته في القرآن ، ومنطق الرسول صلى الله عليه وآله ، كله مجاملة لعلي عليه السلام دون أي اعتبار من هذا الدين العظيم ، ففيوض الله لا مجاملة فيها ، وهي لا تكال جزافاً على أحد.

ولهذا فان أي تجاوز الحقيقة الاسلامية الكبرى حين يصدر من أي أحد من الناس ـ ولأي سبب من الأسباب ـ أكبر من ان يعتذر عنه ـ في منطق الحق ـ بعذر ، فضلاً عن أن يسمح هذا التجاوز بالتطاول على هذا الصرح الاسلامي المكين.

فهذا التطاول ـ أو حتى التشكيك ـ بعلي عليه السلام ، او بمنصبه مما يلقي بظلال قاتمة على المتطاول او المشكك نفسه ، دون أن ينال غرضاً من الاسلام أو من الولاية او من علي عليه السلام.

وهذه الحقيقة مما يعلمه حتى اولئك الذين اجتهدوا في ولاية علي عليه السلام ، وعارضوا تسليم لواء

القيادة الاسلامية اليه بعد الرسول صلى الله عليه وآله ، بل ومما يعلمه حتى اولئك الذين سلبوه حقه في تسنمه لمركز القيادة التي انيطت به مسؤولياتها بعد الرسول صلى الله عليه وآله وزعامته للأمة المسلمة بعد فقده صلى الله عليه وآله.

وكم أثبت التاريخ من كلمات أولئك المجتهدين في لحظة من لحظات الصفاء ، أو في ساعة من ساعات الضعف الانساني أمام هذه الحقيقة الكبرى أو لاسباب أخرى.

وقد قرأنا شطراً من هذه الكلمات ، كما في موقف سعد بن أبي وقاص حينما أخبره رجل بأن علياً يقع فيه لأنه تخلف عنه ، ذا لم يجد عذراً الا ان يقول:

)والله انه لرأي رأيته وأخطأ رأيي. (

وفي موقف طلحة بن عبيد الله حينما احتج عليه امير المؤمنين يوم الجمل بحديث الولاية ، اذ لم تسعفه حجته الا ان يقول (نسيت ولم اذكر. (

..بل وكما قرأناه في رواية المسعودي لهذه المناشدة ان طلحة قال:(استغفر الله) ثم رجع.

كما قرأناه في موقف عمر بن الخطاب في حديثه مع حارثة بن زيد حينما قال له : (كيف تقدّمتموه وقد سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وأله حيث لم يجد من العذر الا أن يقول : (يا حارثة بأمر كان. ((

وحينما يتمادى حارثة بالسؤال عن مصدر هذا الأمر (من الله أم من رسوله أم من علي عليه السلام) . لم يستطع الا ان يقول (لا ، بل الملك عقيم ، والحق لابن ابي طالب . (

وما كان أبو حفص لينطق بهذه الكلمة لو لم تكن الولاية بدرجة من الوضوح لا يمكن له الاعتذار معها بغير هذا الاعتراف الرهيب.

ولم يكن موقفه هذا هو الوحيد منه ، فقد روي له العديد من المواقف المشابهة .. منها ما رواه الراغب الاصفهاني في (المحاضرات) عن ابن عباس قال : كنت أسير مع عمر بن الخطاب في ليلة ، وعمر على بغل وانا على فرس ، فقرأ آية فيها ذكر علي بن ابي طالب فقال : اما والله يا بني عبد المطلب لقد كان علي فيكم اولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر.

فقلت في نفسي : لا اقالني الله ان اقتله . فقلت : انت تقول ذلك يا امير المؤمنين وانت وصاحبك عدوتما عليه وافرغتما الامر منا دون الناس ؟؟

فقال : اليكم يا بني عبد المطلب ، اما انكم أصحاب عمر بن الخطاب.

فتأخر وتقدم هنيئة . فقال : سر لا سرت . وقال أعد عليّ كلامك.

فقلت : انما ذكرت شيئا ورددت عليك جوابه ، ولو سكت سكتنا.

فقال : إنا ـ والله ـ مافعلنا الذي فعلنا عن عداوة ، ولكن استصغرناه ، وخشينا أن لا يجتمع عليه العرب وقريش لما قد واترها.

فاردت ان أقول : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يبعثه فينطح كبشها فلم يستصغره ، أفتستصغره انت وصاحبك ؟؟

فقال : لا جرم ، فكيف ترى ؟ والله ما نقطع أمراً دونه ، ولا نعمل شيئاً حتى نستأذنه(٦٧. (

ولا نطيل في نقل مثل هذه الكلمات ففي الذي ذكرناه كفاية . وبعد ، فهي كلمات موجودة في مختلف كتب السير والتأريخ.

اذن فوضوح الالتزام الاسلامي لولاية علي عليه السلام مما لا ريب فيه ، سواء في ثبوت الحجة الالهية فيها ام في دلالة هذه الحجة ، وبيان مفهومها الاسلامي المطلوب ، أم في أي شأن آخر من شؤونها . وبهذا الوضوح يستقيم ما رواه ابو سعيد الخدري عن الرسول صلى الله عليه وآله في ورود قوله تعالى : (وقفوهم انهم مسؤولون) عن ولاية علي عليه السلام.

فان السؤال الالهي والحساب لجميع الامة على موقفها من الولاية غير ممكنين مالم تكن الحجة بها واضحة لكل فرد من أفرادها ، كما ان العقوبة على مخالفة مقتضياتها غير واردة بدون هذا الوضوح الشامل ايضاً ، قال تعالى:

)وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) (٦٨.(

هوامش

- 1يوسف : ١٠٨.
- 2المائدة : ١٥ ــ ١٦.
- 3سبأ : ٢٨.

- 4الاعراف : ٥٧.
- 5الاسراء : ٨٨.
- 6هود : ١٣ – ١٤.
- 7البقرة.
8- فصلت٨ : ٤١ - ٤٢.
9النحل٩ : ١٠٢.
10الكهف١٠ : ١ - ٣.
- 11الاحزاب : ٤٥ – ٤٦.
- 12الفتح : ٢٨ – ٢٩.
- 13النجم : ٢- ٤.
14 - 44 – 47 .
- 15المائدة :٥٥.
- 16االحزاب :٦.
- 17الجمعة :٢.
- 18النساء: ٦٥.
- 19محمد: ٣٣.
- 20الانفال : ٢٤.
- 21ال عمران: ٣١.
- 22المائدة : ٥٦.
- 23الغدير : ج ١ ص ١٦.
- 24المصدر السابق ص ٥٤.
- 25ن . م : ص٥١.
- 26ن. م : ص ٢٨.
- 27ص ٤٤.
- 28المستدرك على الصحيحين ج ٣ ص ٣٧١ ن مكتبة النصر الحديث – الرياض – سنة ١٩٦٨.

- 29تراجع مصادر هذه المناقشة في الغدير ج ١ ص ١٧١ – ١٧٢.
- 30المستدرك على الصحيحين ج ٣ ص ١١٦.
- 31الغدير ج ١ ص ٣٧ – ٤٠.
- 32ن . م . ص ١٤٦ – ١٤٩.
- 33ن . م . ص ١٨٤.
- 34ن . م ١٨٥.
- 35ن . م ، ص ٥٩ – ٦٨.
- 36ن ز م ، ص ٦٩ – ١٣٩.
- 37البدايه والنهاية : ج ١١ ص ١٤٧.
- 38يراجع كتاب الغدير : ج ١ ص ١٤٠ – ١٤٥.
- 39صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٨
- 40مشكل الاثار : ج ٢ ص ٣٠٨.
- 41يراجع كتاب الغدير : ج ١ ص ٢١٦ – ٢٨٠.
- 42يراجع كتاب احقاق الحق وازهاق الباطل : (ج ٢ ص ٤٢٦ – ٤٦٥) و (ج ٣ ص ٣٢٢ – 327و (ج ٦ ص ٢٢٥ – ٣٧٨) ط طهران ن المكتبة الاسلامية سنة ١٣٨٢.
- 43يراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها .. ج ١.
- 44المائدة : ٥٥.
- 45مجمع الزوائد ج ٧ ص ١٧ ويراجع للمزيد من المصادر كتاب (فضائل الخمسه من الصحاح الستة ج ٢ ص ١٧ ، كما يراجع كتاب (شواهد التنزيل) للحسكاني ج ١ ص ١٦١ 184 – حيث روى نزول هذه الاية في علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم باكثر من اربعة وعشرين طريقا.
- 46الكهف : ٤٤.
- 47شواهد التنزيل ج ١ ص ٣٥٦.
- 48احقاق الحق ج ٥ ص ٢٨١ عن كتاب (در بحر مناقب) ص ٣١ مخطوط.
- 49نفس المصدر السابق.

- 50المستدرك على الصحيحين ج ٣ ص ١١٠ وللمزيد من المصادر يراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) ج ١ ص ٣٥٤ وما بعدها.

- 51احقاق الحق ج ٤ ص ٨١ عن كتاب (در بحر مناقب(

- 52فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص ١٦٨ عن (الرياض النضرة) ج ٢ ص ١٦٤ و) ميزان الاعتدال) ج ١ ص ٢٣٥.

- 53مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٨.

- 54المستدرك على الصحيحين ج ٢ ، ص ٢٤١ وغيره . يراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة.

- 55المستدرك ج ٣ ص ١٢٩ واسد الغابة ج ٤ ص ٤٢.

- 56الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ١٥٣ وذخائر العقبى ص ٦٩.

- 57مجمع الزائد ج ٩ ص ١١٣ وتهذيب التهذيب ج ٢ ص ٦.

- 58شواهد التنزيل للحسكاني ج ١ ص ١٩.

- 59شواهد التنزيل للحسكاني ج ١ ص ١٩.

- 60المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٧ والصواعق المحرقة ص ٨٩.

- 61فضائل الخمسة من الصحاح السته ج ٣ ص ١٠٤ عن تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٣٥٦ ومصادر اخرى.

- 62يراجع فضائل الخمسة ج ٢ ص ٢٠٠ – ٢٠٧ لمعرفة مصادره.

- 63ن . م ص ٢٠٧ – ٢١٢.

- 64ن . م ص ٢٢٨ – ٢٢٩.

- 65ن . م ص ٢٢٩.

- 66شواهد التنزيل ج ١ ص ٢٠٧.

- 67الغدير : ج١ ص٣٤٦ عن المحاضرات للراغب الأصفهاني ج٢ ص ٢١٣.

- 68التوبة: ١١٦.

الباب الثاني

الولاية والواقعية الإسلامية

تمهيد

بعد استكمال الحديث في وضوح ولاية علي عليه السلام وما يعنيه من دلالات نقف في هذا الباب عند الشرطين الآخرين من شرائط الحق في دين الله تعالى حيث علمنا ضرورة تجليها أي حقيقة في الإسلام وهذان الشرطان هما:

أولا: ضرورة اضطراد التطابق الإسلامي مع الواقع في هذه الولاية،وانتظامه مع حكم الله فيها.

ثانيا: استقامته العامة معه كذلك منها دون خلل أو تفاوت.

فبهذين الشرطين يستكمل الإسلام التزامه لولاية علي عليه السلام،كواحدة من حقائقه الكبرى.

إلا إننا_ وقبل الدخول في الحديث حول هذين الشرطين ينبغي إن نلتفت إلى طبيعة هذه الولاية في بعض جوانبها المهمة،ونقف هنا عند جانبين منها، لهما أهميتهما الخاصة في الموضوع:

الجانب الأول:

للولاية بعدان:

معروف أن الولاية الإسلامية كيان مكون من بعدين مختلفين ، لكل منهما خصائصه ومميزاته ولكل منهما ضروراته ومستلزماته.

البعد الأول: الانتساب إلى الله عز وجل.

فالولاية – كما علمنا -هي إحدى الحقائق الإسلامية الكبرى، فهي ترد ضمن دعائم الإسلام التي يعتمد عليها وجوده في حياة الإنسان.. فهي - بهذه الملاحظة- احد مجالي اللطف الإلهي بالإنسان، ومظهر من مظاهر رحمته بالعباد، ورعايته لهم بكفاية حاجاتهم من مناهج الحق وسبل الرشد والهدى.

وحينئذ فلابد من الإيمان باستحالة القصور فيها عن أي متطلبات الحق، إذ هو القاعدة التي أقيم عليها

كيان الإسلام ذاته ، وامتناع تفاوتهما مع شيء من مقتضياته، لا في مفهومهما ولا في حدودهما ، ولا في شؤونهما وأحكامهما ، ولا في أدوارها الكبرى في دين الله ، أو في حياة الإنسان. لأن أي قصور أو تفاوت يتصور فيهما مما ينعكس على الكمال في ذات الله سبحانه الذي انزل هذا الدين وضمن رعايته، وهذا محال- كما نعلم -إذ تعالى الله عن اي نقص وتعالت حكمته عن أي تفاوت. وهي قضية تمضي – بجميع دقائقها أبعادها - مع سعة رسالة محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه واله، وشمولها للبشرية كافة في جميع أزمنتها وأمكنتها وحضاراتها ومستوياتها الفكرية والعملية. حيث أخذت هذه السعة في ولاية علي عليه السلام كذلك ، وفي كل شأن من شؤونها العامة والخاصة. كما علمنا.

البعد الثاني:المظهر الإنساني.

فمع ان الولاية إحدى الحقائق الإسلامية،إلا انها في واقعها الفعلي - كالرسالة نفسها- منصب إنساني، ولا بد أن تستند في وجودها ومهماتها إلى شخص من الناس، حيث يستحيل تحققها بدونه.. وهنا تكمن المفارقة..

فقصور الإنسان عن استشراف جميع معالم الحياة أوضح من أن يحتاج إلى بيان، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض جوانبه في بداية هذا المبحث، ومن أهم أسبابه التي ينبغي أن نقف عندها هنا:

-1 أن الإنسان إنما يتعامل مع الوقائع والأمور من خلال ما يملكه حولها من تصور، ومعروف أن تصور الإنسان كما يتأثر بواقع هذه الأمور يتأثر كذلك بالطاقات والإمكانات الذاتية التي يحملها الإنسان نفسه، وهي - كما نعلم - محدودة الآفاق والفاعلية اذ هي - وبالرغم مما تتفوق به على مثيلاتها في غير الإنسان من مخلوقات هذه الأرض - أقصر من أن تطال كل شيء، وأضيق من أن تستوعب كل شيء دون رفد من المد الرباني الخاص.

-2أن الإنسان وليد عصره ،وهو ابن بار للوسط الذي يعيش فيه، وهذا هو المشهود في عامة الناس ، مما يعني إن للعصر الذي يعيش فيه الإنسان والمستوى العام للمعرفة، واتجاهاتها الغالبة في ذلك الوسط ،أحكامها المؤثرة في تربية طاقات الفرد وتوجهاته ، كما كان لها آثارها في تكوين السمات الأخرى لشخصيته ومزاياها.

ومما يلاحظ- في تأثر الإنسان بما حوله من العوامل- انه كما يكون شعوريا في بعض الأحيان حيث

يجري في حدود الخبرة والوعي، يكون في أحيان اخرى لا شعورياً ، إذ يمضي في توجيه الشخصية ومكونتاها ، وموافقتها مما وراء ذلك.

وللدراسات النفسية الحديثة خطواتها الجيدة في إدراك ما للشعور من تأثير في شخصية الإنسان وهيمنته عليها، فهو في بعض الحالات أخطر عليها من الشعور نفسه،حين ينحرف عن قويم السبيل، لعدم دخوله في مجال رؤية الإنسان، وعدم إمكان المتابعة لسلبياته وتجنبها ، أو معالجة مكامنه في النفس إلا بعد عناء وجهد.

وهذا الاقتران بين كلا البعدين في مفهوم الولاية الإسلامية وفي تحققها الفعلي مثار للعديد من الأسئلة المهمة التي لا بد أن تتصور لها إجابة كافية تتناسب ووضوح الولاية في دين الله تعالى.

إذ كيف يمكن اقتران ذلك البعد المطلق للحق وشرائطه مع هذه الحدود الإنسانية القاصرة؟

وكيف يمكن لهذه الحدود أن تستوعب تلك الشرائط كافة ، بما لها من حدية يستحيل فيها التفاوت والانحراف؟.

وطبيعي ان لا تستبعد الإجابة حدود الإدراك الإنساني كواع لهذه الولاية، وركن أساس في مسئولية الإنسان في الأيمان بها ،و الاستجابة لمقتضياتها والانقياد إليها...

وان لا تستبعد كذلك المجتمع الإسلامي كوسط تجري فيه فاعلية الولاية وقيادتها للحياة.

كما لا تستبعد اختلاف السبل و الاتجاهات الإنسانية في الحياة، على امتداد التاريخ الإسلامي ، وتفاوت مابين الناس في الاستجابة لهذه الولاية، وإذعانهم لما تحمله من دلائل الحق ورشده.

وكل هذه الآفاق تستدعي أن تكون الإجابة ضمن حدود ما جبل عليه الإنسان في تصوره وفهمه للأمور لا بدرجات ارفع أو أخفى.

الجانب الثاني:

الطبيعة الحيوية الإنسانية لهذه الولاية:

وهذه الطبيعة هي احد الفوارق الكبيرة ليس بين خصوص الولاية وغيرها من حقائق الإسلام فحسب، وإنما بين جميع المناصب الإسلامية الكبرى وغيرها من الحقائق...

فهذه الحقائق -في الغالب - هي من نوع التصورات والأحكام والمناهج والتعاليم وأشباها، وهي جميعها مفاهيم وموضوعات أحكام يكفي في اعتبارها وقيام الحجة الإسلامية بها نفس تشريعاتها، أو

اعتبارها وتبليغها إلى الناس بما هو متعارف في مثل هذا التبليغ من الوسائل، مع غض النظر عن موقف الناس منها ،واستجابتهم أو عدم استجابتهم لها ، فبعد قيام الحجة الإلهية بها ، يترك شأن الاستجابة لها إلى نفس الإنسان ، فهو الذي يحدد موقفه إزاءها ايجاباً او سلباً، اذ لا اثر لموقفه على هدى الله تعالى وبيناته ، ولكنه هو الذي يحيي أن استجاب بعد قيام البينة عليه، وهو الذي يهلك إن زاغ عن طريق بعد البينة كذلك.

أما الولاية وغيرها من المناصب الإسلامية العامة ، فهي- وكما قلت- ذات صبغة حيوية إنسانية، تتجلى طبيعتها وحدودها وآثارها مع كل موقف يصدر من صاحبها المرتضى ، ومع كل عمل يأتيه، وكل كلمة ينطق بها - وفي المقابل كذلك- فان تولي المؤمن وإتباعه لحدود تلك الولاية إنما يتحقق مع كل استجابة منه لهداها ، ومع كل استرشاد يستلهمه من كلمة الحق التي تلقيها، ومع كل انقياد يحققه لأمر الله فيها.

إذن فكل من الولاية والتولي واقع إنساني ، ذو صبغة حيوية، يتجلى من خلال الممارسة العملية والسلوك في الحياة حيث يستحيل فيه الاقتطاع والتجزئة في أي موقف من المواقف، وفي أي حالة من الحالات...

وهذه الملاحظة تستوجب أن تحمل شرائط الحق في هذه المناصب نفس هذه الصبغة التي تمضي مع المصطفى في كل موقف،وكل كلمة وكل حالة يكون عليها، دون أي قصور، و إلا لم يستوف في شخصيته ومواقفه أيا من تلك الشرائط. وهذا محال بعد الاصطفاء الإلهي له.

ولكن أنى للإنسان - مع ذلك القصور الذاتي فيه – أن يستوعب في ذاته تلك الشرائط كافة يجسدها بتلك الحدود والأعماق التي علمناها لقيمة الحق ودينه العظيم؟

ضرورة الرعاية الإلهية للولاية ومجاليها

وهنا تبرز أهمية نتائج الحديث في الباب السابق حول وضوح دلائل الحق في هذه الولاية..

إذ بعد ثبوت الالتزام الإسلامي لها ووضوحه، وسواء في قيام الحجة بها ،أم في مفهومها وحدودها أم في موقعها من دين الله – يستحيل حينئذ تصور انه تعالى سيهمل أمرها في أيٍّ من شرائطها تلك ،أو انه سيترك شأنها لقصور الإنسان وضيق حدوده أو انه سيخلّي بينها وبين أهواء الناس، واختلاف مشاربهم وانحرافاتهم ، فكل هذا مما يستحيل في حكمته تعالى ونفوذ علمه وسلطان قدرته.

إذن فلابد من رعاية إلهيه خاصة تكفل استقامة الحق في هذه الولاية وتفي لشرائطه تلك جميع ما

تتطلبه، سواء في ذات مفهومها، أم في الشخص المرتضى لها ، أم فيما يصدر عنه من هدى ،أم في غير هذا من مستلزماتها.

نعم ، أن في هذه الولاية اصطفاء الهياً اقتضته حكمة الله تعالى المطلقة، وان فيها اختبارا اعتمده اللطف الرباني العميم ، وأن هناك ارتضاءً من الرحمة الواسعة ذات العلم المحيط ، والقدرة المهيمنة والسلطان الذي لا تحيد عنه ذرة في الأرض ولا في السماء ، والسمع الذي لا تخفى عليه وساوس الصدور...

..إذن فمن المحال أن توجد حينئذ ثغرات أو التواءات تستوجب أي خلل في كلمة الله تعالى وهي تتجسد بالولاية ،أو يحصل منها وهن ينال من استقامة الحق فيها...

ومن هذه الضرورة يمكن فهم ما تعنيه هذه الرعاية الإلهية المتصورة هنا، ومعرفة مواردها في ذات الولاية وشخصية الولي وعمقها فيهما وفيما يكتنفها من شؤون.

فهي تعني أولا أن هذه الرعاية نوع من الفيوض الربانية الخاصة التي يستوجبها عموم الحكمة الإلهية ولطفها بالعباد، ومجلى لضمان قدرة الله سبحانه لوحدة الحق ،و استقامته في حقائق دينه، وهي تتجلى في هذه الولاية وفي الشخص المرتضى لها.

إذن، فهي شأن الهي خاص، يستحيل أن يتدخل فيه احد من الناس او يمليه على الله تعالى احد منهم حتى الولي نفسه ، بل ويستحيل أن يدرك احد منه إلا ما يبرز من آثاره ،أو المقدار التي تورده الحجة الإلهية القاطعة، والبلاغ المبين من جوانبه.

كما تعني تلك الضرورة - ثانيا- استيعاب هذه الرعاية للولاية والوالي معا، ولكل ما يمت اليهما بصلة وحيث يتطلبه قيام الحق فيهما.. إذ القصور عن هذا الاستيعاب مما يوهنهما عن الارتفاع إلى مستوى شرائط الحق ، ويعيقهما عن أداء دورهما المعّين لهما في دينه.

وتعني من جهة ثانية - وجوب استمرار هذه الرعاية ودوام مددها مع الزمن الذي اقتضته حكمة الله للولاية والولي ، واستوجبته المهمة الملقاة عليهما في رسالته، إذ يستحيل عليهما الوفاء بتلك المهمة في زمن خلا من ذلك المدد الذي يكفل لهما ذلك الارتفاع.

إذن، فمن غير الممكن تحديد هذه الرعاية في مجال خاص من مجالات هذا المنصب العظيم، أو في أفق معين من آفاق شخصية الولي ، أو في زمن محدد دون أزمنة مهماتهما الكبرى في دين الله ، لان مسؤوليتهما تمتد إلى جميع المجالات والآفاق في الأزمنة التي عينها لهما الاصطفاء الإلهي.

ولا غرابة في كل هذا ، فالحكمة مطلقة ، والعلم محيط، والقدرة مهيمنة، واللطف عميم.

ولا تختص ضرورة هذه الرعاية -بما لها من تجليات- بولاية علي عليه السلام خاصة من بين مناصب دين الله عز وجل، ولا برسالة محمد صلى الله عليه واله من بين رسالاته ، ولا بعلي عليه السلام وحده من بين الأصفياء ، بل هي - وكما رأيناها - واحدة من مستلزمات أي منصب إسلامي، وأي اصطفاء الهي لأحد من الناس لتوليها، لأنها من شؤون الحق نفسه، ومن بعض شرائط قيامه في هذا الوجود.

وفي الوقت نفسه ، فان ولاية علي عليه السلام لا يمكن إن تستثنى من هذه الرعاية مباشرة ، فهي - كأي منصب آخر في دين الله- يجب أن لاتقتصر- في واقعها أو متطلباتها -عن الشرائط العامة للحق ..ومعلوم أن استيفاء تلك الشرائط غير ممكن بدون تلك الرعاية وامدادها ، سواء في طبيعة هذه الولاية أم في نصوع حجتها، أم في موقعها الخاص من دين الله ،أم في دورها الكبير في البشرية ، أم في استشرافها على الزمان والمكان والمشخصات الموضوعية كافة ، أم في المستوى الرفيع في الكمال الإنساني لشخصية الولي وهو يجسد حقائق الإسلام في وجوده وحياته ، وفي كل موقف يصدر منه ، أم في مسؤولية الأمة المسلمة - بل والإنسانية كافة- إزاءها وإزاء وليها،أم في أي شان من شؤونها الأخرى الخاصة أو العامة.

وهكذا يبدو ما تعنيه هذه الرعاية الإلهية لعلي عليه السلام وولايته، فهي القاعدة المكينة التي ينطلقان منها، في كل شان من شؤونها، حيث يستوجب استيعابهما لشرائط الحق كافة، و ما يعلمه الناس منهما ، وما يجهلون، وما يدركه الناس من هذه الشرائط وما لا يدركون.

بل وحتى الوضوح الذي تقدم الحديث فيه ، فهو - بدوره- مجلي لهذه الرعاية، فلولاها لما تمت لهما الصفة على الوجه الأكمل ، الذي تجلت به حجة الولاية، ومستلزماتها كافة.

وهكذا يمكن القول بأن اعتماد هذه الرعاية هي السبيل الأجدى في فهم جميع شرائط الحق في هذه الولاية، والأقرب في استيضاح ا بعادها المختلفة، سواء فيها ذاتها أم في شخص علي عليه السلام أم في مسؤولية الأمة تجاههما.

فها هنا أبعاد ثلاثة ينبغي الوقوف عند كل منهما بشي من التفصيل،ولاسيما في البعدين الأولين منها

البعد الأول : وهي رعاية الله تعالى للولاية الإسلامية ونقف منها هنا على أمرين مهمين:

أولهما: وضوح حاجة الإسلام إلى الولاية في وجوده وكماله وارتباطه المطلق مع الواقع.

ثانيا: عصمتها من ان تنال منها الأهواء مطمعاً.

وواضح ان البعد هو الرصيد الأول لسائر مظاهر هذه الرعاية ، في أي شان من شؤونها ، وشؤون وليها العظيم عليه السلام ،لأهمية مورده بين تلك الشؤون.

البعد الثاني: رعاية الله سبحانه لشخصية الإمام علي عليه السلام ونعرض فيه ثلاث نواحي منها :

-1 التكوين الذاتي لعلي عليه السلام وصياغة شخصيته - بما لها من أصول عميقة - على أسس الحق وشرائطه.

-2سعة الآفاق العلمية التي يمتلكها،للوفاء بمسؤوليات ولايته الكبرى. ٣-امتلاكه لمختلف الوسائل التي يحتاجها لهذا الوفاء.

البعد الثالث: وهي رعاية الله للإنسان المؤمن وهو يتولى علياً عليه السلام في حياته ، وينتهج اتباعه سبيلاً لحياته ،سواء في فكره أم في سلوكه.

الولاية والإسلام

سبق ان علمنا ما لولاية علي عليه السلام من موقع خاص في دين الله تعالى، ومالها من دور في وجوده وكماله:

)وان لم تفعل فما بلغت رسالته)(١(

)اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دين)(٢(

))من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وادر الحق معه حيثما دار((

فهذه النصوص واشبهاها تعني - بوضوح، وكما علمنا: -

إن الولاية من الاركان الاولى لوجود الاسلام ذاته، وانها- ودون اي فرق- كولاية رسول الله صلى الله عليه وآله، ركيزة من ركائزه المبدئية الثابته التي لا يمكن ان ينهض له كيان بدونها او بدون وليها العظيم عليه السلام، ومن هذا المنطلق بنيت ادوارهما الخاصة في دين الله، ومسؤليتاهما في قيام امره، ومسؤولية الأمة المسلمة تجاههما كذلك.

اذن، فمن المستحيل على الاسلام (نفسه) ان يستغني عن هذه الولاية ووليها بحال من الاحوال، او في شان من الشؤون، ويمتنع ان يتجرد عنها في جميع حقائقه ومهماته في حياة الانسان.

وهذا التوحّد بين علي عليه السلام وولايته وسائر اركان الاسلام ومكوناته لم يؤخذ فيه حد معين في

الزمان او المكان، او أحد القيود الاخرى ، دون وجود الاسلام ذاته، ودون دوره الأتم في الحياة ودون خصائصه وسماته كافة.

فكما لم توجد رسالة محمد صلى الله عليه وآله دون الولاية في عهد التبليغ، فان هذه الرسالة لايمكن ان توجد الآن او في اي زمان آخر بدون الولاية بعد ذلك العهد ، مابقي على هذه البسيطة انسان ، شاءت حكمة الله تعالى بان تقيم عليه الحجة بهذا الدين العظيم، وتأخذ بيده في سبيل الخير والهدى بواسطة هداه.

ومع ان هذه النتيجة دقيقة جداً، وحساسة جداً، ولاسيما مع ملاحظة الادوار التاريخية المتمادية ذات المواقف السلبية المعروفة من الولاية ومن صاحبها العظيم عليه السلام، الا انها- وعلى اي حال- هي المدلول الصريح لتلك النصوص، التي لاحظنا تواتر مضمونها المشترك، حيث لم يرد في اي منها ولو واحد من القيود التي تحدد هذه النتيجة،في زمان خاص،او في مكان معين، او مستوى علمي، او اتجاه حضاري، وراء ذات الاسلام نفسه، ودوره في البشرية.

اذن فبهذه النتيجة- وبالحدية والحسم اللذين يفرضهما مفهوم الحق واستقامته- يجب ان تفهم الرعاية الالهية لهذه الولاية الكبرى ايضا .

فالقران الكريم حين اناط وجود رسالة محمد صلى الله عليه وآله بولاية علي عليه السلام وحين جعلها اكمالاً لدين الله سبحانه واتم بها نعمته على العباد، واعلن بها رضاه بالاسلام ديناً للبشرية، كان لابد ان تكون الولاية هي الوفاء الاتم لهذه الادوار والمواقع والمهمات كافة.

والرسول صلى الله عليه وآله حين جمع بين ولايته هو صلى الله عليه وآله والتى جعلها الله تعالى له ولاية علي عليه السلام كان يعني ان كلتا الولايتين ينبعان من مصدر واحد، ويجريان في خط واحد ،نحو مصب واحد، فلا غناء لاحداهما عن الاخرى ، فبهما معاً تتكامل ادوار الرسول صلى الله عليه واله وعلي عليه السلام وبهما- معاً- تتضح معالم هدى الله سبحانه وبيناته.

ولم يكن القران - كتاب الله الخالد وحجته الناطقة- ولم يكن رسول الله صلى الله عليه واله- الذي لا ينطق عن الهوى- ليحيدا عن الحق قدر أنملة، فهو محور وجودهما، وهو جوهر حقيقتهما في هذه الارض...ولم يكن الحق- من جانبه- ليختلف في دينه العظيم بين موقع واخر،او بين حكم واخر،او اصطفاء واخر كذلك، وهو يمتلك ذلك الرصيد الاكبر من الارتباط بالله العظيم، والاستقامة التامة مع حكمته ولطفه.

اذن فلا بد ان تكون هذه النتيجة هي مجرى رعاية الله سبحانه لولاية علي عليه السلام، ورعايته له نفسه، بكل مالها من جوانب ومميزات وخصائص ومستلزمات، اذ القصور عن هذه الغاية مما يستحيل على حكمته سبحانه،لما يعنيه من تفاوت ونقص جلت عنهما ذاته المقدسة.

وكذلك فلابد ان تكون هذه النتيجة هي المعيار الذي توزن به جميع الشخصيات التي تنتسب الى الاسلام، ويقاس به مايصدر عنها من مواقف. وان تكون هي الرصيد الذي تحاكم به التصورات والمناهج التي تنتهي اليها مختلف الدراسات والجهود التي تدّعي الانطلاق من الاسس الاسلامية.

كما لابد ان تجعل هذه النتيجة هي الاساس الذي ينطلق فيه المؤمن في تعامله،لا مع الولاية فحسب ، وانما مع دين الله ككل،فهي - كما نراها- جذر اسلامي مشترك،يمتد رفده وعطاؤه في اي بُعد اسلامي آخر، فأي التزام من الانسان لا يبنى على اساس ثابت من مقتضيات هذه الولاية ليس بذي معنى يرتضيه الاسلام نفسه لمتبعي هداه..

)ورضيت لكم الاسلام دين)(٣(

لا طمأنينة للإيمان بدون الولاية

ومما يجري في هذا المضمار من رعاية الله سبحانه لولاية علي عليه السلام: عدم امكان قناعة الفكر الواعي واطمئنانه بإيمان رشيد بالإسلام، متكامل الأصول والحلقات والمواقع بدونها.. فهي حاجة أساسية يقوم عليها كل اصل من اصول الاسلام،وكل بينة من بيناته، قبل ان تتبلور هذه البينات في تصوراته واحكامه كافة.

وهي حاجة- والحق يقال- واضحة كل الوضوح حين يتجرد الانسان عن ضيق النظرة المذهبية المحدودة، التي تضع العوائق امام العقول لئلا تنطلق في آفاق الرؤية الاسلامية المتكاملة.

))واني سائلكم - حين تردون عليّ - عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما: الثقل الاكبر كتاب الله، طرف بيد الله وطرف بايديكم، فاستمسكوا به،لا تضلّوا ولا تبدّلوا...عترتي اهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض((

))افهموا محكم القرآن ولاتتبعوا متشابهه، ولن يفسر ذلك لكم الا من انا اخذ بيده وشائل بعضده((

))النور من الله فيّ، ثم في علي، ثم النسل منه الى القائم المهدي((

ولهذا فان اي مذهب فكري او اعتقادي او فقهي،او غير ذلك من المذاهب الاسلامية حين ينطلق في بناء ذاته بعيداً عن الولاية وعما لها من موقع خاص في دين الله، وحين يحاول ان يقيم مفاهيمه

ومناهجه، ومعالجته للامور بدون رصيد كافٍ منها، فان هذا الابتعاد منه عن الولاية سيُصبح ثغرة واسعة الهوه فيه وسبباً للوهن في كل ما يطرحه امام البصائر من القضايا وعلى اي صعيد، فهولا يستطيع- حينئذ- استيعاب اصول التكامل في الرؤية المطلوبة لمصادر الاسلام وبيناته، ومن ثم عاجز عن بلورة ايٍّ من تلك القضايا من خلال المنظار الاسلامي السليم، وهو قصور واضح لا يستطيع أي من هذا النوع من المذاهب تجنبه في واقعه،وان لم يعترف به صراحة، ويمكن لاي باحث نزيه ملاحظته في جميع المذاهب الاسلامية التي جانبت الولاية ولم تتخذ من هدى اهل البيت عليهم السلام اساساً في اقامة صرحها ونوراً تتبعه في كل خطوة تخطوها.

على ان مثل هذه المذهب يعجز في الوقت نفسه عن وضع اجابات محددة وواضحة عن جميع الاسئلة التي اخذت تملا جوانب الفكر والحياة، حين يسلمان امرهما ومسيرتهما الى رسالة محمد صلى الله عليه واله، بعد ان بدات جذوة هداها وانوارها تنمو وتتسامى معالمها في واقع الانسان، ومن المنتظر ان تضع لكل حالة تصورها، ولكل امر مستجد حكمه،ولكل مسلك هداه.

..اجابات واضحة، تركن الى هدى الاسلام ذاته، والى وصوله وبيناته وحدها فحسب، دون ادني تدخل من الذاتيات العاطفية فيها او التنازلات العمياء عن كلمة الحق.

نعم، فالرسول صلى الله صلى الله عليه واله كان خاتم أنبياء الله ورسله،فلا نبي بعده ولا رسول .

وكانت رسالته العظمى هي خاتمة الرسالات الالهية،فلا رسالة بعدها.

اذن فهي الغناء الالهي الابدي للبشرية في طموحها نحو الكمال، بعد ان بلغت مراحل نضجها العليا، وهذا واضح في خصائص هذه الرسالة ومميزاتها، بل هو من بدائهها التي اعتمدتها في كل تصور وفي كل تشريع..

ولكن في الوقت نفسه علينا ان نلتفت الى ان الرسول صلى الله عليه واله لم يل من امر الحق الذي بعث بدينه سوى حقبة قصيرة من الزمن،لم يتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة بعد بعثته صلى الله عليه واله..هل ياترى ان هذه السنوات القلائل كانت كافية في تحقيق الغرض الالهي من هذه البعثة، وقيام حجته بها الى الابد، دون قيّم اخر تمتد به سلسلة هذه الولاية على الخلق ودون رافع اخر لمشعل انواره امام السائرين في ظلمات الحياة؟!

فهل ان تلك الفترة القصيرة من الزمن كانت كافية في تخليد الاسلام مع الزمن، نقي الهدى ، صافي الآفاق، واضح البرهان، بالغ الحجة، لا تكدر صفاءه الأهواء، ولا تنال منه الاطماع، وان لم يكن له

ولي يضع اموره كافة في انصبتها المناسبة؟

وماهو الضمان الأكيد في ابديّة الاسلام مشعلاً هادياً ينير دروب الحياة الانسانية في مختلف اصعدتها ما لم يكن هناك استمرار دائم لتعهد معصوم، ياخذ على عاتقه مسؤولية هذا الضمان.

وماهو وجه الحكمة في ان تترك معالم الحق هكذا بايدي العبث، وتقاذف الاهواء؟..

افهل هناك قصور في حكمة الله سبحانه؟،ام هناك عجز في قدرتها عن ان تبلغ ماتشاء؟،ام جهل باوجه المصلحة التي لاتخفى على ابسط الناس؟ !

واين هي دلائل اللطف الرباني في فتح منافذ النور لحظة من لحظات الزمن،ثم اسلام ثقل الحق كله الى كلفة غير ماموني الشطط؟

وماهي مواقف دين الحق ازاء مستجدات الحياة،حيث يجب ان يقول فيها كلمته الواضحة في كل زمن لاتمام نور الله فيها؟

واخيرا،ماهو الموقف السليم من كل تلك الأدلة التي اقامها الاسلام على هذه الولاية، والشواهد التصديقية المتواترة في صحة مدلولها الاسلامي،وارتضاء علي عليه السلام لها دون غيره من الناس بعد الرسول صلى الله عليه واله، ثم لتمتد منه الي ابنائه الطاهرين عليهم السلام؟

وهذه واشبهاها اسئلة ليس لها جواب مقنع يمكن ان يركن اليه احد،او يطمئن به قلبه بدون ولاية علي عليه السلام، كحلقة ثانية بعد رسول الله صلى الله عليه واله، لتمتد السلسلة الى الولي الاخير المنتظر عليه السلام .

وهذا يعني ان شعور المؤمن بحاجته الى ولاية علي عليه السلام من الدعائم الاولى لايمانه، وبتعبير اخر: انه بدون هذه الولاية يستحيل ان يستكمل استمساك الانسان بدين الله ووجوده وثباته في الوعي ، واستقراره في النفوس دون وهن او قصور.

وهو امر تشعر به جميع العقول المتفتحة، وهي تتطلع الى معالم الحق في دينه القويم، وتسمو بانفسها عن ضيق النظرات الجانبية التي تزيغ بالبصيرة عن بينات الهدى في اصوله .

ولا ريب ان هذا الشعور نفسه، واثاره في دفع الانسان الى تتبع معالم كلمة الاسلام في امر الولاية،هو بعض دلائل تلك الرعاية الالهية لها، حيث يبدو للبصائر دورها في اقامة كيان الايمان في النفس،والاستمساك به ،اذ لا يستتم هذا الايمان معالمه الاسلامية الرشيدة واستيعابه لشرائط الحق الا بها ،والا باتخاذها ركنا في هذا الاستمساك.

الولاية والواقع الإسلامي القائم

وهي قضية يؤيدها الواقع الفعلي المشهود من دين الله..

ونحن اليوم - وبعد هذه القرون المتمادية من بزوغ شمسه- ادرى بصدقها، حتى من اولئك الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه واله او جاؤوا بعده في زمن العصمة .

فها نحن نرى ان ولاية علي عليه السلام - وما استتبعها من ولاية ابنائه المطهرين الأحد عشر عليهم السلام - هي المجلى الواضح لحجة الإسلام وكماله، وتمام كلمته في البشرية ،واستقامته الأبدية مع الواقع،رغم عواصف الزمن، وتحكم الصراع في جميع مجالات الحياة، ودقة القضايا التي استجدت بعد عهد الرسول صلى الله عليه واله. إذ ما كان عطاء الإسلام ليستتم فيها لولا أولئك الأولياء والأصفياء عليهم السلام، ولولا بيناتهم التي بثوها في الناس، وهدهم الذي حاولوا أن يضعوه أمام البصائر،رغم كل المواقع والعقبات التي وضعتها في طريقهم حقب طويلة سوداء من الأحقاد والأطماع والأهواء .

ولا احاول الدخول في التفصيل من هذه الناحية المهمة، فهي أوسع من أن يحاط بها في مجال ضيق كالذي نحن فيه. وماهذه الأطروحات التي أملاها الإسلام في بيناته، الا شواهد بارزة لهذه القضية، حيث يبرز فيها ما لهذه الولاية من دور كبير في اتمام كلمة الله تعالى واثبات هداه وبرهانه للعقول، دون خلل او تفاوت، ولا في عصر خاص من تاريخ الاسلام، ولا في صعيد معين من اصعدة الحياة،وانما في جميع العصور والاصعدة والمستويات.

فكل ما أثر عن علي عليه السلام،أو عن احد أبنائه المنتجبين عليهم السلام هو شاهد قائم على هذا الدور الخاص للولاية وعلى رعاية الله لها،وتعهده باكمال دينه بها.

اذ بينما يلحظ الوهن والخلل في جميع الآراء والجهود التي حاولت دراسة الاسلام بعيدا عن الولاية ودلائلها، وما وضعته للبصائر من هدى، ولا سيما في مستجدات الفكر والحياة، فان أحداً لم يستطع ملاحظة أي وهن أو انحراف عن استقامة الإسلام المطلقة في أي من كلمات منتَجَبِي الولاية،أو سلوكهم أو رؤيتهم للأمور.

وهذا الامتداد الإسلامي في الولاية ودلائلها هو مما يَعلمه كل مسلم، بل ومما يعلمه كل متتبع لقضايا الإسلام، وان لم يكن من اتباعه، لأنه قضية موضوعية قائمة، قبل أن تصبح مورداً للالتزام، وقد اعترف بها حتى أولئك الذين ناوؤوا علياً وبنيه عليهم السلام، واتخذوا من ولايتهم موقفاً اقل ما يقال

عنه بأنه سلبي، وسلّموا بها- ولو عملياً أو في بعض حالات الصفاء أو ضعف النفوس أمام الحق - كواحدة من الحقائق التي لامحيص عن التسليم بها، حتى أصبح ذلك الاعتراف وهذا التسليم من الشيوع بدرجة لا يستنكرها احد منهم.

وقد سبق أن قرأنا أن عمر بن الخطاب كان يرى بأن علياً أولى بالخلافة منه ومن أبي بكر.

بل وكان يرى بأن قول علي عليه السلام هو من السنة..اذ روى الشعبي:

)أتى عمر بن الخطاب بامرأة تزوجت في عدتها، فأخذ مهرها فجعله في بيت المال، وفرق بينهما وقال: لا يجتمعان.وعاقبهما .

فقال علي عليه السلام: ليس هكذا، ولكن هذه الجهالة من الناس ولكن يفرّق بينهما، ثم تستكمل بقية العدة من الأول، ثم تستقبل عدة اخرى، وجعل لها علي المهر بما استحل من فرجها .

قال: فحمد الله عمَر واثنى عليه، ثم قال: ردوا الجهالات إلى السنة) (٤(

كما ورد مثل هذا الاعتراف والتسليم عن أبي بكر أيضاً قبل عمر، كما رواه اَنَس في حديث طويل قال:

)فعند ذلك خرج ابو بكر ورقى المنبر وقال: اقيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم.

قال: فعند ذلك خرج اليه عمر، وقال: يا أبا بكر ما هذا الكلام؟، قال: فقد ارتضيناك لأنفسنا،ثم انزله عن المنبر..) (٥ (

ولا نطيل باقتباس مثل هذه الأحاديث فهي اكثر من أن تحتاج إلى مزيد اقتباس.

انعقاد الألسن مع الولاية

ومما يجري من رعاية الله سبحانه في هذا المضمار أيضاً الجام الألسن وانعقاد حجتها في مواجهة الولاية وأوليائها المنتجبين، حيث تنعدم كل حجة، ويزيغ كل برهان لاثبات أي صلة بين المواقف المناوئة والإسلام .

وهو كذلك امر معروف منذ عصر الرسالة والأيام الأولى للولاية وحتى اليوم، اذ لم يستطع أحد حتى ممن حملوا لواء منازعة أولئك الاولياء عليهم السلام ان يبرر مواقفه تلك بحجة يستند فيها إلى بينه إسلامية ثابتة يلتزمها الإسلام ذاته بالرغم من مجانبة جميع الحقب لهذه الولاية، وبالرغم من كتابة التأريخ بأيدٍ لا تعترف لها بمقامها المناسب قي دين الله...

ولعل فيما قرأناه من المحاورات السابقة بين علي عليه السلام وطلحة بن عبيد الله، وبين عمر بن العاص والفتى من همدان، وبين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، وغيرها خير دليل على مثل

هذا الالجام.

و أوضح منها - جميعا - حديث عمر بن الخطاب مع حارثة بن زيد، بعد أن اخبره بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه واله في ولاية علي وخلافته،اذ قال حارثة بن زيد له:

ويحك ياعمر! كيف تقدمتموه وقد سمعت ذلك من رسول الله؟

فقال: ياحارثة، بامر كان .

فقال:من الله،ام من رسوله،ام من علي؟

فقال:لا، بل الملك عقيم، والحق لابن ابي طالب.

نعم،الملك عقيم، ولا شيء آخر وان كان الحق لابن ابي طالب، وهو اعتراف بالالجام أقرب من ان يكون حجة على موقفه، ولو ملك عمر ان يقول غير هذا في الرد على حارثه لما فاته ان يقوله.

وهذا الموقف من عمر يشبه موقف عائشة ام المؤمنين، حينما دخلت عليها امرأتان من نسائها فسألتاها عن علي عليه السلام،فقالت:

)عن أي شيء تسألن عن رجل وضع من رسول الله صلى الله عليه واله موضعاً.فسالت نفسه في يده فمسح بها وجهه،واختلفوا في دفنه، فقال: ان أحب البقاع إلى الله مكان يقبض فيه نبيه؟

قالتا : فلما خرجت عليه؟

قالت:أمر قضي، ووددت ان أفديه ما على الأرض من شيء) (٦(

اذن، فلا حجة اسلامية يمكن أن يركن قادة هذا الاتجاه اليها في تعليل مواقفهم المناوئة للولاية،اذ كان من الحريّ ان تذكر في مثل هذه المحاورات لو وجد بعضها بشكل أو بآخر، وحين يكون موقف هؤلاء القادة المبرزين بمثل هذا الضعف، فمن الطبيعي أن لا تؤمل القوة في موقف اتباعهم، فالى كلماتهم تنتهي الكلمات، والى حجتهم تنتهي الحجج، ومحال أن تكتسب القوة من الضعف،لان فاقد الشيء لا يعطيه، كما هو معلوم.

بل ولأن إلجام الألسن تجاه الولاية قد أصبح من المرتكزات المعروفة بين المسلمين عامة، فقد أمكن لبعض الناس أن يستخدمه لتحقيق مآرب سياسة خاصة، كما فعل عمرو بن العاص حينما طلب منه معاوية أن يرسل اليه خراج مصر، بعد ان ولاه عليها، فأرسل اليه جواباً فيه قصيدته المعروفة بالجلجلية، اذ يقول فيها:

معاويةُ! الحال لا تجهلِ * و عن سُبل الحقِّ لا تعدلِ**

نسيتَ احتيالي قي جُلَّق * على أهلها يوم لبس الحلي؟**

إلى أن يقول فيها:

نصرناك بجهلنا يبن هند ! * على النبأ الاعظم الأفضلِ**

و حيث رفعناك فوق الرؤوس * نزلنا إلى أسفل الأسفلِ**

و كم قد سمعنى من المصطفى * وصايا مخصصة في علي!**

و في يوم "خُمٍّ" رقى منبراً * و بلّغ و الصحب لم ترحلِ**

و في كفّه كفّه معلناً * يُنادي بأمر العزيز العَلي:**

"ألست بكم منكم في النفوس بأولى ؟ " فقالوا : " بلى ففعلي"

فأنحله إمرة المؤمنين * من الله مستخلف المنحلِ**

و قال : " فمن كنتُ مولى له * فهذا له اليوم نعم الولي**

فوال مواليه ياذا الجلال!و عاد معادي أخ المرسلِ

و لا تنقضوا العهد من عترتي * فقاطعهم بيَ لم يوصل"**

فبخبخ شيخك لما رأى * عُرى عقد حيدرَ لم تُحللِ**

فقال : " وليّكمُ فاحفظوه * فمدخله فيكمُ مدخلي"**

و إنّا و ما كان من فعلنا * لفي النّار في الدرك الأسفلِ**

و ما دم عثمان منجٍ لنا * من الله في الموقف المُخجلِ**

إن علياً غداً خصمنا * و يعتزُّ بالله و المرسلِ**

يُحاسبنا عن اُمور جرت * و نحن عن الحقِّ في معزلِ**

فما عذرنا يوم كشف الغطا؟ * لك الويل منه غداً ثم لي**

ألا يابن هند ! أ بعتُ الجنان * بعهد عهدت و لم توفي لي ؟**

و أحسرتَ اُخراك كيما تنال * يسير الحطاممن الأجزلِ**

و أصبحت بالناس حتى استقام لك الملك من مِلك محولِ

و كنت كمقتنص في الشراك * تذود الظماء عن النتهلِ**

كأنَّك أنسيت ليل الهرير * بصفِّين مع هولها المهولِ**

و قد بتَّ تذوق ذرق الّعام * حذراً من البطل المقبلِ**

و حين أزاح جيوش الضلال وافاك كالأسد المبسلِ

و قد ضاق منك عليك الخناق * و صار بك الرَّحب كالفلفلِ**

و قولك : ياعمرو ! أين المفرّ * من الفارس القسور المسبلِ**

عسى حيلة منك عن ثنيه * فإن فؤاديَ في عسعلِ**

و شاطرتني كلّما يستقيم * من الملك دهر لم يكملِ**

فقمت على عجلتي رافعاً * و أكشف عن سوأتي أذيل**

فستَر عن وجهه و انثنى * حياءً و روعك لم يُعقلِ**

و أنت لخوفك من بأسه * هناك ملأت من الأفكلِ**

و لمّا ملكت حماة الأنام * و نالت عصاك يد الأوَلِ**

منحت لغيريَ وزن الجبال * و لم تعطني وزنة الخردلِ**

و أنحلتَ مصراً لعبد الملك * و أنت عن الغيِّ لم تعدلِ**

و إن كنتَ تطمع فيها فقد * تخلى القطا من يد الأجدلِ**

و إن لم تسامح إلى ردِّها * فإني لحوبكمُ مصطلي**

بِخَيلٍ جِيادٍ و شمِّ الأُنوف * و بالمرهفات و بالذبَّلِ**

و أكشف عنك حجاب الغرور * و أيقظ نائمة الأثكلِ**

فإنَّـك من إمرة المؤمنين * و دعوى الخلافة في معزلِ**

و مالك فيها ولا ثرة * ولا لجدودك بـــــــــالأوَّلِ**

و إن كان بينكما نسبةٌ * فأين الحسام من المنجلِ؟**

و أين الثريا و أين الثرى ؟ * و أين معاويةٌ من علي ؟**

فإن كنتَ فيها بلغتَ المنى * ففي عنقي عَلق الجلجلِ**

إلى أخر القصيدة التي يذكر منها في كتاب الغدير ستة وستين بيتا اقتبسها من مختلف المصادر. (٧(

ويروى الاسحاقي في لطائف أخبار الدول: انه كتب معاوية إلى عمرو بن العاص :

)انه قد تردد كتابي لك بطلب خراج مصر، و انت تمتنع وتدافع،ولم تسيره، فسيره لي قولاً واحداً

وطلباً جازماً.

فكتب إليه عمرو بن العاص جواباً وهي القصيدة الجلجلية المشهورة .. الى أن يقول -بعد ذكره لابيات منها - : فلما سمع معاوية هذه الابيات لم يتعرض له (٨ -)

وواضح انه لولا ان عمرو بن العاص كان يعلم ان معاوية لا يستطيع مقابلة هذه الحقائق بحجة مقنعة لم يكتب له ما كتب، ولم يكن ليتم له ما أراد،اذ ليس معاوية من الوهن والضعف أمام عمرو بن العاص بهذه الدرجة التي جعلته يستكين لعمر بهذا الشكل السريع، فمعاويه أدهى وأمكر من أن يغلب بهذه السهولة لولا تلك الحقائق التي طرحها عمرو واستخدمها لتحقيق مآربه معه.

الولاية والفطرة الإنسانية

و مجلى آخر من مجالي رعاية الله تعالى لولاية علي عليه السلام ترد ضمن هذا التوحّد الذي اخذته النصوص السابقة بين هذه الولاية وغيرها من حقائق الإسلام ومكوناته.

ولفهم هذا المجلى من رعاية الله بشكل واضح نستذكر مرة أخرى ما يعنيه عنصر الحق في التزام الإسلام كقيمة مطلقة تتمحور عندها جميع القيم والمفاهيم و الاحكام الاسلامية.

اذا قلنا سابقاً، ان الحق في دين الله يعني تطابقه الكامل مع واقع الانسان، كما خلقه الله وسواه، وكما شاءته حكمته فيه، دون أدنى تفاوت أو خلل،أو فرض حكم أو مفهوم عليه لا يستقيم مع اتجاهاته الفطرية و اصوله الذاتية.

فحكمة الله تعالى حين شاءت ان توجد الانسان بالشكل الذي أوجدته به، وملّكته من المميزات والخصائص مالم تملكه لغيره من موجودات الأرض، وحين شاءت أن تجعل منه واعياً متبصراً لما يحيط به من ظواهر الوجود، وان تعطيه عقلاً مميزاً،وقوى مختارة مريدة، يستطيع أن يحقق بها خلافته لله في هذه الارض.. فحينئذ كان لابد لهذه الحكمة أن تتحفظ على هذه النعم في الانسان، وهي تشرّع له نهجه في الحياة، وان لا تحيد عن أي منها في حكم من أحكامها، لأنّ أيّ تجاوزٍ لواحد من هذه الخصائص الانسانية يعني خروج تلك الحكمة عن مقتضياتها في خلقها للانسان، وتفاوتاً بين غايات الايجاد وغايات التشريع،وهذامن المحال كما هو واضح .

اذن فالتزام الاسلام لعنصر الحق يعني - في أحد دلالاته القريبه- ان دور الاسلام في البشرية ومهمته في قيادة الانسان نحو أهدافه العليا، انما ترد ضمن آفاق معاني كلمات الهدى والنور والبرهان وشبهها، و الأخذ بيد من شاء من الناس إلى حيث الشفاء والرشد، وهي جميعها معان تشترك في

تحفظها على الاختيار الانساني وعلى حريته في أخذ ما يأخذ، وترك ما يترك، دون قسر أو إكراه.

كما يعني هذا الالتزام أن دلائل الاسلام وبيناته، وحجة الله فيه انما ترد ضمن مفهوم ابلاغ كلمته إلى البصائر، وقيام برهانه بين الناس، وملء وعيهم وقناعتهم بتلك الكلمة والبرهان بشكل لا يسلب ما للاختيار من دور، ومل للبصيرة من مهمة في قيادة السلوك وفي قبول ما يقبله الانسان من الأمور ونبذ ما ينبذه منها، دون الجاء أو اجبار.

ومهمات الرسل و الانبياء و اصفياء الله كافة عليهم السلام انما تأتي ضمن هذا الخط أيضاً،وفي مدى هذه الحدود، فمسؤولية أيٍّ منهم لا تعدو مفاهيم الابلاغ والتبشير والانذار، وتشخيص كلمة الله تعالى شواهد حية قائمة بين الناس في السلوك والتصور، فلا جبر منهم لأحد من الناس على اتخاذ موقف معين ، ولا اكراه لهم بشكل لا يستقيم مع اختيارهم وارداتهم، و انما هو النور والبرهان وإقامة الحجة

)وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) (٩.(

)ولقد ارسلنا رسلنا بالبينات و أنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (10)(

فتحقق التبشير و الانذار من رسل الله عز وجل، وبلاغهم لبيناته، واقامتهم لحجته شاهداً قائماً أمام البصائر هي المهمات المطلوب تحقيقها من أولئك المصطفين عليهم السلام، حينما أوكلت اليهم امور دين الله تعالى، وانيطت بهم مسؤولياته الكبرى في هذه الحياة. كما أنها هي المقياس الذي تقاس به جهودهم،انفسهم في الوفاء بها. كمدى استجابة الناس لهم،وكثرة متبعيهم مثلاً، فهي أمور لا ترتبط بمسؤولياتهم ولا أثر لها في وفائهم بها.

وهي نواح واضحة، تستبين من الآيات السابقة، وغيرها كقوله تعالى:

)ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) (١١.(

)وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعاً فان الله غني حميد) (١٢(

ومن الطبيعي أن لاتخرم هذه القاعدة أيضاً في محمد صلى الله عليه واله نفسه من بين رسل الله عليهم السلام، فمهمته في الحياة كذلك لم تعدُ التبشير و الانذار واقامة رسالة الله في هذه الأرض شاهدا حيا، ينير للبشرية دروبها في مختلف أصعدة الحياة.

)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) (١٣(

)فان تولوا فإنما عليه ما حملّ وعليكم ما حمّلتم وان تطيعوا تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين))١٤( )

الا أن هذه الفسحة التي أعطيت للإنسان في الاختبار، وفي قبول أو نبذ كلمة الاسلام، ومكنته من أن يتعامل معه من خلال مميزاته الإنسانية لا تعني أن النتائج التي سيحصل عليها واحدة في جميع الحالات، وفي كل من موقفي السلب و الإيجاب معاً، و ان الثمرة التي سيجنيها متشابهة في كلا الاتجاهين.

كلا، أبداً، فهناك فارق عظيم بين االنتجيتين لفارق ما بين سببيهما.

ان الفارق بينهما هو فارق مابين النور والظلام .. مابين الاستقامة مع الحق والتيه في ضلال الباطل.

ولا شك ان السلوك في سبيل واضح المعالم، مستقيم الاتجاه، مع دليل مأمون العثرات والانحراف، نحو غاية معلومة للسالك مطلوبة له، يختف - في آثاره ونتائجه - عن السير الأعمى في متاهات و مفازات لا يعلم السائر فيها مبدأ من منتهى، ولا يدرك منها حتى مواقع أقدامه، وتكتنفه المهالك في كل خطوة .. قال تعالى:

)فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. الله ولي الذين آمنوا يخرجوهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (15) (

نعم، هذا هو الفارق بين اتباع الاسلام في نهجه القويم، و اتباع غيره من السبل التي يراها المرء في مختلف جوانب الحياة والفكر، وان صورت هذه السبل في ملامح أخّاذة ومناهج منتظمة وخطوط موحّدة المشارب، الا ان النتائج انما هي تبع للواقع لا للمظاهر وللدعاوى الفارغة. كما هو معلوم.

و الإسلام حين التزم في بيناته المختلفة سمة الحق قيمة مطلقة، وتحدى العقول كافة بهذا الالتزام، إنما قصد أن يجعل القيمة هي الميزان العام الذي تحاكم به الحقائق كافة، و الأساس الذي تعتمده جميع الآثار والنتائج التي تتأتى منه أو من غيره في حياة الإنسان، وهو يسلم قياده إلى مذهب من المذاهب،أو يتبع ديناً من الأديان كما علمنا- وكما قلنا كذلك- فان التزام الإسلام لهذه السمة ليس دعوى فارغة منه لا رصيد لها في ذاته، و إنما هو الواقع، و إنما هي الحقيقة التي دعى العقول والبصائر إلى تأملها وادراك معالمها في كل كلّيّة أو جزئيّة في شؤونه ومكوناته.

اذن، فهناك رشد أو غي، هدى أو ضلال، صلاح أو فساد، حياة أو هلاك، كرامة من الله سبحانه أو

مهانة.. ثم وبعد الموت والنشور جنة عرضها السماوات و الأرض، أو نار((أحاط بهم سرداقها، وان يستغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقاً.((

من مجالي رعاية الله سبحانه لدينه العظيم

أما الرعاية الإلهية التي تتجلى للإنسان في دين الله من هذه الناحية بالذات،وتبرز لوعية مع أدنى التفات، فيمكننا ان نقف منها عند مجليين :

الأول: ذلك القرب المباشر في حقائق الاسلام كافة من فطرة الانسان ذاته..وهو عنوان واقعية الاسلام التي يستحيل ان ينالها مذهب من المذاهب او دين من الاديان سواه.

فهو قرب يمزج بين هذه الحقائق(بما تحويه من تصورات واحكام ومُثُل انسانية وغيرها (مع تطلع الانسان نفسه الى الحق،وطموحه الذاتي الى الاستواء،والى استقامة الوجود،لا في جانب خاص من جوانبه،وإنما في جميع الجوانب الفكرية والسلوكية والأخلاقية وغيرها..

وهي ميزة التزمها الله تعالى مشرع الاسلام،واخذها على نفسه حين تعهد للانسان أن يجعله دين الفطرة وصبغته التي انشأ عليها تكوينه هو،بل وتكوين جميع مظاهر الخلق..قال تعالى:

)فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) (١٦(

)صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون) (١٧(

وشواهد هذا القرب الفطري لحقائق دين الله من الانسان يجدها كل فرد من نفسه،وهو يتبع بصائر الله تعالى ويسترشد بيناته في سلوكه نحو غاياته الرفيعة في الحياة،قبل أن يلمس دلائلها وآثارها في الحياة الانسانية واستقامتها في مسيرتها نحو اهدافها الفطرية العليا،وسعادتها وكمالها الساميين.

الثاني: ذلك المدد الرباني الذي يعضد المؤمن وهو يستمسك بعروة الاسلام الوثقى،فلا تزل له قدم في مسرى،وذلك النور الذي يملأ بصيرته،وهو يسترشد هداه،فلا يزيغ به هوى في تصور او سلوك،وذلك العون ومدد القوة اللذان يثبّتانه على الحق في كل موقف.

وهو كذلك التزام اخذه الله تعالى على نفسه للاسلام وهو يقدمه للانسان مناراً له في الحياة ورصيداً ابدياً لاستقامته التامة فيها نحو الكمال،قال تعالى:

)يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة...) (١٨(

)والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم))١٩(

)والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)(٢٠(

الولاية والواقع التكويني والانساني

وعليه فحين اعتبر الاسلام ولاية علي عليه السلام واحدة من أهم أصوله وحقائقه،فمن الطبيعي أن تتراءى فيها هذه المطابقة التامة مع واقع الوجود التكويني والانساني،وكما اقتضته حكمة الله فيه.كما يتراءى فيها نفس الدور الذي انيط بالاسلام والمهمات التي اضطلع بها مصطفوه المنتجبون عليهم السلام عامة،ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه واله منهم خاصة.

وبالفعل،فهذا هو ما دلت عليه دلائل الولاية من نصوص الاسلام كافة. فالحجة الالهية فيها لم تَعْدُ التبشير بها و الانذار من مجانبتها، فهي لم تكره أحداً من الناس على اتّباعها،ولم تقسره على التزامها وراء اختياره وقناعته...

"من كنت مولاه فعلي مولاه "..

" فان الله مولاكم وعلي امامكم، ثم الامامة في ولدي من صلبه الى القيامة "

ولكن- كما في سائر حقائق الاسلام الاخرى- فان النتائج المترتبة على التزام الانسان لهذه الولاية تختلف عن النتائج المنتظرة من مجانبتها والصد عنها،واثار كل من النهجين تتفاوت عن آثار النهج الآخر، تفاوت مابين الهدى والضلال...ومابين الاستقامة في سبيل الله تعالى والانحراف عنه...

"اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله "

"فلا تضلوا عنه ولا تستكنفوا منه فهو الذي يهدي الى الحق ويعمل به.لن يتوب الله على انكره ولن يغفر له،حتماً على الله ان يفعل ذلك ويعذبه عذبا نكراً ابد الآبدبين "

كما يتجلى في هذه الولاية أيضاً ذلك القرب المباشر من الفطرة الانسانية حيث اخذه الله عز وجل على نفسه حين شرع مختلف حقائق الاسلام وبيناته .

وهي رعاية ربانيه خاصة لا يرتاب فيها احد ،ويدركها كل متتبع لمعالم الحق في هذه الولاية...

وقد سبق آن لاحظنا أن مختلف الاسئلة التي ترد على الفكر في إتمام كلمة الاسلام،وقيام حجته بعد الرسول صلى الله عليه واله وعظمة حكمة مشرعة كلها لا تجد جوابها المقنع بدون هذه الولاية...

كما لاحظنا أن اطمئنان القلب بالايمان لا يتحقق بدونها.

ورأينا استحالة ان تكتمل جميع حقائق الاسلام وتنتظم بيناته بدون هذه الولاية وبدون ان تؤيد برعايتها وقوامتها،اذ الولاية نفسها هي المظهر الاسمى لتلك الحقائق كافة ومنبع تلك البينات جميعا.

وهذا يعني ان هذه الولاية وشؤونها ليست قريبة من ذات الانسان وفطرته فحسب،وانما هي واحدة

من العناصر المهمة لهذا القرب في اي حقيقة اسلامية اخرى- كما هو واضح مع ادني تأمل- اذ بالولاية تستكمل مختلف حقائق الاسلام استقامتها مع الروح الاسلامية العامة،وهو امر يستشعره كل احد يقارن بين ما يرده من الحقائق الاسلامية من خلال نهج الولاية وما يرده منها من خلال سبل اخرى بعيدة عنا اذ سيرى من الاستقامة والتكامل ووضوح الواقعية الاسلامية مع اتباع ذلك النهج ما لا يكمن ان يراه في أي من هذه السبل الاخرى.

و من هنا كان لمذهب أهل البيت عليهم السلام مزايا ه المعروفة،وخصائصه الفكرية والمنهجية المتكاملة،التي لم يستطع بلوغها مذهب آخر من المذاهب الاسلامية.كما كان لهذا المذهب استقامته الفريدة مع كلمة الرسول الله صلى الله عليه اله والقرآن ومع شواهد الاسلام الأخرى، فلا ادعاء دون أصل،ولاتمحل في فكرة، ولاتفاوت في حكم،وهي مسألة يشهدها كل متتبع لهذه النواحي...كما يشهد بها حتى اولئك الذين ابتعدوا عن علي عليه السلام وحاولوا الاستقلال بأنفسهم في التزامهم بدين الله دون الرجوع اليه،أو أشركوا غيره معه في هذا الالتزام بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد راينا أن عمر بن الخطاب نفسه كان يرى آن قول علي عليه السلام هو من السنة..

ولا اطيل باقتباس مزيد من شواهد هذه المسألة،اذ ما اكثر المواقف التي عمل بها المسلمون بقول علي عليه السلام، بعد أن اوقفتهم الحيرة،وتلك المواقف التي رجعوا فيها الى قوله عليه السلام بعد أن زلت بهم الأقدام ولم يستكنف آيٌّ منهم عن هذا الرجوع بعد آن لمس من نفسه الوقوع في الخطأ،او النكول عن الحق،وعن نهج الاسلام المستقيم.

وناحية اخرى يبرز بها ذك القرب الفطري للولاية وشؤونها،ايضا..

انه توحّد البنية الاسلامية في مذهب أهل البيت عليهم السلام..

ففي هذا المذهب تتكامل أصول الاسلام وفروعه ،وتصوراته وتشريعاته،وتتوحد جميعها في خط موحد المعالم والقضايا،مع العطاء القرآني وسنة الرسول صلى الله عليه واله من جهة،ومع التطلع الذاتي للانسان الى الحق والى دلائله الواضحة في دينه العظيم من جهة اخرى،وهو ما لم يرق اليه مذهب من المذاهب الاسلامية المعروفة سواه.

وفي هذه الولاية أيضاً يتجلى توفيق الله للانسان المؤمن بما يعضده من مدد وهو يستمسك بهذا النور الالهي، ويثبته وهو يستقيم في سبيله، ويعينه على تحمل مسؤولياته الكبرى فيه،مع كل حال وعلى اي صعيد:

" اللهم وال من والاه....وانصر من نصره"....

" مرحوم من صدّقه"

وقد سبق ان لاحظنا عدم اطمئنان القلب في ايمانه بدين الله ذاته،مالم ينطلق فيه الولاية.

كما ان هذا المدد والتثبيت السديد الرباني لحملة راية الولاية من أبناء الاسلام ومخلصيه هو العنصر البارز في مختلف المواقف التي وقفوها حتى في أحلك الظروف،وأشد الأحوال، فلم تهن لهم حجة، ولم تزغ بهم كلمة، ولم يتفاوت لهم قول يمكن للآخرين أن ينفذوا منه الى ذات الولاية،أو الى وضوح كلمتها، أو الى قيام حجة الله فيها،مع غض النظر عما ينال أشخاصهم من نتائج،اذ نحن لا نتكلم هنا عن الامتحان الالهي لحملة الحق،ولا نتكلم عن مدى نجاحهم أو فشلهم في هذا الامتحان، ولا نتكلم عن مدى قوة أو ضعف ايمان كل منهم، فكل هذا مما لا يمس حديثنا من قريب أو بعيد.فان ما يعنينا هنا هو اثر تلك المواقف على ذات الولاية واتمام كلمة الله فيها.

اذ بينما تتأثر مختلف المذاهب – الاسلامية منها وغير الاسلامية- بمواقف المخلصين من أتباعها ومريديها وكلماتهم ومعالجاتهم للامور سلباً أو ايجاباً،فان الولاية- مثلها مثل الرسالة المحمدية التي اعتمدتها- أرفع من أن تتأثر بموقف أحد، دون ذويها الذين ارتضاهم الله لها، وان كانت هي في نفسها مدداً من القوة الالهية والروح الرابنية والعطاء الاسلامي تمد كل كلمة من كلمات مخلصيها،وكل موقف من مواقفهم بالقوة والروح والعطاء.

وما يذكره التأريخ لأولئك المؤمنين بالولاية من مناظرات ومواقف كلها شواهد قريبة على هذه الرعاية والتسديد الربانيين،ولعل في مواقف حجر بن عدي ورشيد الهجري وسعيد بن جُبير وغيرهم من حملة الولاية الأوائل خير غناء لمن يريد الاطلاع على هذه الناحية.

اما حين تهن القوة في أحد أولئك المريدين،وتضعف لديه الكلمة لسبب من الأسباب، فان الفشل الذي يصاب به انما يقتصر عليه وحده،اذ سيتبين له هو- قبل غيره من الناس- ان هناك خللاً في اخلاصه للولاية او انحرافاً عن نهجها،او زيغا عن هداها فيما قال او فعل،لتبقى هي- كما تبقى رسالة محمد صلى الله عليه واله التي التزمها بعيدة عن اي سلبية وقع فيها، سامية على أي فشل أصيب به.

عصمة الولاية من الناس

أما عصمة الله تعالى لولاية علي (عليه السلام) من الناس،وتعهده للذود عنها،ومنعة أمرها، فهو- وكما قرأنا- صريح قوله تعالى في آية التبليغ:

)والله يعصمك من الناس)(٢١(

فهو تعد رباني لابد من الوفاء به كأكمل ما يمكن الوفاء،لا في الحدود الشخصية الخاصة للرسول(صلى الله عليه واله)، وصيانة حياته من عتوّ بعض العتاة،وتمرد بعض المردة الذين لم يرق لهم اعلان هذه الولاية على الاشهاد، و لا في نفي الريب عن صدقه في هذا الإعلان يوم غدير خم فحسب،و انما عصمته هو،وعصمة رسالته في تشريع هذا المنصب الرفيع من أساس، واسناده لعلي عليه السلام، واعتبارها احد الأركان التي يعتمدها دين الله في وجوده،مع غض النظر عن عامل الزمن أو الظروف أو الأحوال..

وهو عموم يَدل على سياق الآية المباركة نفسه، قبل أي شاهد آخر عليه...

)يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)(٢٢(

فمضافاً إلى ما سبق أن أشرنا إليه في العديد من المواضع من دلالة هذه الآية المباركة على مكانة هذه الولاية في دين الله، ودورها الكبير في قيام صرحه، فان اختيار السياق لكلمة (الرسول) من أسماء النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وصفاته يعني جمع شخص الرسول ورسالته معاً في الخطاب والمسؤوليّات...ثم في هذا التعهد الرباني بالعصمة من الناس أيضاً. فما كان شخص الرسول (صلى الله عليه واله وسلم - (كرسول لله تعالى- ليعصم من الناس لو استطاع اخذ النيل من قدس رسالته،كما لم يكن كيان رسالته كذلك لو أمكن لأحد أن يطال قدس الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بشيء يوهنه أمام البصائر.

ويؤكد هذا ما ورد عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) مستفيضاً في بيان وحدة مابين رسالته هو (صلى الله عليه واله وسلم) وولاية علي (عليه السلام) و أبنائه المنتجبين(عليهم السلام)، و ما بينه هو وبينهم من رابطة وثيقة عنوانها وحدة المنهج والسير والهدف والنتائج كقوله (صلى الله عليه واله و سلم:(

)علي مني وانا من علي) (٢٣(

إضافة إلى ما سبق ان قرأناه في أحاديث وحدة طينتي الرسول (صلى الله عليه واله وسلم (وعلي (عليه السلام) ووحدة شجرتهما،و انهما كانا نوراً بين يدي الله قبل خلق آدم...وغيرهما.

كما يؤكده دعاء الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لعلي (عليه السلام) حينما أعلن ولايته على

الأمة:

))اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.((

فهو دعاء يستحيل أن يُرد فالرسول (صلى الله عليه واله وسلم) أسمى عند الله من أن يرد له دعاء، والولاية اعظم في دينه واجل من أن يتهاون في أمرها ولو بصغير من الأمور.

والواقع أنّ أي ملاحظة لأمر هذه الولاية وخلود حجتها مع الزمن لتؤكد- دون ريب- أن الله سبحانه وفى لرسوله (صلى الله عليه واله وسلم) ما تعهّده له من العصمة، وانّه قد استجاب له دعاءه أكمل استجابته... سواء في إستقامة الولاية ذاتها مع نهج الإسلام ، بل واستقامة الإسلام نفسه بالولاية كما علمنا،أم في العصمة الذاتية لعلي (عليه السلام) و أبنائه المنتجبين،وانتظام حياتهم المطلق مع الحق ودلائله، فلا زيغ ولا إنحراف، ولا خطأ ولا نسيان يمكن أن ينفذ منه المتطاولون على قدس الرسالة أو الرسول)صلى الله عليه واله وسلم)، أم في قيام الحجة الإلهية بهذه الولاية، وذود الله)عزّوجل) عنها نيل النائلين وكيد الكائدين،وإمداده إياها بمختلف عوامل الحياة والاستقامة الأبديين رغم ما بذله الباذلون من جهود،ووضعه الواضعون في مسارها من عبقات وشبهات...

...انّها لرعاية إلهية خاصة، واضحة البرهان،يعلم طبيعتها وخصائصها كل من قرأ في تأريخ الإسلام وعرف شيئاً مما حاولته أيدي الإحن والضغائن من عبث، و اطفاء لأنوار كلمة الله بها...

ضرورة الحسم الالهي

ولكي يتضح لنا بعض ما تعنيه هذه الرعاية لابد من العودة إلى ما لاحظناه من اعتماد البعد الاختياري في الالتزام بدين الله...

فالحكمة الربانية التي انشأت الإنسان، و أفاضت عليه مميزاته وخصائصه وقواه المعروفة،انّما أنزلت الإسلام من أجل الوفاء بحاجته إلى الهدى، وسداد فاقته إلى الإستقامة مع سمة الحق في هذه الحياة من خلال هذه المميزات والخصائص والقوى خاصة .

ولكن وكما لم يعن هذا الإعتماد على الإختيار في قبول أو رفض هذا الدين،انّ النتائج التي سيكسبها الإنسان في كل من الموقفين واحدة،لا يعني كذلك أن هناك ضعفاً في قدرة الله تعالى عن تحقيق ما شاءته حكمته من أمر،فهي قدرة مطلقة مهيمنة يستحيل أن ينالها ضعف وتحدها حدود.

و لا يعني أيضاً ايكال كلمة الله في هذا الدين وحجته إلى الناس، وتفويض أمرها إليهم دون ضمان الهي، بتعهد إتمام نورها، وبلوغ رشدها إلى العباد، فهذا بعض حدود الله وشؤونه الخاصة،ويستحيل

أن يهملها،أو يسلم أمرها إلى أيد غير مأمونة التصرف دون سند من قوته ومنعته سبحانه.

ولهذا فانّ افساح مجال الإختيار للإنسان في أن يقبل أو لا يقبل دين الله تعالى،أو يتمثل أو لا يتمثل بعض حدوده وأحكامه،ولا يعني تمكينه من التطاول على حجته أو اسلام هذه الحجة إليه ،دون سند حافظ من قوّة الله تعالى ومدده .

كلا...أبداً،إذ لابد من التفرقة بين ما هو من شأن الله سبحانه من إتمام نوره وإقامة هداه في هذه الأرض، وما هو من شأن الإنسان في قبول أو رفض هذا الهداى والإستهداء أو عدم الاستهداء بذلك النور...

فحين يوكل هذا الإختيار إلى الإنسان ذاته، بعد اقامة الحجة عليه،لأنه مقتضى حكمة الله سبحانه في انزال دينه. فانّ ذلك الإتمام مما يجب آن تتعده رعاية إلهية خاصة، تحقق لكلمة الله علوها، ولحجته بلوغها،ولا يجوز أن يوكل أمرها إلى أحد سواه ،دون مدد من تلك الرعاية،أو سند يكلؤها من أيدي العبث،و أدران الجهالات ،وشطط الأهواء،فتعالى الله عن العجز،وتعالت كلمته عن القصور.

والقضية بهذه الحدود العامة من المسلمات المعروفة،وقد ايدها الكثير من النصوص الإسلامية، القرآنية منها وغير القرانية... قال تعالى:

)يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون)(٢٤(

)انّ الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الاذلين. كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز)(٢٥(

الى غير هذه الآيات.

من تجليات العناية الربانية لكلمة الله

نعم،لابد من الالتفات هنا إلى أمرين مهمين متداخلين:

احدهما: انّ الموضوع الذي يتحقق به سمو كلمة الله في الإسلام وتمامها إنما هو الإنسان وحياته الفعلية الجارية،إذ الإسلام انّما انزله الله لهدى الإنسان نفسه وكفاية حاجته من النور والرشد، وبلوغ درجات السعادة والكمال، فسمو كلمة الله في دينه القويم انّما يتأتى من خلال سمو شواهدهما من أفراد بني الإنسان أو مجتمعاته الذين يلتزمون نهجه ويتبعون سبيله.

ثانيهما: الطبيعة الاختيارية لدين الله تعالى وبصائره،اذ هو لا يفرض مفاهيمه وحقائقه وأحكامه

على الإنسان من خارج اختياره.

وتداخل كلا الأمرين بما يستوجب اشراك الإنسان في إقامة هذه الكلمة،بما لها من سمو وتمام في واقع حياته شواهد حية، ولو كعنوان لواقعيتها ونبراس اقتداء تستهديه البشرية في حياتها... وهي مسؤولية حملة الايمان في كل جيل....

وفي هذه الحدود يجب أن ترد الرعايات الإلهية التي تكفل العون لحملة الإيمان وهم يمضون في مسؤولياتهم الكبرى تلك، فمنعة الحق وعزة الايمان- رغم كل العوادي والعقبات- ،وتأثير الأهواء - نقطه لا مسامحة فيها ولا تهاون.

وهي قضية واضحة أكدها الإسلام في مختلف دلائله ونصوصه ...

فالله سبحانه هو الضامن لتثبيت الذين آمنو في الحياة الدنيا وفي الآخرة على الحق والهدى،حين يجعلون من الإيمان عنواناً لوجودهم ومواقفعم.

(يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة)(٢٦(

وهو جلّ وعز الكافل لزيادة الذين اهتدوا هدى و ايتائهم تقواهم

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)(٢٧(

وهو مع الذين اتّقوا ومع المحسنين يمدهم بالقوة والمنعة والسداد في الخطى والرشد في الأعمال:

(واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتكن في ضيق مما يمكرون.انّ الله مع الّذين اتقوا والّذين هم محسنون)(٢٨(

وحين يكتسب المؤمن قوته من الإعتماد على الله عزّ وجل وحده فإنّه سيصبح في مأمن حتّى من الشيطان ومكره وخدعه، اذ لا سلطان له عليه حينئذ ولا تأثير.

(فاذا قرأت القران فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.انّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.انّما سلطانه على الّذين يتولونه والّذين هم به مشركون)(٢٩(

وهو المتعهد بنصرة من ينصره ويحمل راية الهدى والنور،حسب طاقته وقدرته.

(اننا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الاشهاد)(٣٠(

(ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقوي عزيز)(٣١(

ولا ننسى- بهذا الصدد- ما لكلمة الإسلام ذاتها من قرب للفطرة الإنسانية، واعماق جبلّتها اذ هي - بهذا القرب- تكتسب من القوة و المنعة الذاتية مالا تناله كلمة أخرى كما سبق أن علمنا، وقد تتجاوز

الرعاية الإلهية الحدود الطبيعية للإنسان .

والنقطة المشتركة في المجالي السابقة من رعاية الله سبحانه لكلمته: انّها تجري - في الغالب -ضمن حدود طبيعة الانسان، وقابليته الاختيارية في الاستقامة مع الهدى، و امداده بالقوة الذاتية أو الصمود على حمل مشعل أنواره، وظهوره على المناوئين في الصراع ليستطيع الوفاء بمسؤوليته-ضمن الحدود التي ذكرناها- في اتمام كلمة الله في حياته وسموها في واقعة دون وهن أو ضعف.

اما حيث تقصير الحدود الذاتية للانسان عن القيام بهذه المهمة،ولو مع هذه الامدادات ذات الصبغة الطبيعية اما لعدم توفر الموضع الكافي من حملة الإيمان لهذا القيام، و اما لعدم مناسبة الظروف الاجتماعية له، واما لوجود شبهة تمنع بصائر الناس عن إدراك الحق في المواقف والتعامل معه،أو لغير هذه من الأسباب. أقول:..امّا حيث تقصر حدود الإنسان عن القيام بهذه المهمة،فانّ لحكمة الله سبحانه سبلها الخاصة في تحقيق غايتها كافة، وان تجاوزت هذه السبل تلك الحدود الطبيعية للإنسان.واستوجبت المباشرة في التدخل الإلهي الحاسم لإتمام نور الحق وإقامة حجته، وقطع يد الباطل عن أن تنال بعض مبتغياتها من كمال ذلك النور أو تطال شيئاً من سمو تلك الكلمة .

فقد قلنا: انّ هذا الحسم شأن الهي خاص، يقتضيه الحق ذاته،ويستحيل أن يوكل الأمر فيه إلى غير الله تعالى دون ضمان منه.

ولا يقف هذا التدخل الإلهي المباشر عند نموذج واحد فقط ، ولا في صعيد خاص، ولا في حدود موضوعية فحسب، و انّما هو يجري في موارده حسب مقتضيات الحكمة، وما تتطلبه ضروراتها في أي حد وفي أي شكل وأي صعيد....

ولهذا فهو قد يبرز كمؤيد رباني لدعوى القيّم على الحق في ارتباط كلمته بالله تعالى واصطفائه له، حيث تحتاج العقول إلى ما يثبت هذه الدعوى وصدقها دون أدنى ريب.

وفي هذا النوع تندرج معاجز الرسل ولأنبياء والأوصياء في دعواهم الأولى من الإصطفاء الإلهي وسفارتهم عن الله تعالى. كما تندرج فيها اشراقتهم الخارقة على النفوس، والسبل التي يمتلكونها في انفاذ كلمة الحق اليها دون عناء. وهي رعاية إلهية لابد منها لإثبات صدق هؤلاء الأصفياء (عليهم السلام) دون أي ريب يمكن أن يعتري النفوس، وثم في مضيهم لتحقيق ما اسند اليهم من مهمات،فبهذه الرعاية تتم لكلمة الله تعالى عزتها ومنعتها واستقامتها نحو غاياتها، دون وهن أو اختلاف.

وفي هذا النوع كذلك يجري التأييد الخارق للعادة الجارية في اسناد مخلصي كلمة الله في مواقف اقتضت الحكمة نصرهم فيها في حين تضعف قوتهم من تحقيق مثل هذا النصر والغلبة في الموازين الاعتيادية الجارية،كما سجله القرآن في أحداث بدر شاءت حكمة الله تعالى أن تفتح به صحيفة جديدة للإسلام، بينما لم تكتمل للمسلمين- بعد- وسائل القوة والمنعة الكافية لتحقيق مثل هذه العناية التي لم تؤخذ فيها حدود ذلك العصر وحده، و انّما في كل عصور البشرية التي انزل لها هذا الدين،فكان لابد لهم من أمثال هذا التأييد الرباني المباشر،قال تعالى:

)كما أخرجك ربّك من بيتك بالحق وانّ فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انّها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. اذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلاّ بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلاّ من عند الله انّ الله عزيز حكيم. اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام. اذ يوحي ربك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان (32)(..إلى آخر السياق المبارك..

واضح أنّ العناية الربّانية التي حكتها هذه الآيات المباركة والآيات التي بعدها من السياق، قد مازجت بين النوع السابق من تجلياتها كتغشية النعاس للمؤمنين، وانزال الماء من السماء .والربط على القلوب،وهذا النوع الخارق للعادة كإنزال ألف من الملائكة المردفين،حيث كانت طبيعة الموقف تقتضي تواتر هذه العنايات وتكاملها لقصور الظروف الطبيعية الموجودة عن تمكين المؤمنين من تحقيق ذلك النصر المبين دون توفر مثل هذا الاسناد الإلهي المباشر،هذا بينما (يريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين.ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون)(٣٣(

فكان من ذلك المزيج المتكامل لرعايات الله تعالى – مع اخلاص حملة الايمان في ذلك اليوم الخالد ، هذا النصر المبين الذي فتح به الله لدينه أبواباً أبدية في قيام الحجة وظهور الأمر ، وتمام الكلمة ، وعزتها ، وقطع دابر الكافرين.

ولا نحاول الإطالة باقتباس مزيد من الشواهد – وهي كثيرة في القران – بعد وضوح المطلوب في الشواهد السابقة.

وقد يبرز هذا التدخل الربّاني المباشر – في حالات أخرى – بشكل يتكفل هو وحده الدور الأكبر في إقامة كلمة الله وإثبات حجته ، وإيضاح برهانه ، حيث يتضاءل الدور الإنساني معه إلى درجة ثانوية في تحقيق تلك العناية ، وهذا النوع من الرعاية الإلهية يرد في موارد تنقطع فيها البصائر عن إدراك معالم الحق إلاّ من هذا السبيل المعجز.

وقد ذكر القرآن بعض أمثلة هذا النوع أيضاً، كما حدث ليوسف (عيله السلام) حين برّأه الله من دواني الأخلاق وموهنات الأعمال كما قال تعالى:

)وراودته التي هو في بيتها عن نفسها وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انّه ربي أحسن مثواي انّه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن راى برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من اراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني عن نفسها وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قدّ من قُبلٍ قصدقت وهو من الكاذبين . وان كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلمّا راى قميصه قدّ من دبر قال انّه من كيدكن انّ كيدكنّ عظيم)(٣٤).

وكما هو الشأن ايضاً مع مريم إبنة عمران حينما ولدت عيسى (عليه السلام) وتنقية شرفها وشرف وليدها (عليه السلام) عن ان تلوكه ألسنة السوء وهي تلده لا عن زوج . قال تعالى:

...)فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً. يا أخت هارون ما كان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغياً. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً. قال انّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقياً)(٣٥ . (إلى كثير من هذه الامثلة القرانية.

امّا في السنة فأمثلة هذا النوع والنوعين السابقين من التدخل الالهي والرعاية الربّانية لكلمة الحق هي أكثر من أن تحصى ، سواء في إثبات صدق أحد المصطفين في دعواه لإصطفاء الله تعالى له أم عن ظهر من مظاهر الرسالة التي يحملها أم في الدفاع عن شخصية من شخصياتها.

ومن هذه الأمثلة ما ذكره الحاكم في المستدرك بسنده عن عبد الرحمن بن ابي بكر، قال:

)كان (فلان) يجلس مع النبي (صلى الله عليه واله وسلم) فاذا تكلم النبي بشيء اختلج بوجهه . فقال له النبي (صلى الله عليه واله وسلم) : كن كذلك . فلم يزل يختلج حتى مات)(٣٦.(

وما ذكره ابن سعيد في طبقاته ((ضمن روايته لقصة هجره الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.((

قال : ((وكان خروج رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، فقال (يعني نام القيلوله) يوم الثلاثاء بقديد ، فلما رحلوا منها عرض لهم سراقة بن مالك بن جشعم ، وهو على فرس له ، فدعا عليه الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) فرسخت قوائم فرسه . فقال : يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك . واردّ ما ورائي.

ففعل (صلى الله عليه واله وسلم) ، فاطلق ، ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله)صلى الله عليه واله وسلم) فقال : ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ها هنا وقد عرفتم بصري بالأثر فرجعوا عنه) (٣٧).

إلى قضايا كثيرة اخرى.

وبهذا يتفق حكم العقل بضرورة هذه الرعاية الالهية لكلمة الحق في تجلياتها المختلفة ، مع هذا المأثورات الاسلامية الواردة في موردها.

ضمان الله لعصمة الولاية من الناس

والوعد الذي قطعه الله على نفسه المقدسة بضمان العصمة للرسول (صلى الله واله وسلم) من الناس في إعلانه للولاية يوم غدير خم انّما يرد ضمن هذا الخط أيضاً. فهو تعهد برعايته الخاصة لكلمته في هذه الولاية ووليها العظيم)عليه السلام) ، وإبقاء هذه الكلمة عليا رغم عواتي الزمن ، وعوادي الاحن. والتي ستستمر مع الولاية منذ نزول الامر بها وحتى الزمن الاخير من حياة الانسان على هذه الارض.

فحين امر الله تعالى رسوله الكريم (صلى الله عليه واله وسلم) بإعلان ولاية علي)عليه السلام) على الناس، وحين لبىّ الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) هذا الامر من ربه ، فبلّغها للامة، اصبحت هذه الولاية – ومع غض النظر عن مواقف الناس منها – احدى حقائق الاسلام الكبرى وواحدة من المظاهر البارزة لكلمة الله فيه. وهذا هو المدلول القريب لذلك الاعلان – كما قلنا أكثر من مرة. _

فمن الطبيعي – حينئذ – ان تحصى هذه الولاية برعاية تتناسب ودورها المهم في قيام صرح دينه، وعنايته من الله خاصة تبقيها ابد الدهر سامية الوجود ، بينه الدلائل، قائمة الحجة ، فهي – بعد هذا الالتزام – مما يستحيل ان يهمل ، او يترك هدفاً للاهواء او عرضه لصراع الاراء والمذاهب ، دون

تأييد من الله عزّ وجل وسند من قوته يسمو بها عن أي وهن او خلل ، رغم الظروف والاحوال.

ولا يجدي القول هنا : بأن تضييع امر هذه الولاية انما كان من قبل الناس انفسهم ، بعد اتمام الحجة عليهم في زمن تشريعها كما ضيعوا الكثير من حقائق الاسلام واحكامه ، فلا مانع من ان يوكل امرها اليهم حينئذ بعد ذلك الزمن فان مثل هذا القول انما يصح حيث لا يكون الولاية بمثل هذه الدرجة العظمى التي جعلها الله تعالى لها في دينه القويم ، فهي – كما علمنا – احد الاركان الاساسية في صرح الاسلام ، فعليها تعتمد حقائقه كافة ، وهي اساس مكين لاي حقيقة اسلامية اخرى فهي كالتوحيد والرسالة تماماً في موقها ونتائجها..

)وان لم تفعل فما بلغت رسالته)(٣٨.(

))افهموا محكم القران ولا تتبعوا متشابهه، ولن يفسر ذلك لكم الا من انا آخذ بيده وشائل بعضده((

))اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في علي ((اليوم أكملت لكم دينكم)) بإمامته فمن لم يأتم به وبمن كان من ولدي في صلبه إلى القيامة فاولئك الذين حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون((

لان تضييع أمر الولاية وإهمال شأنها يعني تضييع مختلف الحقائق الاسلامية وشؤونها وهذا مستحيل في حكمة الله تعالى.

والواقع ان ملاحظة الولاية من خلال هذا المنطلق بالذات تجعلها في غنى حتى عن الحاجة إلى هذا التصريح الوارد في الاية الكريمة بضمان العصمة من الناس، فعصمة الله تعالى للاسلام كله وللرسول)صلى الله عليه واله وسلم) خاصة معلومة التحقق في الموازين العقلية ، وفي الدلائل الاسلامية الثابتة ايضا ، منذ أول امر نزل للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في تبليغ رسالته والصدع بها ، حتى اخر كلمة له في حياته (صلى الله عليه واله وسلم) وحتى الايات الواردة بضمان هذه العصمة كثيرة في القران كما قرأناه في مباحث سابقة..

)إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)(٣٩(

)فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)(٤٠(

)واصبر لحكم ربك فإنّك باعيننا..)(٤١(

ولكن أهمية الولاية في دين الله وامتداد الرسالة ذاتها بها ، واستمرار مهماتها في واقع الانسان ، جعل من الضروري ان تسند بمثل هذا الضمان الصريح ، تماما كما كان الامر مع الرسالة والرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في الايات السابقة ومع ان هذا الضمان هو من احكام العقل اليقينية ،

ومن مستلزمات حكمة الله المطلقة ، وكمالها في التشريع والتدبير.

اذ لابد ان نلتفت إلى تأثير الاهواء ومداخل الشيطان ومخارجه بين الناس..

والى موقع الولاية البارز في دين الله ، وهو موقع يجعلها من أوائل اهداف الصراع بعد الرسالة كما هي من اوائل مناصب الاسلام بعدها..

والى طموحات الطامحين بها بعد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، فهي اسمى موقع في كيان الامة بعد الرسالة يستحق ان يبذل فيه الباذلون كل جهد ، وان يرتكب في سبيله المرتكبون كل صعبة..

اذن فالولاية – في علم الله المحيط – هدف لصراع مرير ، ودائم في تأريخ الامة المسلمة لا ينتصر فيه التطاول على خصوص مقام الولاية او وليها فحسب ، وانما قد يمضي التطاول بسببها إلى ذات الرسالة كمصدر انتهت منه الولاية سموها ومهماتها في الحياة وفي دين الله تعالى . وكقاعدة اعتمدتها الولاية في وجودها واستمراريتها بعد الرسول)صلى الله عليه واله وسلم) بل وقد يتناول هذا التطاول قدس الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) نفسه حيث كان هو الصادع بها عن امر ربه ، والمبلغ لاحكامها في دينه.

وحينئذ كان لابد ان يعلن القران بنفسه هذا الاسناد الالهي الخاص للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في ادائه لهذه المهمة الكبرى بالخصوص ، ليقطع السبيل امام تخرصات المتخرصين ، واهواء المنحرفين وليقف بكل منها عند حد يشعرها هي قبل غيرها بأنها اقصر من ان تنال في جهدها مطمعاً من الولاية او الولي (عليه السلام) او الرسالة او الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) رغم كلّ ما يطرأ من مواقف ويستجد من امور وما يمضي من حقب التاريخ.

وليكون هذا الضمان – من ثم – احد مجالي الاعجاز الابدي للقران والرسول (صلى الله عليه واله وسلم) والولاية ذاتها

) والله يعصمك من الناس)(٤٢.(

من دلائل عصمة الله للولاية من الناس

وبالفعل ، فقد واكبت رعاية الله محمداً ورسالته ، والغدير وولايته ووليه المرتضى(عليه السلام) ، وعصمت الجميع من الناس ، منذ اليوم الذي صدع فيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالأمر وحتى اليوم ، ضمن ذلك المستوى الرفيع لتمام كلمة الله سبحانه واستيفائها لشرائط الحق كافة.

والشاهد القريب والملموس لهذه الرعاية هو نفس خلود ولاية علي (عليه السلام) حتى اليوم ، وقيام حجتها واضحة جلية ، كما أمر الله تعالى لها كل هذه الحقب الطويلة من القرون ، ورغم ما تميزت به من مواقف سلبية وصراع مرير مع هذه الولاية ، ومع كل ما ينتمي إليها من قريب أو بعيد .

فهذا هو الغدير ، وها هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وها هي ولايته شواهد إسلامية قائمة في هذا العصر ، كما كانت في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم (، وكما هي في كل عصر اخر ، تملأ كل وعي ، وتنير كل بصيرة ، كأي حقيقة إسلامية كبرى ، ولم تخف منها حجة ولم يقلل منها برهان ، ولم تقصر عن واحدة من شرائط الحق ، رغم كل ما أعدته لها الأهواء من مفازات مهلكة ، ورغم ما وضعه الباطل لدلائلها من معوقات عن الوصول إلى البصائر ، وما استخدمه ضد أنوارها من تعتيم.

وقد سبق أن لاحظنا ما أحصاه صاحب الغدير (قدس سره) في هذا الشأن من شواهد هذا الثبوت مما يعلم معه مدى وضوح هذه الولاية لا في أزماننا المتأخرة فقط ، وانّما في مراحل التأريخ الإسلامي كافة ما سبق منها وما لحق.

ومع أن هذا الخلود والوضوح لم يتجاوز الطبيعة الإنسانية في مثل هذه الأمور ، ولم يعدُ الصيغة المتعارفة بين الناس في نقل الحوادث و الأخبار وأقوال البارزين في المجتمع ، إلا أننا نعلم ما للرعاية الإلهية المباشرة دور في هذا الخلود والموضوع ، حين نلتفت إلى ما أعدته حقب التأريخ المختلفة للغدير ، وللولاية ولصاحبها العظيم) عليه السلام) ولمتوليه كذلك من سبل الاستئصال والفناء ، فهي ـ كما نعلم ـ من أولى النقاط المستهدفة في الصراع ومحاولات الإبادة ، والكبت في مختلف الأصعدة الفكرية والسياسية والاجتماعية ، بل ويمكن القول ـ دون مغالاة ـ بأن الولاية كانت محور معظم ما جرى في تأريخ الإسلام من صراع داخلي مرير.

ومع أن التعرض لهذه الناحية ليس من صلب حديثنا في هذا البحث ، ومع أن شواهدها مما يمكن لأي أحد له اطلاع في تأريخ الأمة المسلمة السياسي والاجتماعي والفكري ، بل وفي مختلف العلوم الإسلامية المعروفة الا اننا واستكمالاً لرؤيتنا إلى مدى العناية الربانية للولاية ووليها العظيم (عليه السلام) ـ نقبس بعض شواهد التأريخ مما استخدمه بعض ذوي النفوذ في مواجهتهما ، كنماذج سريعة ندرك من خلالها تلك الظروف الصعبة التي مرت بها قضيتهما.

يذكر إبن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة نقلاً عن شيخه أبي جعفر الاسكافي قال:

)انّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقضي الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله ، فاختلقوا ما أرضاه .... منهم أبو هريرة ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير...) (٤٣.(

إلى أن يقول : قال ابو جعفر:

)وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الدّ الخصام . واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) (٤٤.(

)وان الاية الثانية نزلت في إبن ملجم وهي قوله تعالى : } ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله { (٤٥.(

)فلم يقبل "سمرة " ، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل وروى ذلك(..

)وقال : وقد صح أن بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام وعاقبوا على ذلك الراوي له ، حتى أن الرجل إذا روى عنه حديثا لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه ، فيقول : عن أبي زينب.

)وروي عطاء عن عبد الله بن شداد بن لهاد قال : (وددت أن أترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب يوماً إلى الليل ، وان عنقي هذه ضربت بالسيف) (٤٦.(

ونقل ابن أبي الحديد أيضاً عن أبي الحسن المدائني في كتابه (الأحداث) انّه قال :

)كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضائل أبي تراب وأهل بيته.

)فقامت الخطباء من كل كورة ، وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ، لكثرة من بها من شيعة علي ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة ، فكان يتتبع الشيعة ـ وهو بهم عارف ، لانه كان منهم أيام علي (عليه السلام) ـ فقتلهم تحت كل شجر ومدر ، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون ، وصلبهم على

جذوع النخل ، وطردهم وشردهم من العراق ، فلم يبق بها معروف منهم.

)وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ، الا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

)وكتب اليهم ، أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته ، والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم ، واكتبوا لي بكل مايروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

)ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه اليهم معاوية من الصلات والكساء والجباء والقطائع ، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه ، فلبثوا بذلك حيناً.

)ثم كتب معاوية إلى عماله : ان الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر ، وفي كل وجه وناحية ، فاذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب الا وتأتوني بمناقض له في الصحابة . فان ذلك أحب اليّ وأقر لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته ، وأشد عليهم في مناقب عثمان وفضله.

)فقُرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى ، حتى شادوا بذكر ذلك على المنابر ، والقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع ، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونسائهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحده إلى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان ، واسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع بذلك نسخة أخرى ، من اتهمتموه بمولاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره.

)فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ، ولا سيما بالكوفة ، حتى أن الرجل من شيعة علي ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه.

)فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء والمراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون

الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل ، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ، فقلبوها ورووها ، وهم يظنون انها حق ، ولو علموا انها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها.

فلم يزل المر كذلك ، حتى مات الحسن بن علي (عليه السلام) فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل الا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض.

)ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين (عليه السلام) ، وولي عبد الملك بن مروان ، فاشتد على الشيعة ولي عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي ، وموالاة أعدائه ، وموالاة من يدعي من الناس انّهم اعداؤه ، فاكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من البغض من علي (عليه السلام (وعيبه والطعن عليه ، والشنآن له ، حتى أن انساناً وقف للحجاج ، ويقول : أنه جدّ الأصمعي عبد الملك من قريب ـ فصاح به : أيها الأمير ، انّ أهلي عقوني فسموني علياً ، وأني فقير بائس ، وأني إلى صلة الأمير محتاج (فتضاحك الحجاج وقال : للطف ما توسلت به فقد وليتك موضع كذا ...) (٤٧.(

وروى المقري:

)كان بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه . فبلغ ذلك رباحاً فقال : هو ـ يعني ولده ـ عُليّ ـ بالتصغير ـ وكان يغضب على من سماه به.

)كما روى ابن حجر في تهذيب التهذيب : انّ علي بن رباح قال : لا أجعل في حل من سماني علي ، فان اسمي علي ـ بالتصغير ـ) (٤٨.(

ويحدث أبو حنيفة (إمام المذهب المعروف بإسمه) قصة حدثت له عندما دعاه أحد الأمويين ليسأله عن مسألة فقهية ، قال:

)فاسترجعت في نفسي لأني أقول فيها بقول علي (رضي الله عنه) وأدين الله به فكيف أصنع ؟ ثم عزمت أن أصدقه وأفتيه بالدين الذي أدين الله به ، وذلك ان بني أميه كانوا لا يفتون بقول على ولا يأخذون به ـ إلى أن يقول ـ : وكان علي لا يذكر في ذلك بإسمه ، وكان العلامة بين المشايخ أن يقولوا : قال الشيخ . وكان الحسن البصري يقول فيه : أخبرنا أبو زينب) (٤٩.(

ولم يقتصر هذا الاتجاه المتعادي للولاية على خصوص الدولة الأموية فحسب بل امتدا العداء منها إلى

ما جاء بعدها من عصور ودول أيضاً.

فالعباسيون مثلاً ، ومع انهم في بداية أمرهم قد اتخذوا من الولاية والقرابة من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عوناً لهم على تحصيل مآربهم من السلطة ، ولكنهم ما ان استتب لهم الأمر، الا وقد انتهجوا نفس المسلك في التعرض للولاية ولأصفيائها المنتجبين (عليهم السلام)، وشيعتهم وتتبعهم تحت كل حجر ومدر ، واستئصالهم ، ومنع الناس من التحدث في مناقبهم أو رواية ما قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم (فيهم ، وافتعال أحاديث في مقابلهم وهكذا.

وقضايا هذا العداء أيضاً لها شهرتها في كتب التأريخ عامة حيث يمكن لأي متتبع أن يراها دون عناء اما نحن فيكفينا ان نقرأ من نماذجه ما ذكره الطبري في تأريخه اذ قال :

)لما عزم المنصور على الحج دعا ربطة بنت أبي العباس أمرأة المهدي ـ وكان المهدي بالري قبل شخوص أبي جعفر فأوصاها بما أراد ، وعهد اليها مفاتيح الخزائن ، وتقدم اليها وأحلفها ووكد الايمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن ، ولا تطلع عليها أحداً ، لا المهدي ولا هي إلا أن يصح عنده موته ، فاذا صح ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة.

)فلما قدم من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح ، وأخبرته عن المنصور أنه تقدم اليها أن لا يفتحه ولا يطلع عليه أحداً حتى يصح عند موته.

)فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور ، وولي الخلافة فتح الباب ومعه ربطة فاذا زجّ كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين ، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ، واذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشائخ عدة كثيرة) (٥٠.(

ونموذج آخر يرويه ابن حجر في كتابه (تهذيب التهذيب) قال:

)عن عبد الله بن أحمد : لما حدث نصر بن علي بهذا الحديث ـ يعني حديث علي بن أبي طالب ـ : انّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخذ بيد حسن وحسين فقال : " من أحب هذين وأباهما وأمهما كان في درجتي يوم القيامة."

أمر المتوكل بضربه ألف سوط ، فكلمه فيه جعفر بن عبد الواحد ، وجعل يقول له : إن هذا من أهل السنة ، فلم يزل به حتى تركه (٥١.(

التاريخ والولاية

هذه أمثلة قليلة مما يذكره التأريخ من مواقف حقب معروفة في تاريخ الإسلام.

ولا نطيل في اقتباس أمثلة أخرى ، ففيما ذكرناه كفاية في الدلالة على المقصود..

ويجدر بنا أن نلفت إلى أن هذا التأريخ نفسه قد كتب بنفس تلك الأيدي التي جانبت علياً وابناءه عليهم السلام ، و ولايتهم ، بل وكانت بعضها ممن ناصبهم العداء ، فطبيعي أن لا يهتم التاريخ بذكر الحقائق التي لا ترتضيها تلك الأيدي ، ولئن فرضت بعض الحقائق نفسها عليه لشهرتها ووضوحها ، فطبيعي أن يكون ذكره لها بشكل لا ينال من بريق تلك الصورة التي يضعها لأوليائه وقادة خطه المعادي لعلي وأبنائه عليهم السلام و ولايتهم ، وهو أقل ما يمكن أن يقال حول التاريخ في هذه الناحية.

ولكن لأبي جعفر الاسكافي كلمة صادقة يذكرها عنه تلميذه ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة بعد نقله ما تقدم أن اقتبسناه عنه قال :

)فالأحاديث الواردة في فضله ـ يعني علياً ـ لو لم تكن في الشهرة والإستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة لا نقطع نقلها للخوف والتقية من بني مروان ، مع طول المدة وشدة العداوة ، ولو لا أن لله تعالى في هذا الرجل سراً يعلمه من يعلمه ولو يرو في فضله حديث ، ولا عرفت له منقبة ، ألا ترى أن رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها ومنع الناس أن يذكروه بخير وصلاح لخمل ذكره ونسي اسمه ، وصار ـ وهو موجود ـ معدوماً وهو حي ـ ميتاً) (٥٢.(

نعم ، صدق أبو جعفر الاسكافي ، فلو لا أن لله في علي عليه السلام سراً يعلمه من يعلمه لم يرو في فضله حديث ، ولا عرفت له منقبة ، ولكن ، وبالرغم من جميع تلك الجهود التي بذلت لطمس معالم الحق في علي عليه السلام وولايته وبالرغم مما استعمله الحاقدون ضدهما من تعتيم وكبت ، واستئصال لهما ، ولكل ما يمت اليهما بصلة.

..بالرغم من كل هذا بقي علي عليه السلام وبقيت ولايته ، وبقي غدير خم ، وبقيت كلمة الله العليا فيه مشعلاً أبدياً في دينه القويم ، وسناء خالداً في حجته الواضحة وبرهانه الثابت.

وما كان بعض هذا الخلود ليتحقق لو لا تلك الرعاية الإلهية المباشرة للولاية والضمان الرباني لإستقامة دين الله فيها ، وتعهده بعصمتها من الناس...

))والله يعصمك من الناس)) (٥٣.(

الحسم الإلهي والولاية

ولا تقف هذه الرعاية الربانية لولاية علي عليه السلام عند تهيئة الأسباب الطبيعية لخلودها ، وبيان عظمة صاحبها فقط وفرض كل منها على الحياة الانسانية في مختلف مجالاتها من خلال ما تعاهده الناس في نقل الكلمات والوقائع التاريخية فحسب.

فقد قلنا : ان هذا النوع من مظاهر رعاية الله سبحانه انما تأتي في الموارد التي يمكن التحفظ فيها على إبقاء كلمة الله عليا كما هي ، وسامية الموقع والدلائل كما أراد الله تعالى لها . فلا تحتاج لأن يبلغ معها هذا التدخل الرباني المباشر إلى أكثر من فرضها على تلك الإتجاهات العامة في المعرفة ، وتنظيم مختلف نواميس الحياة وقوانينها بشكل يضمن ذلك السمو والرفعة لكلمة الله.

اما حيث تقصر هذه النواميس والسنن الطبيعية والإنسانية ذاتها عن أن تفي لكلمة الله تعالى تلك الدرجة من السمو والوضوح ، فطبيعي أن تنال ولاية علي عليه السلام ما تناله أي حقيقة إسلامية كبرى أخرى في مثل هذه الحال ، اذ لابد أن يتخذ التدخل الإلهي حينئذ مشارب أخرى ، خارجة عن تلك النواميس والسنن في إحقاق الحق وازهاق الباطل.

اذ يلحظ أن الأدوار والمواقف التي جرت بها هذه الولاية ، ولا سيما في موارد صراعها الحاد والطويل مع الباطل لم تكن كلها مما يمكن لتلك الاتجاهات المتعارضة في المعرفة أن تحقق لها الشرائط المعتبرة لكلمة الله فيها ، فهناك مواقف يضعف فيها حملة الحق أن يثبتوا له سمو هذه الكلمة أمام العقول ، أو يحققوا لها وضوح الحجة في البصائر ، كما لو استحكمت الشبهة في الأذهان ، أو كان للباطل شوكته التي قد تعمي العيون عن رؤية منافذ النور وتصم الآذان عن الاستماع إلى صوت الحق.

وحينئذ كان لا بد أن تتخذ حكمة الله تعالى سبل الحسم المباشر في اثبات الحق ، وقطع الريب عن هذا الصرح العظيم ولاسيما في تلك الموارد التي يكون لها حسابها في مسار تأريخ الولاية ، وخلود حجة الله تعالى ووضوحها فيها وإن تجاوزت هذه السبل تلك الحدود الطبيعية المتعارفة من وسائل البيان والإيضاح ، لتستوفي الولاية شرائط الحق كاملة ، بعيداً عن تطاول المتطاولين ، وتقولات المتقولين.

وقد سبق أن قرأنا من أمثلة هذا الحسم قضية جابر بن النضر بن كلدة العبدلي " هذا العنيد الذي جاء إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بعد أن صدع (صلى الله عليه وآله وسلم) بولاية على عليه السلام في يوم الغدير ـ فقال : (يا محمد ؛ أمرتنا من الله أن نشهد أن لا اله الا الله ، وأنك رسول الله ، وبالصلاة والصوم والحج والزكاة فقبلنا منك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضع ابن عمك

ففضلته علينا ، وقلت : (من كنت مولاه فعلي مولاه) فهذا شيء منك أم من الله ؟

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : والله الذي لا إله إلا هو انّ هذا من الله. "

وهذا هو قمة ما تتطلبه الحدود الطبيعية في الإنسان الاعتيادي المتطلع إلى الحق ليؤمن كأقوى وأسمى ما يمكن الايمان.

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سيد الرسل (عليه السلام) الذي لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول عن الله تعالى ما لم يأمره بقوله .. وخاتم الأنبياء الذي زودته العناية الربانية بكل شواهد التصديق ، ودلائله التي ترفع ـ والحق يقال ـ أي ريب من النفوس السليمة بصحة ما يقول عن الله تعالى..

محمد هذا هم الذي يخبر بأن ما قاله يوم الغدير وما فعله انما كان من عند الله تعالى وحده ، فهو الذي أنزل عليه هذه الولاية ، وهو الذي أوجب عليه تبليغ ما أنزل عليه فيها ، بل وهو الصادق الأمين ـ يؤكد هذا بيمين ما بعده يمين : " والله الذي لا إله إلا هو ان هذا من الله. "

ولكن حيث تعمى البصائر عن إدراك منابع النور ، وحيث ترتكس الرؤوس إلى الهاوية ، وحين تشاء أهواء بعض الناس أن تخرج بهم حتى عن مفهوم الإنسانية ذاته ، فطبيعي أن يتخذ اللطف الالهي بالعباد منهج الحسم المباشر سبيلاً يقطع به دابر كل فتنه ، ويزيح به عن الأبصار كل غاشية ، ويزيل عن البصائر كل ريب ، فالله تعالى يعلم ما لذلك الموقف من أثر في النفوس ، ومواقفها من الولاية ، بل والرسالة ذاتها لا في حدود أولئك الشهود للحادث فحسب ، وانما لدى كل من يبلغه موقف الغدير على أمتداد التاريخ الاسلامي وحتى الأبد.

وهكذا فما أن ولي هذا العنيد يريد راحلته وهو يقول " اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم"

"فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره. "

وهناك الكثير من المواقف الأخرى التي يرويها التأريخ مما كان للتدخل الإلهي فيه حسمه المباشر في نصرة الولاية وإقامة حجتها..

ويمكننا أن نشير هنا إلى ما جرى في يوم الرحبة حيث استشهد علي عليه السلام بعض من حضر لديه من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن إعلانه (صلى الله عليه وآله وسلم) لولايته يوم غدير خم ، ونكران بعضهم لعلمهم بهذا الإعلان ، أو نسيانهم إياه وهم كاذبون.

اذ يروى زر بن حبيش قال (خرج علي من القصر ، فاستقبله ركبان متقلدي السيوف ، وعليهم العمائم حديثي عهد بسفر فقالوا:

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .. السلام عليك يا مولانا.

فقال علي ـ بعد ما ردّ السلام ـ : من ها هنا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم. (فقام اثنا عشر رجلاً منهم خالد بن زيد (أبو ايوب الانصاري) ، وخزيمة بن ثابت (ذو الشهادتين) ، وقيس بن ثابت بن شماس ، وعمار بن ياسر ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وحبيب بن بديل بن ورقاء ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله)صلى الله عليه وآله وسلم) يوم غدير خم يقول : (من كنت مولاه فعلي مولاه (الحديث.

فقال علي لأنس بن مالك والبراء بن عازب : ما منعكما أن تقوما فتشهدوا ، فقد سمعتما كما سمع القوم ؟

فقال : اللهم إن كانا كتماها معاندة فابلهما.

فامّا البراء فعمي ، فكان يسأل عن منزله فيقول : كيف يرشد من أدركته الدعوة ؟

وامّا أنسفقد برصت قدماه.

وقيل : لما استشهده علي (عليه السلام) قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : (من كنت مولاه فعلي مولاه) ، فاعتذر بالنسيان فقال عليه السلام : اللهم إن كان كاذباً فاضربه ببياض لا تواريه العمامة.

فبرص وجهه فسدل بعد ذلك برقعاً على وجهه) (٥٤.(

ومناشدة أخرى يرويها أبن أبي الحديد عن أبي اسرائيل بسنده (انّ علياً نشد الناس من سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : " من كنت مولاه فعلي مولاه " فشهد له قوم وأمسك زيد بن أرقم فلم يشهد ـ وكان يعلمها ـ فدعا علي عليه السلام عليه بذهاب البصر ، فكان يحدث الناس بالحديث بعدما كفّ بصره) (٥٥.(

وقد روى جمع كثير من المؤرخين هذه المناشدات كابن قتيبه والبلاذري وابن عساكر وغيره(٥٦.(ولا يقتصر الحسم الرباني في نصرة الولاية ووليها العظيم عليه السلام عند هذه الحدود فحسب ، بل هو قد يمضي معهما إلى تاييد المنتصر لهما وإن لم يكن ضمن خط العصمة حين تقتضي الحاجة إلى مثل هذا التأييد ، كالموقف الذي الذي يرويه الحاكم في المستدرك بسنده عن قيس بن أبي حازم قال:

)كنت بالمدينة فبينما أنا أطوف ي السوق إذ بلغت أحجار الزيت ، فرأيت قوماً مجتمعين على فارس قد ركب دابته وهو يشتم علي بن أبي طالب عليه السلام ، والناس وقوف حواليه ، إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليهم فقال : ما هذا ؟

فقالوا: رجل يشتم علي بن أبي طالب.

فتقدم سعد فا فرجوا له حتى وقف عليه فقال:

يا هذا على مَ تشتم علي بن أبي طالب ؟ ألم يكن أول من أسلم ؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله ؟ ألم يكن أزهد الناس ؟ ألم يكن أعلم الناس ؟ وذكر حتى قال : ألم يكن ختن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على أبنته ؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم) في غزواته ؟

ثم أستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم انّ هذا يشتم ولياً من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك.

قال قيس : فو الله ما تفرقنا حتى ساخت دابته ، فرمته على هامته في تلك الصخور فانفلق دماغه)

).٥٧(

وهناك الكثير من الحوادث التي يرويها المؤرخون وأصحاب السنن . إلا اننا نقف عند هذا القدر من الروايات ، ففيه كفاية في بيان ما تعنيه العصمة الإلهية للولاية من الناس واتخاذها مختلف السبل الطبيعية وغير الطبيعية من أجل خلود حجتها وتمام كلمتها مع الزمن.

كما نقف عند هذا الحد من تجليات الرعاية الإلهية لهذا المنصب الإسلامي العظيم ، والركيزة الإسلامية المكينة ، والتعهد الرباني الذي ضمن لهذه الولاية استيعابها لشرائط الحق كافة وإثبات سموها مع الزمن ، وقيام صرحها في الحياة البشرية.

الهوامش:

- 1المائدة : ٦٧.

- 2المائدة: ٣.

- 3المائدة : ٣.

- 4سنن البيهقي ج ٧ ص ٤٤٢.

- 5احقاق الحق ج ٨ ص ٣٨ عن كتاب (در بحر مناقب.(

- 6مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١١٢.

- 7الغدير ج ٢ ص ١٠٢- ١٠٥.

- 8الغدير ج ٢ ص ١٠٦ عن كتاب (لطائف اخبار الدول.(

- 9الانعام : ٤٨.

- 10الحديد: ٢٥.

- 11المؤمنون: ٧٦.

- 12ابراهيم : ٧.

- 13الاحزب: ٤٥.

- 14النور: ٤٥.

- 15البقرة: ٢٥٦- ٢٥٧.

- 16الروم : ٣٠.

- 17البقرة : ١٣٨.

- 18ابراهيم: ٢٧.

- 19محمد : ١٧.

- 20العنكبوت:٦٩.

- 21المائدة:٦٧.

- 22المائدة:٦٧.

- 23يراجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) ج ١ ص ٣٣٧- ٣٤٤ لمعرفة مصادر هذا الكلمة.

- 24الصف: ٨- ٩.

- 25المجادلة : ٢٠.

- 26ابراهيم : ٢٧.

- 27مريم : ٧٦.

- 28النحل : ١٢٧- ١٢٨.

- 29النحل : ٩٨ – ١٠٠.

- 30غافر: ٥١.

- 31الحج: ٤٠.

- 32الانفال : ٥- ١٢.

- 33الانفال :٧- ٨.

- 34يوسف : ٢٣- ٢٨.

- 35مريم : ٢٧ – ٣٢.

- 36المستدرك على الصحيحين: ج٢ ص ٦٢.

- 37الطبقات الكبرى لابن سعد : ج١ ص ١٣٢ط بيروت : ١٣٨ – ١٩٦٠.

- 38المائدة : ٦٧.

- 39الحجر : ٩.

- 40البقرة : ١٣٧.

- 41الطور : ٤٨.

- 42المائدة : ٦٧.

43- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ج ٤ ، ص٦٣ - سنة ١٩٥٩ - ن دار احياء الكتب العربية ،مصر

44- البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٥.

45- البقرة : ٢١٧.

46- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ، ص ٧٢-٧٣.

47- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١١ ، ص ٤٤ - ٤٦.

48- تهذيب التهذيب : ج ٧ - ص ١١٩.

49- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة - أسد حيدر : ص ٧٩ - ٨٠ ، ج ٢ . ط الأولى \ النجف عن مناقب أبي حنيفة للمكي ج ١ ، ص٧١.

50- تاريخ الطبري ج ٦ ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ . ط ٢ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة سنة ١٣٥٨.

51- تهذيب التهذيب : ج ١٠ ، ص ٤٣٠.

52- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ٤ ، ص ٧٣.

53- المائدة : ٦٧.

54- الغدير : ج ١ ، ص ١٧٥ ، عن كتاب (الاربعين) لجمال الدين عطاء الله بن فضل الشيرازي ع ١ ، ص ٢١١ ، وع ٢ ص ١٣٧.

55- شرح نهج البلاغة ج١ ص ٣٦٢ ، ط الأولى (عن الغدير ج ١ ص ١٥٣.)

56- يراجع لمعرفة مصادر هذه المناشدات كتاب (الغدير) ج ١ ، ص ١٥٣ـ ١٧٩.

57- المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ، ص ٥٠٠.

الباب الثالث

علي مع الحق والحق مع علي

الحق وشخصية المرتضى

من المستلزمات الأساسية لاستيعاب الولاية لشرائط الحق :استقامة هذه الشرائط في الشخص الذي تنتجبه العناية الربانية لها . أو لا بد أن تصبح بدورها بعض المقومات الأولية لشخصية الولي نفسها ، وما تستوعبه هذه الشخصية من مدارك وطاقات واتجاهات ، وما يصدر منها من المواقف وأنواع السلوك ، دون أدنى وهن أو قصور ، وإلا قصر هذا الشخص عن الوفاء بمهماته الكبرى في منصبه الرفيع ، أو قصرت الولاية ذاتها عن تحقيق الغايات الربانية فيها ، وكلا الفرضين مما يستحيل تصوره بعد فرض انّ كلاً من تشريع الولاية ، واصطفاء الولي لها هو من الله سبحانه ، إذ لا تفاوت في حكمته تعالى ولا عجز في قدرته.

ولأن الإنسان في واقعه ـ أعجز من أن يرتفع بمفرده إلى مستوى تلك الشرائط العليا، فمن الطبيعي حينئذ أن تكون الرعاية الإلهية تلك هي الضامنة لتحقيقها في شخصية المرتضى ، بنفس المستوى الذي تستوجبه آفاق الولاية ومهماتها في دين الله تعالى وفي حياة الإنسان معاً.

فالرعاية الإلهية في التكوين الذاتي لشخصية المرتضى ـ تعني بناء هذا التكوين نفسه على أساس واحد ، هو الإسلام المطلق لله جل شأنه ، والانقياد التام لأمره ونهيه ، والتوجه إليه في كل صغيرة وكبيرة في حياته.

فلا مجال في هذا التكوين لغير الله تعالى ، ولا خضوع منه لغير دينه ، ولا مظهر فيه غلا ما يستقيم مع حقائقه وما تدل عليه هذه الحقائق من معاني الحق ، ومعالمه ، وحجته .

فقد سبق أن علمنا انّ الحق هو القيمة المطلقة في دين الله تعالى ، وعليه تتمحور جميع أهدافه في حياة الإنسان ، فهو المنطلق الذي يعتمده كل أفق من آفاقه ، وكل شأن من شؤونه . فطبيعي أن يكون الركن الاساس في بناء أي شخصية من شخصياته المنتجبة أيضاً فكيان الاسلام ـ كما علمنا ـ كيان حيوي الطبيعة متكامل الادوار والمواقع ، فمن المستحيل أن يستكمل صبغة الحق مع أدنى خلل في شمول هذه الصبغة لحقائقه كافة كما هو واضح ـ وترد النصوص الإسلامية لتؤيد هذه الحقيقة العقلية الواضحة ، وسنقرأ ـ إن شاء الله تعالى ـ بعضها في مباحث لا حقه.

الحق وعلي (عليه السلام(

اما في علي عليه السلام خاصة ـ حيث موضوع الحديث ـ فان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أكد هذه القاعدة الثابتة من شخصيته العظيمة صراحة ـ في دعائه إلى الله سبحانه بعد إعلانه لولايته (يوم غدير خم: (

"و أدر الحق معه حيث دار " (١.(

كما أقرها في مواقف أخرى أثرت عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر أئمة الحديث قسماً منها..

كما في حديث أم سلمة (رضي الله عنها) ، زوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم (قالت :

سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:

)علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة) (٢.(

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً :

)رحم الله علياً ، اللهم أدر الحق معه حيث دار) (٣.(

وأخرج الهيثمي في (مجمع الزوائد) عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال وقد مر عليه علي بن أبي طالب:

)الحق مع ذا ، الحق مع ذا) (٤.(

كما أخرج عن محمد بن أبراهيم التميمي : (ان فلاناً دخل المدينة حاجاً ، فأتاه الناس يسلمون عليه فدخل سعد فسلم فقال : وهذا لم يعنا على حقنا على باطل غيرنا.

قال : فسكت . فقال : ما لك لا تتكلم ؟

فقال ك هاجت فتنة وظلمة ن فقال لبعيري : إخ إخ ، فانحنت حتى انجلت.

فقال رجل : إني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فلم أر فيه إخ إخ.

فقال : أما إذا قلت ، فاني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : "علي مع الحق ، أو الحق مع علي حيث كان. "

قال : من سمع ذلك ؟ . قال : قاله في بيت أم سلمه.

قال : فأرسل إلى أم سلمه فسألها . فقالت : قد قاله رسول الله في بيتي.

فقال الرجل لسعد : ما كنت عندي ألوم منك الآن . فقال : ولم ؟.

قال : لو سمعت هذا من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم أزل خادماً لعلي حتى أموت) (٥.(

وعقب صاحب كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) على الحديث قائلاً بعد روايته له :

)كلمة " إخ إخ " ـ بكسر الهمزة وسكون الخاء المعجمة ـ صوت إناخة الجمل.

والظاهر ان في الحديث سقطاً ، والصحيح (فقال الله لبعيري : إخ إخ فأناخت(

وذلك بشهادة الرجل : اني قرأت كتاب الله . ثم ان المراد من (فلان) في صدر الحديث هو معاوية بن أبي سفيان ومقصوده من عدم اعانة سعد على حقه : عدم نصرته له يوم صفين ، لأنه كان منعزلاً عن الطرفين) (٦.(

إلى روايات عديدة اخرى وردت في هذا المضمون.

وواضح ـ ولاسيما ـ بعد ما سبقت ملاحظته من النتائج ـ ان هذه الاحاديث وأشباهها انما وردت لتأكيد استقامة الإسلام ، وشرائط الحق فيه في هذه الشخصية العظيمة ، بعد تحقق الاصطفاء الإلهي لها..

فقد قلنا : انّ هذا العنصر هو الأساس الذي بني عليه دين الله تعالى نفسه وأقيمت عليه دعائمه ، فمن الطبيعي أن لا تقصر عنه ، أو عن شيء من شرائطه ومميزاته شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام ، بعد أن أصبحت واحدة من تلك الحقائق ، بل ومصدراً من مصادرها ، تماماً كما كان الأمر مع

شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث انتجبته العناية الربانية لحمل مسؤوليات الرسالة قبل ولاية علي عليه السلام.

وهكذا كان لابد أن يتجلى عنصر الحق في هذه الشخصية ، كما يتجلى في غيرها من حقائق الإسلام ، ولابد أن تستوعب شرائطه وخصائصه كل آفاقها وأبعادها ومكوناتها دون استثناء أو قصور والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أقواله السابقة انما يؤكد هذه النتيجة الإسلامية الواضحة.

استقامة الحق في أصفيائه

ولفهم ما تعنيه رعاية الله سبحانه لشخصية المرتضى في هذه الناحية ، نعود مرة أخرى إلى النقطة التي انطلقنا منها في هذا البحث ... إلى التزام الإسلام لعنصر الحق أساساً له في وجوده وحقائقه كافة...

اذ قلنا : ان هذا العنصر ـ في عالم المذاهب والأديان خاصة ـ يعني مطابقة الدين أو المذهب لمقتضيات حكمة الله تعالى في خلقه للإنسان ، وتهيئته لتسنّم دور خاص بين مخلوقات هذا الكون ، وتوفير مختلف السبل والوسائل التي يحتاجها لتحقيق هذا الدور .. سواء في تكوينه الذاتي أم في قدرته على التصرف فيما حوله من الموجودات.

فهذه المطابقة تعني أن مذهب الحق لا يملي على الإنسان ولا يشرع له من التصورات أو الأحكام إلا ما يستقيم مع تلك المقتضيات ، ويحقق أهدافها فيه ، دون أدنى قصور أو انحراف.

بمعنى إن الإنسان ـ في واقعه الذي فطره الله عليه ، وجبله في أصل تكوينه ـ هو موضوع الإسلام ، وموضوع كل حكم من أحكامه ، وكل منهج يحتويه.

وفي المقابل فان مذهب الحق هو المنهج الذي يوفي لفطرة الإنسان حاجاتها ومتطلباتها في الحياة والسلوك ، لكي يبلغ بمسعاه في الحياة إلى تحقيق ما خلقه الله له وأراده لذاته من كمال أعلى ينبت عليه أوليات وجوده ، وأصول تكوينه الذاتي وأقام عليه مختلف اتجاهاته الفطرية العميقة في السلوك والتفكير.

فهناك وحدة واقعية تجمع بين الاتجاهات العامة لمظاهر التكوين كافة والإنسان ومذهب الحق . وهناك ترابط وثيق بينها جميعاً ، منشأه وحدة الحكمة الإلهية التي خلقت الكون ، وبرأت الإنسان ، كمظهر متميز من مظاهره ، ثم شرعت الإسلام ديناً له يوفي له حاجته من الكمال ويهيئ جميع ما يفتقر إليه

من السبل المستقيمة لبلوغ مقتضيات تلك الحكمة في خلقه دون أجنى انحراف أو قصور .وقد أشرنا سابقاً ـ إلى أن ضرورة تحقيق الإنسان لتلك الوحدة الواقعية والاستقامة معها في سلوكه الاختياري كانت هي السبب في حاجته إلى مذهب الحق ، الذي يوفر له جميع مستلزمات هذه الوحدة إذ يستحيل على غير الله سبحانه أن يحيط بجميع مقتضيات حكمته في الخلق والتكوين ، ليستطيع اعتمادها في مذهب يشرعه للإنسان.

وهكذا فحين شاءت حكمة الله تعالى أن تكفي للإنسان حاجته إلى مثل هذا المذهب بالإسلام كدين توفرت فيه شرائط الحق . فمن الطبيعي أن تتجلى فيه جميع مقتضياتها دون استثناء.

إذن فلا غناء للإنسان ، ولا لاستقامة حياته بدون الإسلام أو بدون إتباع هداه...

وكذلك فان قيام وجود الإنسان على أساس ثابت من هذا الهدى ، وانتظام الحياة على رصيد من مناهجه وأحكامه ، هو الهدف الواقعي المكين الذي تطمح إليه ذات الإنسان في أصل تكوينها وفطرتها ، قبل أن يكون هدفاً ناشئاً من التزام المرء بالإسلام ، وتعبده ببيناته ودلائله.

كما أن الشخص الذي تتكامل فيه ملامح الصورة الإسلامية المثلى للإنسان ليس هو الشخص المسلم الحق أو الإنسان الأمثل فحسب ، وإنما هو ـ قبل هذا ـ تلك القمة العليا التي تتجلى فيها حكمة الله تعالى في إنشائها للكون وخلقها لمظاهره كافة ، إذ بدون الوجود الفعلي لذلك الإنسان الأسمى والأكمل في هذه الحياة تبقى جميع تلك المظاهر قاصرة الدلالة والإدراك لعظمة الحكمة التي أبدعتها ودبرت شأنها.

وهذا يعني أن وجود شخصيات إنسانية تتوفر فيها جميع ملامح تلك الصورة الإسلامية العليا للإنسان ، يعتبر إحدى الضرورات التكوينية التي لا بد منها لتجلي حكمة التكوين ، قبل أن يكون إحدى الضرورات السلامية التي تتجلى بها حكمة التشريع.

دور المرتضى في دين الله

وناحية أخرى يجب الالتفات إليها وهي هنا ، وهي :

إن اصطفاء الله سبحانه لشخصيات معينه من الناس لحمل مهمات كبرى في رسالاته ن وتسنم مناصبها العليا في البشرية ، كالولاية العامة على العباد وإبلاغ أحكام دينه القويم و الأولوية بالناس عليهم من أنفسهم ، يجب أن يقترن معه تعهد رباني خاص ، بأن يستوعب الشخص المصطفى جميع

حدود وملامح تلك الصورة الإسلامية العليا للإنسان ، وإلا لم يتمكن من أداء المهمة التي أوكلت إليه بشكل يضمن للحق وحدته ووضوحه ومطابقته للواقع الإنساني ، ومثل هذا الاحتمال محال ، لأنه يعني تفاوت ما بين حكمة الاصطفاء والتشريع من ناحية والواقع الفعلي الذي يتحقق به وجود المصطفى وحياته من ناحية أخرى ، وتعالى الله عن التفاوت في الحكمة أو العجز في القدرة ، أو القصور في العلم.

وناحية ثالثة وهي:

إن أي انحراف أو شذوذ أو حتى خطأ ـ ولو جزئي ـ يصدر من أحد تلك الشخصيات المنتجبة لا يستقيم وحقائق الإسلام يعني ـ قبل كل شيء ـ عدم استقامة الحق في الإسلام ذاته وعدم تكامل شرائطه فيه .. وهذا مما يستحيل تصوره طبعاً.

فقد علمنا إن تلك الشخصيات ـ بعد تحقق الاصطفاء الإلهي لها ـ قد أصبحت من حقائق الإسلام في نفسها ، وأصبح جميع ما يصدر منها من الأقوال والأفعال من هذه الحقائق أيضاً ، فهذه الشخصيات هي مصادر تبليغها إلى العباد ، وهي أصول حجة الله بها على الناس كذلك.

)لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ولا حرام إلا ماحرمه الله ورسوله وهم. (....

)النور من الله في ، ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي. (..

ولا يمكن الاعتذار بأن المخالفة التي حصلت من هذا الشخص المصطفى أو ذاك كانت بسيطة، أو إنها كانت منه في مورد جزئي لا أهمية له في الحياة ، أو وقعت منه نتيجة خطأ في التقدير ، أو غير ذلك ، فان أياً من هذه الأعذار غير ممكن التصور فيما يصدر عن هؤلاء المنتجبين ، لان استقامة الحق ، واضطراد شرائطه فيهم ـ كما هو الشأن في حقائق الإسلام كافة ـ حديان ، شاملان لكل ما يصدر منهم من عمل ، وما يكونون عليها من الأحوال ودون أدنى نسبة أو تجزئة فبدون هذه الحدية والشمول يستحيل التحفظ على الحق في دين الله تعالى وتحقق شرائطه السابقة فيه.

ثم إن اعتبار البساطة أو الجزئية أو أشباهها من المفاهيم التي تهون من شأن المخالفة لأمر الله سبحانه إنما يرد في مرحلة السلوك والأعمال وما لها من آثار ونتائج في حياة الإنسان ، وهكذا سمي بعض الذنوب بالصغائر مقابل الكبائر ، لملاحظة اثر كل من النوعين على وجود الإنسان وأهميته في حياته.

أما في المبادئ الأولى لهذا السلوك من مكونات الشخصية ـ حيث تعني استقامة الحق في أولئك

المنتجبين ـ فهذه المبادئ قد لا يتصور فيها ورود مفهوم البساطة والجزئية ، وان تبلورت في السلوك التافه بملاحظة الاعتبار الاجتماعي والحياة الإنسانية الجارية .

فالاستقامة في تلك المراحل الأولى واحدة و الانحراف فيها واحد في أي مورد وردا ، وفي أي عمل تحققاً ، إذ لا يلحظ فيهما واقع هذا العمل بقدر ما يلحظ فيها التكوين الذاتي للشخصية واستقامتها مع الحق ، ولهذا فقد يتحقق مفهوم الانحراف وإن كان العمل في ظاهره غير خارج عن إطار الأمر الإلهي كما لو وقع العمل العبادي عن غير نية قصد القربة أو التهاون فيها .. وقد تكون المخالفة كبرى في ذنوب اعتبرتها الشريعة صغائر ، كما لو لم يعر الإنسان لما ارتكبه من الجرام أهمية ، أو مع التهوين من أمره أو الإصرار عليه .. وهكذا

أن الملاحظ في هذه المرحلة هو وحدة شخصية الإنسان ومكوناتها ، وهي ـ كما نعلم ـ وحدة ذات صيغة حيوية متكاملة يستحيل فيها التجزئة والتبعيض ، كما يستحيل تجريدها من أحد أبعادها ومكوناتها أو استبعاده عن دوره بين سائر الأبعاد والمكونات الأخرى ، والتأثر بها والتأثير فيها جميعاً ، ولهذا فلا يمكن التفكيك فيما بينها في أي موقف أو حالة يكون عليها الإنسان ، لتداخل مشاربها وتشابك جذورها ، فأي موقف يصدر من الإنسان أنما يصدر من شخصيته المتكاملة تلك ، حيث تتراءى فيه جميع تلك المكونات والأبعاد دون استثناء..

ولهذا فان المخالفة التي يتسم بها موقف أو عمل يصدر من الإنسان ، إنما هي أثر بارز لخلل في تلك المكونات نفسها ، ووهن في تكامل ما بينها ، مما يعني امتداد هذا الخلل في مختلف جوانب الشخصية ، وانعكاسه بالتالي على أوليات سلوكها كافة وطريقة تعاملها مع الحياة.

إذ الوحدة ـ كما علمناها ـ حيوية الطبيعة متكاملة الأدوار ، والجاري بين مختلف الجذور والمكونات هي أعمق وأعقد من أن تقف بآثار النقص أو الخلل عند نقطة محددة منها، فالخلل الموجود في السلوك ـ كما هو شأن السلوك نفسه ـ إنما يصدر من الشخصية ككل ، لينعكس بآثاره عليها ككل أيضا .

هذا و أن لعلم النفس الحديث تصوراته القريبة من الواقع في هذه الناحية ، فهو قد استطاع ـ بدراساته الجادة ـ أن يكتشف من أوجه هذه الوحدة في مكونات شخصية الإنسان وحيوية العلاقة فيما بينها ، وعمق الروابط فيها أشياء جيدة . لا في خصوص عالم الشعور فحسب ـ حيث يستطيع الوعي أن يتخذ دوره الواضح في قيادة السلوك ـ وإنما فيما وراء هذا العالم أيضاً حيث تتأثر شخصية

الإنسان بأمور تكمن وراء الشعور ، وتملي عليها ـ من هذا العالم البعيد عن تصور الفرد نفسه ـ مقتضياتها ذات الأثر الفعال في تكوين بنيتها وفي سلوكها وإن يدرك الوعي من أسبابها ما يمكنه من الاستفادة من ايجابياتها أو تلافي سلبياتها .

كما استطاع علم النفس أن يتعرف ـ حتى الآن ـ على جوانب من تأثير بعض العوامل الطبيعية في شخصية الإنسان وسلوكه ، سواء منها ما يجري في جسمه كالغذاء والقوى الفسيولوجية ، أم بعض الظواهر التكوينية التي يعيش بها كالبيئة الجغرافية والجو أم الوسيط الاجتماعي الذي يكتنف حياته وموقعه من المجتمع ، وهكذا.

فسلوك الكانسان في أي جانب من حياته يتصور ـ لا يمكن أن ينفصل عن أي من هذه العوامل فلكل منها دوره ، ولكل منها آثاره البارزة أو الخفية فيه.

ولهذه النقطة دلالاتها الكبرى في فهم الحدود اللازمة لشرائط الحق المتصورة في أولئك الذين انتجبهم الله تعالى لتسنم المناصب العليا في دينه العظيم ، كالولاية العامة على الخلق ، وإبلاغ رسالته إليهم ، وغير هذا...

وبعض هذه الدلالات:

-1ضرورة استيعاب هذه الشرائط لجميع آفاق شخصيات أولئك المنتجبين ، بكل ما فيها من دقائق وأبعاد ، فلا يشذ عنها أفق ولا تقصر عنها دقيقة .. إذ لا تبعيض في التكامل الشخصي للإنسان ـ كما علمنا ـ ولا استثناء مع ما فيه من سمة الحيوية التي اشرنا إليها في حديث سابق.

-2ضرورة أن تغور هذه الشرائط إلى أعمق أعماق تلك الشخصيات في تكوينها الذاتي ، ثم ومن تلك الأعماق تنطلق لتتراءى في أي سلوك يصدر منها ، أو فكرة تطرحها إذ يمتنع استبعاد أي من تلك الأعماق عن التأثر فيما سواه من مكونات الشخصية.

وهنا يبرز سؤال مهم هو : أنى يمكن لأحد من الناس أن يستقل بمفرده في الوصول إلى هذا المدى دون رعاية مباشرة من الله سبحانه وتعهد منه خاص ، يضمن هذا البلوغ دون وهن أو غموض ؟ بل ، وعلينا أن نلتفت هنا إلى أن الدرجة المطلوبة من ذلك الاستيعاب والعمق لشرائط الحق في شخصية المصطفى لا تقف عند حدوده الفردية فحسب و إنما هي تتسع حتى تشمل متطلبات دوره في دين الله ومسؤوليته في الحياة الإنسانية كافة بل والوجود التكويني ككل.

واضح أن هذا الاستقلال محال ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ وقد استعرضنا في الحديث عن البعد الإنساني

للولاية بعض جوانب القصور الذاتي الموجود في الطاقات والقابليات التي يتعامل الإنسان من خلالها مع مختلف الأمور ، واشرنا إلى تأثره بحدود العصر الذي يعيش فيه ، وهما ـ كما قلنا ـ جانبان مهمان مما يقصر بالإنسان عن الاستقلال بنفسه في الارتفاع إلى الدرجة التي يقتضيها الاصطفاء الإلهي من شرائط الحق ، ما لم يسند المصطفى برعاية خاصة من الله تعالى.

ويمكننا أن نضيف هنا عوامل أخرى لهذا القصور أيضا يجب أن لا تغيب عن الوعي وهو يدرس هذه الناحية من أولئك المنتجبين (عليهم السلام. (

من عوامل القصور الإنساني:

أحدها : طبيعة العلاقة التي تربط ما بين الإنسان وذاته ، وما بينه وبين غيره من الموجودات إما ضمن دائرة المجتمع الإنساني أو ضمن البيئة أو الوسط التكويني الذي يعيش فيه أو غير ذلك مما يكتنف وجود الإنسان وحياته.

فهذه العلاقة كما تتسم بالاستقامة والتكامل في بعض جوانبها قد يكون الصراع والشد هو الحاكم عليها في جوانب اخرى.

والفرق بين الاتجاهين وان اتضح في بعض الموارد ، إلا انه في موارد اخرى قد يكون من الدقة بحيث قد تخفى معالمه وحدوده على بصيرة المرء ذاته بل وفي بعض الحالات قد يتداخل الاتجاهان معاً حتى في الموقف الواحد بشكل قد يفوق التصور.

وطبيعي أن تتضاعف تلك الدقة وهذا التداخل مع كل أفق جديدة يستوعبه دورا لموقف في الحياة ، ومع كل أهمية له فيها ، ومع كل مسؤولية لصاحبه في المجتمع أو بين مظاهر الوجود.

ولهذا ففرد من الناس قد يستطيع أن يتبصر مختلف أطراف المواقف ويرى معالم الحق فيه واضحة كل الوضوح ، ويضمن لنفسه الاستقامة معه في السلوك إلا انه في مواقف أخرى قد ينأى عنه مثل ذلك التبصر وهذه الرؤية ، فلا يتمكن إلا من التخبط العشوائي دون أي بصيرة إلا حيث يكتسبها من مصدر آخر يسلم إليه قيادة فيه ، ومن هنا كان لا بد من التعاون بين الناس في الحياة ، فبهذا التعاون يمكن أن تنتظم مسيرة الإنسان نحو الكمال وتستقيم في سبيله.

إلا أن المعرفة البشرية كلها لم تبلغ درجة الإحاطة الكاملة بمختلف ظواهر الوجود ودقائقها ، ليصبح الإنسان قادراً على استيعاب جميع موارد التكامل والصراع بينها ـ وليحدد ـ على أساس من هذا

الاستيعاب ـ معالم كل من الحق والباطل فيها . والشاهد القريب على هذا القصور في المعرفة هو تطورها وتناميها اليومي ، فما أكثر ما عمله الإنسان اليوم مما كلن يجهله باللامس .. وطبيعي آن يعلم في الغد بعض ما يجهله اليوم وهكذا ، إذ لم تتوقف حركة المعرفة وتقدم العلوم مع الزمن..

وبعض دلالات هذا القصور هو أن الإنسان أقل من أن يمتلك القدرة الكافية على استيعاب معالم الحق في جميع القضايا والمواقف بمفرده ليضمن لنفسه استقامتها المطلوبة في أصعدة الحياة كافة وفي جميع صور تعامله مع الأمور ، ولهذا فهو قد يحيد عن القصد في بعض الحالات ، وقد يستكين لدواعي الانحراف في حالات اخرى ، وقد تهن به قواه عن نيل أهداف عليا له في الحياة وهكذا.

ودقة التداخل بين مختلف الاتجاهات وتشابك ما بين خطوطه يعني أن مكامن كل من التكامل والصراع غير محدودة المواقع والخطوط فيها ، ليستطيع الإنسان ـ ولو في إطار النوع ـ أن ينسلب في مسيرته جميع الطرق التي لم يحط بحدودها وليتجنب ـ من ثم ـ السالب من آثار السلوك فيها ، فمثل هذا التمييز غير مستطاع في أغلب أصعدة الحياة إذ موقف واحد قد يصبح مجلى لتكامل الإنسان وإدراكه لحدود الواقع بل ولصراعه معه .. وهي قضية عامه لها آثارها الحاكمة على الإنسان في مختلف جوانب حياته حتى في أوليات فكره وفي تصوره العقلاني ، ويمكن لأي احد من الناس آن يدركها من نفسه قبل غيره.

وطبيعي أن تحقق شرائط الحق في شخصية احد من الناس ـ وفي الحدود الواسعة التي قلناها ـ يستدعي ـ ولا ريب ـ أن يمتلك من القوة الذاتية ما يستطيع به أن يستشرف ـ في عقله وبصيرته ـ على جميع علاقاته الذاتية مع نفسه ومع غيره ويهيمن به على جميع أبعاد ومكامن التكامل والصراع التي ترد ضمن مواقفه وتفاعله مع مختلف القضايا والأحداث ليدرك الصواب الكامل دون وهن أو قصور ، فلا يمضي ألا مع الحق ، ولا يستكين لغير مقتضياته ولا تفاوت عن دلائل اصطفائه ، كما تفاوت الإلهي ذاته عن استقامة ، وهذا ـ كما علمنا ـ محال . إذن فلا بد من المدد الرباني ، ولا بد من الرعاية المباشرة لضمان تلك الشرائط ، لان تلك السعة والدقة ، والهيمنة التامة على الأمور والمواقف كلها مما يستحيل على احد من الناس إن يستقل فيها بنفسه دون ذلك المدد كما رأينا ـ.

ثانيها : طبيعة نشأة الإنسان وتأثره بعوامل الوراثة والبيئة...

وهي عوامل استطاعت الملاحظة الإنسانية والدراسات العلمية المختلفة ان تدرك بعض آثارها في

شخصية الفرد وتوجهاته ، فإلى تلك النشأة أمكن أن تعزى للنوع الثاني الطرائق والاتجاهات التي تتبلور بها تلك الطاقات والقابليات وسبل تفاعلها مع الحياة .

ولان لهذه العوامل جميعها دوراً اساسياً وكبيراً في قيام كيان الفرد ، وتحديد معالم شخصيته ، فمن الطبيعي أن يتأثر بسلبيات هذه العوامل كما يتأثر بايجابياتها ، وهو تأثر وان لم يبلغ إلى درجة الجبر ، إلا انه كاف في تحديد التوجهات الذاتية للفرد وتعين اتجاهات شخصيته.

هذا في حين أن من غير الممكن أن تتوفر لأحد من الناس ـ وفي جميع مراحل عمره ـ تلك الدرجة العليا من الكمال ، في جميع العوامل الوراثية والبيئية معاً دون مدد رباني خاص . لتمده ـ من ثم ـ بكل الراصدة الذاتية التي يحتاجها في الاستقامة المطلقة مع الحق ، واستيعاب شرائطه كافة وإتباع هديه في كل حال .. والتزامه نقطة انطلاق ثابتة في كل صعيد من أصعدة الحياة لا يشذ عنها ولا يحيد في أي من أحواله وأموره ، كما يتطلبه الأمر في الشخص المرتضى لقيام كلمة الله تعالى في هذه الأرض...

وهذا يعني أن تأثر الإنسان بسلبيات النقص والتفاوت في هذه العوامل مما لا يمكن تجنبه لأي فرد من الناس دون ذلك المدد الرباني الخاص الذي يرتفع به عن الموهنات منها ، ويسمو عما يتأتى لها من نتائج غير مرضتاه للحق ودينه سواء في تصوره أم في سلوكه ، بمعنى إن يستخلصه الله تعالى لنفسه في جميع حالاته ، ومكونات شخصيته ، دون أن تأخذ منه تلك العوامل أي مأخذ وان استطاعت إن تنحرف بغيره عن قويم السبيل آو تهن به عن بلوغ الغاية.

ثالثها : طريقة النمو الإنساني وتكامل غرائز الفرد وقواه الجسدية والعقلية والنفسية منذ ولادته وحتى المراحل العليا لنضجه الكامل.

فمع إن تلك الغرائز والقوى تولد بولادة الشخص ، إلا أن كلا منها ـ وكما هو معروف ـ وقبل أن يبلغ مرحلة النضج الكامل يمر بمراحل من الكمال والنمو التدريجي المتصاعد ليصبح لكل مرحلة من المراحل مزاياها البارزة وطابعها المتميز ، وتأثيرها الخاص على شخصية الفرد وتوجهاتها .. مما جعل لكل مرحلة من المراحل سمات متفاوتة عن المراحل الأخرى.

وهي قضية يشهدها كل امرئ من نفسه قبل أن يراها في غيره من الناس.

فالطفل يولد ولديه جميع ما يملكه الإنسان الناضج من الغرائز والدوافع والطاقات التي يحتاجها في

تحقيق وجوده وإنسانيته وممارسة حياته ، إلا أن الغالب منها يوجد لديه كامناً بعيداً عن الظهور ، إلا ما يحتاجه منها في أيامه الأولى ، ثم ـ ومع تقدمه في الحياة ـ يبدأ كل منها في النمو والتطور مرحلة بعد أخرى حتى تصبح في صورتها النهائية حين تتكامل جميعها ، وتتنسق في تفاعلاتها عندما تبلغ الشخصية مرحلة نضجها واستوائها الكاملين.

وكل فرد يرى من نفسه ـ وحتى قبل ملاحظته لغيره من الناس ـ بأن لكل مرحلة من نموه الذاتي ـ يمر بها ـ سماتها الخاصة التي تفرض عليه بعض الاهتمامات ، وتملي عليه اتجاهات ومواقف ذات طابع معين يستحيل عليه تجاهله أو إهماله ، دون أثر سلبي ينعكس على ذاته.

وواضح إن تحقيق الاستقامة التامة والتوازن العام في مكونات الشخصية ـ التي تستوجبها شرائط الحق في شخصية المنتجب ـ وان أمكن تصورها في مراحل متأخرة من النضج لدى بعض الناس ، إلا إنهما غير ممكنين أبداً فيما سبقها من المراحل ، ولا سيما في ادوار الحياة الأولى ، حيث لم تكتمل ـ بعد ـ قوى التعقل والإدراك ، فهي غير مأمونة التأثير.

على آفاق الشخصية ولا سيما في عالم اللاشعور ، وما أكثر ما يجد المرء من نفسه ملامح تلك السلبيات ومعالم هذا القصور ، وهي تنعكس على تصوره وسلوكه!!

وعليه فلا بد من رعاية الله تعالى ولطفه الشاملين لأولئك الأصفياء (عليهم السلام (، ولا بد من إشراف الهي مباشر عليهم يكون هو المتعهد لشخصية القيم على دين الحق والمبلغ لدلائله ، منذ أدوار وجوده الأولى وحتى آخر مرحلة يحقق بها مسؤولية في هذه الأرض ، لئلا يكبو عن القصد ، أو يتأثر بنوازع الهوى أو يقصر لعدم الاكتمال.

شمول الرعاية الإلهية لرسل الله وأصفيائه

وكما لم تختص ولاية على (عليه السلام) بالرعاية الإلهية التي لا حظنا بعض جوانبها في الباب السابق ، ولا يختص علي (عليه السلام (ذاته من بين أصفياء الله سبحانه بهذه الرعاية التي تضمن لحق شرائطه في شخصيته.

بل ، ولا اختصاص لرسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولا لمنتجبيها الطاهرين)عليهم السلام) في أي من أوجه الرعاية تلك ، فهي ـ وكما أشرنا أكثر من مرة ـ تعتبر دعامة أساسية في ضمان استقامة الحق ـ ذاته ـ وتحقيق شرائطه في دين الله تعالى وبيناته ، وعلى امتداد تأريخه مع

البشرية ، منذ النبي الأول وحتى الوصي الأخير فيه .إذ الأصول واحدة ، والضرورات واحدة ، والحكمة التي يعتمدها في قيام حجته واحدة في الجميع كما أن قدرة الله تعالى التي اصطفت أولئك الأصفياء ـ هي أسمى من أن يداخلها عجز ، وحكمته أجل من يشوبها عبث أو تفاوت.

وكتاب الله العزيز ، يؤكد هذه الناحية في العديد من سياقاته ويشير في الكثير من آياته المباركة إلى هذا العموم في الرعاية الإلهية ، ويصرح بأنها قد واكبت شخصيات الرسل والأنبياء (عليهم السلام) الذين سبقوا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم (في الزمان ، كما يشير إلى جوانب مما أفيض منها على الرسل (صلى الله عليه وآله وسلم (نفسه من بين أصفيائه المنتجبين (عليهم السلام) .

ويمكننا أن نقرأ هنا نماذج قليلة من هذه الآيات كقوله تعالى عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام : (

)واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدّار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) (٧.(

وكقوله تعالى عن يوسف عليه السلام : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال معاذ الله انّه ربي أحسن مثواي انّه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انّه من عبادنا المخلصين) (٨.(

وعن موسى عليه السلام قوله تعالى : (واصطنعتك لنفسي) (٩.(

وعن عيسى (عليه السلام) يقول عز من قائل : (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) (١٠.(

وأخيراً نقرأ قوله سبحانه عن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : (ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء.(11) (

ولا نفيض في قراءة المزيد من الآيات ، فهي أكثر من أن تستوعب في هذا المجال.

"إنا خلصناهم " . " أن رأى برهان ربه " . " اصطنعتك لنفسي " . " أيدتك بروح القدس . "

"لو لات فضل الله عليك ورحمته " .... هذه هي تجليات تلك العناية الربانية ومظاهر الضمان الإلهي لاستقامة الحق في تلك الشخصيات العظمى من دين الله تعالى ومدارك الوحدة المطلوبة في مختلف حقائقه فيهم.

أما بالنسبة إلى وجود هذه الرعاية في علي عليه السلام خاصة ، وبناء شخصيته على أساس مطلق

من الحق ، فيكفينا من شواهدها آية التطهير المباركة التي جمعت بهذه الرعاية علياً إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والزهراء والحسن والحسين (عليهم السلام) في أذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من الذنب ، إذ قال تعالى:

)إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (١٢.(

ودلالة الآية على المراد أوضح من أن تحتاج إلى بيان.

كما أن اختصاصها بهؤلاء الخمسة الأصفياء من الناس هو المتواتر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كما أخرجه الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة قالت :

)خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غداة ،وعليه مرط مرجل من شعر أسود ، فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ، ثم جاءت فاطمة فادخلها معهما ثم جاء على فادخله معهم ، ثم قال : " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.(13) "

كما أخرج الترمذي بسنده عن عمرو بن أبي سلمه (ربيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : (لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : { إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً { في بيت أم سلمه ، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء ، وعلي خلف ظهره فجللهم بكساء ثم قال :" اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. " قالت أم سلمه : وأنا معهم يا نبي الله ؟

قال : أنت على مكانك وانك على خير) (١٤.(

ويمكننا أن نضيف من هذه الشواهد قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في علي عليه السلام خاصة ـ من حديث ـ (يا معشر قريش ! لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد امتحن الله قلبه على الإيمان) (١٥.(

ودعا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) له يوم غدير خم : (وأدر الحق معه حيث دار.(

ودعاؤه (صلى الله عليه وآله وسلم) له يوم أن بعثه إلى اليمن : (اللهم أهد قلبه وثبت لسانه)(١٦.(

إذن فرعاية الله سبحانه المباشرة هي الرصيد الأول الذي يحقق به المصطفون شرائط الحق في وجودهم وهي السبيل الأوحد الذي يستحيل عليهم ـ بدونها ـ بلوغ الغاية السامية من اصطفائهم في استقامة دين الله تعالى ووحدة بيناته ووضوح حجته.

وعلي (عليه السلام) لا يختلف عن غيره من هؤلاء الأصفياء النجباء في ضرورة هذه الرعاية له بعد أن تحقق ارتضاء الله له ، واصطفاه إياه لتسنم مقام ولايته الكبرى بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم.)

الرعاية الإلهية ومواردها في الأصفياء

لكن .. ماذا تعني تلك الرعاية الإلهية لأولئك الأصفياء ؟

وما هي مواردها في شخصياتهم المطهرة ؟

والى أي مدى تمضي معهم ؟

هذه الأسئلة وأشباهها مما يتبادر إلى الذهن ، وهو يتأمل الحديث السابق في البحث عن ضرورة هذه الرعاية الإلهية ودلائلها في أولئك المنتجبين ، إلا أن ما ينبغي الالتفات إليه هو استحالة الإجابة عنها بما وراء الحدود التي أملتها دلائل الحق التي سبق الحديث فيها ، وما أدركته فطرة الإنسان ، وهي تستلهم هذه الدلائل في أولئك الصفوة من البشر . أو بما وراء النصوص الإسلامية الصحيحة التي رسمت الخطوط العامة لتلك الدلائل وأكدت تلك الضرورات.

فتلك الرعاية الإلهية في واقعها فيوض ربانية خاصة لنخبة من الناس اقتضتها فيهم حكمة الله سبحانه لهم والتزامه إياهم أمثلة شاخصة لهداه فهي مما يستحيل على أحد من الناس بلوغ كنهها ، أو الإحاطة بحدودها في ذواتهم ـ من ثم ـ تحديد معالمها ، أو استيعاب شيء من آفاقها فيهم.

فالفكر الإنساني اقصر من أن يدرك شيئاً من رعاية الله تعالى لذات نفسه ، وأقل من أن يفهم مجاريها في قضاياه ، في وقت هو يعيش هذه الرعاية في كل شأن من شؤونه ، ويلمسها في كل حالة من حالاته . إذن فكيف يؤمل له التطاول إلى تلك الآفاق العليا بإحاطة ، أو نيلها بتحديد ؟.

إذن ، فلا بد أن تتخذ الإجابة عن الأسئلة السابقة مسارات أخرى غير هذا الاتجاه المستحيل.

مسارات تعتمد نفس الأوليات التي اعتمدناها في هذا الحديث لأنها هي الأصول التي يطلب استيضاحها لوفاء الإنسان بمسؤوليات تجاه تلك الذوات الطاهرة.

أي مسارات تعتمد ما يمليه الحق من شرائط فيها ، وما تستوجبه استقامة في وجودها وحياتها ، وما تطرحه النصوص السلامية الصحيحة من مفاهيم وحدود تنير للمؤمن سبل الالتزام السليم بأولئك النجباء ، وإتباع هديهم ، إذ أن للحق دلائله ، التي يجب آن تسترشد في تمييز منابعه ، وان لدين الله

تعالى حجته الواضحة في كمال هداه ، وجلاء بيناته ، في حدود ما يستطيع الإنسان إدراكه وفهمه من أمور.

ولا ريب أن في محاولتنا فهم شرائط الحق ، واستقامتها في أولئك الصفوة النجباء ، وفي تأكيد النصوص السلامية لهذه الناحية فيهم ، وبيانها لدلائلها وإبعادها في شخصياتهم ، معيناً كافياً في تعريف الإنسان بما تعنيه الرعاية الإلهية لهم في الحدود التي يستطيع فهمها من هذه الرعاية ومواردها فيهم ، ليتمكن لطالب الحق اعتمادها في علقته معهم ، والوفاء بمسؤولياته تجاههم.

اما ما وراء هذه الحدود ، فينبغي العلم بانه ما لا يعني الانسان العادي الولوج فيه ، ولم يرد ضمن إهتمامه ، أو حتى ضمن طاقة فهمه وإدراكه ، بل وحيث لا يستند الحديث فيه إلى أساس ثابت من العلم يصبح الوغول فيه رجماً بالغيب ، لا ينتهي معه الانسان إلى نتيجة مرضية . وان كان للواقع ثبوته الذي لا ينكر في تلك الشخصيات المطهرة.

ولهذه فنحن هنا ـ حيث نسعى إلى تكوين صورة واضحة للاجابة حول الاسئلة المتقدمة نحاول ـ قدر المستطاع ـ ان لا نتجاوز الحدود التي ذكرناها . ومن الله جل شانه نستمد التوفيق والسداد انه ولي التوفيق.

ثم ان هنا نقطة مهمة يجب الالتفات اليها في هذا المجال.

وهي ان النصوص الاسلامية الواردة في بيان الرعاية الالهية لاولئك الصفوة المنتجبين ، قد يركز كل منها على مفهوم خاص من هذه الرعاية في بعض اولئك الاصفياء ، حسب ما تقتضيه المورد الذي ورد فيه ذلك النص كما رايناه في النصوص السابقة.

الا ان خصوصية الورد لا تعني الاختلاف في واقع تلك الرعاية ، او التعدد في طبيعتها ، او التفاوت في اهدافها او اختصاص كل واحد من أولئك الاصفياء (عليه السلام (بجانب خاص منها ... كلا أبداً وانما هي مظاهر لواقع واحد شامل لجميع اولئك المطهرين)عليه السلام) لتحقيق اهداف موحدة الخط والاتجاه ، اقتضتها حكمة الله تعالى في انتجابهم لدينه العظيم.

فهذا العموم هو ما يعنيه اضطراد شرائط الحق في اولئك الصفوة استقامتهم مع مقتضيات هداه ، دون ادنى تفاوت أو عوج...

وهو ما تؤكد عليه النصوص الاسلامية الواردة في بيان شرائط النبوة والامامة التي سنذكر بعضها ـ فيما بعد ـ (إن شاء الله تعالى. (

ولهذا فان آيات سورة (ص) السابقة حين تقول عن ابراهيم واسحاق ويعقوب (عليهم السلام " : (إنا خلصناهم بخالصة " فان هذا الاخلاص الالهي ليس هو من مختصاتهم وهدهم من بين أصفياء الله الاخرين فكل هؤلاء الاصفياء مخلصون لله تعالى.

وكذلك فان آية سورة (يوسف) التي تذكر عنه : " وهم بها لو لا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء " فان هذا البرهان الرباني وصرف السوء والفحشاء ليسا مما تميز بهما يوسف (عليه السلام) بمفرده دون غيره من المصطفين..

و الامر نفسه وارد مع اصطناع الله لموسى (عليه السلام) وتأييده لعيسى (عليه السلام) بروح القدس ، او فضل الله ورحمته على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم ... (فهذه النواحي كلها عناوين متعددة لحقيقة واحدة شاملة اقتضتها حكمة الاصطفاء الالهي واستوجبتها استقامة الحق في أولياته.

بمعنى ان كل مفهوم تعرض له تلك النصوص لا يعدو كونه واحداً من المجالي التي يتراءى بها ذلك المدد الواحد أو مظهراً لذلك الفيض الرباني العميم عليهم أجمعين وعلى البشرية كلها من خلالهم ، كهداة مهديين لها في سبيل الخير والكمال.

نعم ، حين تكون هناك قرائن تخصص بعض الامور في مواردها فلا بد أن يقتصر بها حينئذ عند حدودها المذكورة ـ كما هو واضح ـ إذ لا مجال للتعميم في مثل هذا المورد.

وهذا العموم الذي ذكر قد يعني امكان ان ننطلق في فهم جوانب هذه الرعاية الالهية وموارها في تلك الشخصيات المصطفاة كافة ، من خلال كل من تلك النصوص ، وان ذكر كل منها على جانب خاص ركز في واحد منهم ، لعموم الضرورة السابقة ، ووحدة الحكمة الالهية واهدافها في اصطفائهم ، والتعهد الرباني لهم ، ولما أكدته تلك النصوص العامة التي ذكرت الشرائط التي يجب أن تتوفر فيمن يرتضيه الله تعالى مبلغاً لامره ونبراساً لهداه في البشرية.

من دلائل الحق في الرعاية الإلهية

اما ماهي دلالات شرائط الحق في هذا المجال ؟ ، وما هي معطياتها في بيان الرعاية الالهية وأبعادها وموارها ومداها في تلك الشخصيات ؟

وما هي المفاهيم التي طرحتها النصوص الاسلامية الواردة في بيان هذه الامور ؟

غني عن البيان ان نقول بان هناك الكثير من القضايا التي يمكن تصورها في هذا المجال ..كما ان

هناك الكثير من المفاهيم التي عرضت لها النصوص الاسلامية في تقديمها لسمات ومميزات أولئك النجباء (عليهم السلام. (

الا اننا هنا ـ ونحن نتأمل دلالات الالتزام الالهي لتلك الشخصيات المصطفاة في خطوطه العامة ـ لا بد أن نتقيد بهذه الحدود في هذه الناحية ايضاً ، كما وقفنا عندها سابقاً في استعراضنا للنواحي الاخرى إذ لا يمكننا الدخول في الجزئيات وإن كان بعضها من الاهمية بمكان.

ولهذا فنحن نذكر من مظاهر الرعاية الالهية لاولئك النجباء ، ما يلي :

أولاً:

إنشاء الشخصيات المنتجبة كافة ـ بما فيها شخصية علي بن أبي طالب (عليه السلام) ـ وبما فيها من مكونات وأصول وطاقات على أكمل صورة تعنيها التسوية الالهية للإنسان الحق ، وعلي أسمى ملامح يقدمها التصور الاسلامي ، وتتطلبها فكرته العامة عن كماله الذي يحقق لحكمة الله تعالى فيه غاياتها ، دون أي نقص أو خلل يقتصر بأي منها عن استيعاب شيء من مستلزمات الحق وشرائطه في الانسان المرتضى.

"واصطفيتك لنفسي. "

وهكذا فلا يقعد تلك الشخصيات قصور يتأتى لها من وراثة بعض النقائص من الاسلاف ، او وهن في بينة يعيقها عن نيل ذلك الكمال الاسمى ، ولا ترجيء قدرتها على تجسيد الحق في كيانها ، عملية التطور المعود بين الناس ، في أي مرحلة من مراحل وجودها.

إذ سبق ان اشرنا إلى ما يستوجبه النقص الوراثي في مكونات الذات من تحديد في قدرة الانسان على الانطلاق في افاق الكمال .. كما سبق ان لاحظنا ما يعنيه التطور الطبيعي في جسم الفرد ونفسه من تفاوت في مراحل النضج ، وتأثر كل مرحلة من مراحل عمر الشخص ببعض العوامل النفسية والجسدية التي قد تفقده حتى التوازن المطلوب في رؤية الواقع ، والاستقامة معه في التصور والسلوك.

ولما كان كل من الامرين غير ممكن في الشخص الذي يختاره الله تعالى لامره ، ويرتضيه لعهده ، فيجب ان تتجاوز رعاية الله فيه أي نقص يمكن ان يرد عليه في أي من مكونات ذاته ، أو أركان وجوده أو اصول ومظاهر حياته ، سواء في اصل خلقه ام في نشأته ام في مسيرة حياته.

وقد سبق ان لاحظنا ان القصور في أي من تلك النواحي لا يقف في آثاره على جانب معين من الذات

، أو عند شكل خاص من أشكال حياتها ، فهي ـ كما تعلم ـ موحدة الجوانب متكاملة الابعاد حيوية العلاقات.

والقرآن الكريم يذكر أمثلة لهذا التجاوز في رعاية الله سبحانه لعاملي التطور الطبيعي والوراثة في تلك الشخصيات المنتجبة ، كما في شخصيتي عيسى بن مريم (عليه السلام) ويحيى بن زكريا (عليه السلام) اذ يقول تعالى :

)فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا. قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا .والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً.(17) (

)يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً .(18) (

ولا ريب انه تجاوز غير مستغرب ، بعد أن عرفنا أنها رعاية خاصة ، ممن بيده مقادير الامور وتدبيرها .. وانها رعاية اقتضتها حكمة الله سبحانه ، التي شاءت أن تصطفي تلك الذوات . وأن تضمن من مجالي عظمتها فيها ما يحقق للحق شرائطه في كل دور من أدوار وجودها ، وأن تظهر فيها من سمو دين الله ما يقيم بها حجة الله تعالى على العباد كأمثلة شاخصة للبشرية ، وشواهد هادية لها نحو الخير والصلاح.

ثانياً:

انشاء تلك الشخصيات ـ وبكل ما تملكه من مظاهر الكمال الانساني ـ على أساس واقعي ثابت ، مما تقتضيه حكمة الله سبحانه في الانسان ، وعلى رصيد تام من دلائل الهدى في دينه القويم ... بمعنى ان تتوحد في هذه الذوات حكمة الخلق والتشريع معاً ، ليكون وجودها مظهراً لعظمتها معاً كذلك بل ومظهراً لعظمة حكمة المكون والمشرع سبحانه ايضاً.

فهي رعاية تخلص تلك الذوات لله تعالى وحده ، وتمحضها للحق الذي تقتضيه حكمته ، فلا وجود في كيانها لغير الله تعالى ولا حياة لها بدون هداه ، ولا موقع في نظرتها لغير كلمته.

)انّه من عبادنا المخلصين) (١٩.(

)انّا أخلصناهم بخالصة) (٢٠.(

)امتحن الله قلبه للإيمان... (

" أدر الحق معه حيث دار... "

ثالثاً:

الهيمنة المطلقة للعقل ، وقوى الوعي المتبصر على كل ركن من أركان شخصية المنتجب ، وكل مجلى من مجاليها ، فلا دخائل في هذه الشخصية تزيغ بالعقل عن تبصره ، ولا عقد نفسية تلقي بظلالها عليه من وراء الحجب فلا خطأ ... ولا زلل.

وانما هو هدى كامل ، ونور شامل ، يملأ جنبات تلك النفوس ، ويستوعب كل آفاقها ... كقوله تعالى عن ابراهيم (عليه السلام: (

)اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) (٢١.(

وقوله تعالى في خطابه لسيد الرسل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : (إنك لعلى هدى مستقيم) (٢٢.(

وكدعاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) : " اللهم اهد قلبه وثبت لسانه " .

رابعاً :

الوقاية التامة لتلك الانفس الزكية عن أن تتأثر ـ في رؤيتها للأمور ، أو تعاملها مع القضايا ـ بشيء لا يستقيم مع هدى الله تعالى وبصائره مما يجري حولها من حوادث لا من قريب ولا من بعيد ... والارتفاع بها عن أن تستكين لدواعي الهوى أو تحيد مع مضلات الأماني ... ليكون كل شيء فيها لله وحده ، ولكلمته وهداه ... فمن خلال هذه الكلمات تمضي في وجودها ، ومن خلال هذا الهدى تجري بفاعليتها في هذه الحياة.

)كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) (٢٣.(

)انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (٢٤.(

هذه بعض الخطوط العامة التي تجلى بها رعاية الله في أولئك المصطفين . وهذه ملامح بارزة منها في بنياتهم الشخصية.

وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) كأي منتجب آخر منهم ـ يجب أن يحاط بمثل هذا المدد الرباني أيضاً في جميع شؤونه ، حيث يستحيل عليه تحقيق أي من مهماته الكبرى دون رصيد ثابت من هذا

المدد.

ولهذا فلا حاجة لتتبع ما ورد فيه من النصوص الواردة في هذه الناحية لأنها لا تعدو الحديث السابق ، على أنها من الكثرة بدرجة لا يحتاج الوقوف عندها إلى كثير من العناء ، وقد سبق أن ذكرنا نحن العديد منها ضمن طيات الحديث المتقدم.

الرعاية الإلهية في النصوص الإسلامية

ويجدر بنا أن نقف عند بعض النصوص الإسلامية التي) عرضت هذه الملامح التي قلناها ومدلولاتها في تلك الشخصيات المطهرة ، ويمكننا أن نختار منها هنا ثلاثة نماذج نذكرها دون تعليق:

الأول : ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) من خطبة له يذكر فيها حال الأئمة وصفاتهم:

...)فالإمام هو المنتجب المرتضى ، والهادي المنتجى ، والقائم المرتجى ، اصطفاه الله بذلك ، واصطنعه على عينه في الذّر حين ذرأه ، وفي البرية حين برأه ، ظلاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه محبواً بالحكمة في علم الغيب عنده ، اختاره بعلمه ، وانتجبه لطهره ، بقية من آدم ، وخيرة من ذرية نوح ، ومصطفى من آل ابراهيم ، وسلالة من اسماعيل ، وصفوة من عترة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لم يزل مرعياً بعين الله ، ويحفظه ويكلؤه بستره ، مطروداً من حبائل ابليس وجنوده .. مدفوعاً عنه وقوب الفواسق ، ونعوث كل فاسق ، مصروفاً عنه قوارف السوء ، مبرءاً من العاهات ، ومحجوباً عن الآفات، معصوماً من الزلات، مصوناً من الفواحش كلها،معروفاً بالحلم والبرّ في بقاعه، منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه) (٢٥.(

الثاني : ما ورد عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) انه قال:

)ان الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا وجعلنا شهداء على خلقه وحجته في أرضه ، وجعلنا مع القرآن ، وجعل القرآن معنا ، لا نفارقه ولا يفارقنا) (٢٦.(

الثالث : ما قاله الإمام ابو الحسن الرضا (عليه السلام) في حديث طويل يذكر فيه خصائص الإمام ومعرفاته :

)الإمام : المطهر من الذنوب ، والمبرأ من العيوب . المخصوص بالعلم ، الموسوم بالحلم ، نظام الدين وعز المسلمين ، وغيظ المنافقين ، وبوار الكافرين.

)الإمام : واحد دهره ، لا يدانيه احد ، ولا يعادله عالم ، ولا يوجد عنه بدل ، ولا له مثل ولو نظير ،

مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضل الوهاب (...

إلى أن يقول (عليه السلام: (

)ان العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح لذلك صدره ، وأودعقلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم إلهاماً ، فلم يعي بعدهن بجواب ، ولا يحير فيه عن الصواب ، فهو معصوم مؤيد موفق مسدد ، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٢٧.(

واضح ان الاحاديث غنية عن أي تعليق ، فهي انما تؤكد تلك الملامح التي استوجبتها شرائط الحق واستقامته في اولئك المصطفين وان افاضت ببعض التفاصيل التي يقتضيها مورد البيان لان هذه التفاصيل ذاتها هي بعينها تلك الملامح كما هو واضح.

ولا يرد على مثل هذه النصوص انها من كلمات أولئك الاصفياء أنفسهم ، فهي مما لا يمكن الاستدلال به من أجل الايمان بالجوانب التي ذكرتها من رعاية الله تعالى لهم ، او حتى فهم الابعاد التي فصلتها لها في ذواتهم ، لانها لا تعدو ان تكون دعاوى يحتاج التصديق بها إلى دلائل ترد من غيرهم ، اذا الشيء لا يثبت نفسه كما هو معروف في علم المنطق.

أقول : ولا يرد هذا على مثل هذه النصوص ، لانها ـ كما نعلم ـ لا تؤسس دعوى من تلك الذوات المطهرة ، فهي ـ ومع غض النظر عن أي إعتبار ـ انما جاءت في خط الحكم العقلي الواضح من عموم شرائط الحق ، واستيعابها للاشخاص الذين يصطفيهم الله (تعالى (أمثلة عليا لدينه القويم في البشرية ، ومن ضمان تحقيق الله (سبحانه) لتطلبات حكمته في اصطفائه اياهم ، تماماً كما هو الامر مع الايات القرآنية الكريمة التي وردت في هذا الخط أيضاً.

فالروايات السابقة وأشباهها كالايات القرآنية الكريمة الواردة في هذه الناحية ـ انما تلفت إلى هذه المزايا الاساسية في منتجبين كلمة الله سبحانه وهداة دينه القويم لتستطيع هذه العقول ـ من ثم ـ استلهام معالم الحق في صادق دعاوى الانتساب إلى هذه الكلمة وتمييزها عن الكاذب منها.

بل ، وحتى مع الغض عن هذه الناحية فان علينا ان نلتفت إلى هذه النصوص ليست هي المؤسسة لدعوى إنتساب هؤلاء الاصفياء إلى دين الله ، او المثبتة لاصطفائه اياهم أركاناً لهداه ، ليرد الاشكال السابق ، فإن لهذه الاصفياء أدلته اليقينية الاخرى ، بمعنى ان النصوص السابقة قد وردت ممن ثبت إصطفاؤهم يقيناً في دين الله ، وعلم اختيار الله اياهم لتلك المهمات الكبرى في البشرية.

وحينئذ فتلك النصوص لا تعدو أن تكون بعض حقائق الاسلام الواضحة ودلائل حجته التي لا ريب فيها وبصائره للعقول ، وموازينه الثابته التي وضعها لابنائه ، في تمييزهم للاشخاص الذين يدعون لانفسهم مثل تلك المقامات العليا فيه ، وتسنمهم لتلك القمم الرفيعة من صرحه ، قبل ان يبنوا مع أي منهم علقة اسلامية معينة ، او يتخذوا منهم موقف ايجابياً أو سلبياً ، او يقتدوا باي منهم مثلاً اعلى في التزام للحق واتباع هداه.

وأخيراً فلا يخفى ما في هذه السمات والملامح العليا والشرائط المذكورة في الاحاديث السابقة من إعجاز ، أسمى من ان يستطيع احد من الناس ـ سوى اولئك الصفوة ـ الوصول اليه ، وما في صدور هذه الاحاديث منهم اضفاء هذه الملامح والسمات على ذواتهم من تحدٍ معجز تقف أمامه البشرية كلها صاغرة لا تملك ان تثبت فيه وهناً في دعوى ، أو تفاوتاً في التزام مع ما هو معروف عن ظروفهم من قسوة ، وما في مهماتهم من دقة وعظمة واستيعاب لا يقف في حياة الانسان عند حدود فردية أو اجتماعية او حضارية ، وانما هو شامل للبشرية كلها بمختلف افرادها ومجتمعاتها وحضاراتها على امتداد التاريخ .. ولا ننسى بهذا الصدد ظلم الحقب التاريخية لهم ، واغتصابها لحقوقهم ـ كما هو معروف ـ اذ لهذا الظلم كذلك أثره في تحديد المواقف ودقتها وتوجهاتها التي تضاعف من ثقل المهمة وعظم المسؤوليه ـ ولا ريب ـ.

شمول رعاية الله لجوانب شخصية المصطفى

إذن العناية الربانية الخاصة لموارد الاصطفاء الالهي من الناس ، وضمانها لاستقامة الحق في شخصية المرتضى شاملاً لكل بعد من ابعادها البارزة منها والخفية ، مستوعبان لكل طاقة من طاقاتها ، وكل قوة من قواها . فلا تحيد تلك الشخصية ولا تنحرف . ولا تقصر عن شيء من متطلبات الحق وضروراته ... سواء في اصل جبلتها ، ام فيما تمر به من مراحل النمو ، ام في فاعليتها في هذه الحياة.

فالله سبحانه هو المتعهد لها ، وهو الضامن لاستقامتها ، وهو الذي يوفي لكل مورد منها مدده المناسب ، والاسباب المناسبة والتكافؤ الدائم مع معطيات الحق ، ومقررات مبدئه العظيم.

كما يجب ان تبدأ تلك الرعاية الالهية مع المرتضى منذ مبادىء وجوده الاولى ، ثم لتبقى معه حتى آخر موقع تنتهي اليه مهمته في قيام الحق ، وان امتد هذا الموقع إلى ما بعد حياته بقرون متطاولة .

وهنا تبرز دقّة الموقف، وعظمة الشخصية المرتضاة ومبلغ دور العناية الربّانية الضامنة لإستقامة الحق فيها .

اذ علينا ان نعلم ان قيام الحق ضرورة عامّة في الوجود وليس محدد في مرحلة معينة من حياة البشرية، ولا في زمن خاص من أزمنة وجودها في هذه الارض، بمعنى انه ضرورة قائمة في الوجود التكويني ذاته ، قبل ان يكون ضرورة في حياة الانسان . وحين أنيطت مهماته في هذه الحياة – في كلّ دور من ادوارها – بنخبة مصطفاة من البشر ، ألقيت عليها مسؤولية إبلاغ هدى الله سبحانه ، وتجسيد حقائق دينه ، بما يكفل قيام حجّته على الناس في ذلك الدور بأكمله وإن كان هذا الدور أطول في الزمان من العمر الاعتيادي للانسان، اذ لا يلزم ان تستمر حياة أولئك المصطفين مع استمرار مسؤولياتهم بعد تحقق هذه الغاية كما يريده الله سبحانه.

ولهذا فقد تتجاوز هذه المهمة ومسؤولياتها حدود الوجود الشخصي لهم ، ليصبح العطاء ، والنور رصيداً أبدياً في سلوكهم ومواقفهم وكلماتهم ، يمد كلّ الأزمنة والمراحل البشرية التي أخذتها حكمة الله في تلك المهمة بالهدى والرشد والبيان، وطبيعي أن تؤخذ هذه السعة في رعاية الله التي تكلأ اولئك المصطفين أيضاً.

وهكذا فحيث اخذ في رسالة محمد (صلى الله عليه واله وسلم) أن تكون شاملة للبشرية كافّة وأن تكون هي الرسالة الخاتمة لجميع رسالات الله سبحانه ، ولتمتد – مِنْ ثَمَّ –مع البشرية حتى الفرد الاخير منها في هذه الارض ، فيجب حينئذ ان يؤخذ ذلك الشمول وهذا الامتداد في رعاية الله تعالى لشخص محمد (صلى الله عليه واله وسلم (، وأوصيائه المطهرين (عليهم السلام) ايضاً، لتقام بوجودهم وكلماتهم حجّة الله على العباد مع تلك السعة وذلك الخلود ايضاً. وهذا واضح كما سبق أن علمنا – وهو ما ترى آثاره ودلائله في أولئك الاصفياء شاهداً حياً قائماً بعد هذه الحقب المتمادية من تأريخ الاسلام وقيام كلمته في هذه الارض.

لا جبر في رعاية الله لأصفيائه

ومما يستتبع الحديث المتقدم نقطة مهمة يجب ان لا نغفل عنها ونحن بهذا الصدد:

وهي ان هذه الرعاية الربانية لاولئك المنتجبين ـ مع ضرورتها فيهم ، وسمو عطائها في آفاق شخصياتهم ، وعمقها في مكوناتهم الذاتية ـ إلا انها ـ وبأي شكل تتصور ، وفي أي عمق وأي مدى ـ

لا تعني جبراً لاي منهم في إرادة أو اكراهه على اتخاذ موقف معين ، او قسره على اتباع سلوك خاص لا يستطيع مخالفة في أي صعيد من أصعدة الحياة ـ كما قد يتصوره بعض الناس ـ ليمحي فضلهم في تجسيد الحق او استقامته المطلقة في كلماتهم ومواقفهم.

كلا .. أبداً..

فان الشخص الذي اتسعت مداركه لمعرفة ما تعنيه فضيلة من الفضائل ، وتعمق حبه لها حتى خالط إتجاهاته النفسية ، فسما بنفسه عن تركها او حتى عن التفكير في تركها.

وان الشخص الذي وعى ما في بعض الرذائل من نقائص ، وتمكن بغضها في اعماق كيانه فسما بذاته حتى عن التفكير بممارستها .. فان هذا التسامي ـ في كلا موردية ـ لا يعني ان صاحبه مجبور في أي من الحالتين.

وهذه الرعاية الالهية لمنتجبي كلمة الله انما تجري ضمن هذا الاتجاه ايضاً.

فهي ـ في جميع مواردها ومفاهيمها ـ لا تعدو مفاهيم الهدى والنور والسعة في آفاق المدارك والوعي ، وقوة الارادة ، ووضوح السبيل ، وبناء الذات وميولها واتجاهاتها على اساس الحق وحده وعلى متطلباته في السلوك ، والوقاية من ان تتأثر ـ ولو ـ ببعض ما يقصر بها عن بلوغ ذلك المستوى الرفيع .. والنصوص السابقة كلها واضحة الدلالة على هذا.

ولفهم هذه النقطة بشكل أوضح ، يمكننا ان نعود إلى ما سبق ان ذكرناه من ان عنصر الحق في دين الله انما يعني مطابقته لمقتضيات حكمة الله في خلق الانسان وما اعدته له هذه الحكمة من دور خاص بين مخلوقات هذا الوجود.

فهذه الحكمة هي التي شاءت ان تملك الانسان ما ملكته من قوى العقل والارادة واصول الاختيار ، وغيرها من الخصائص الانسانية المعروفة ، وجعلت هذه الخصائص هي وسيلته الاولى لتحقيق دوره في هذه الارض وخلافته لله تعالى فيها .. فمن الطبيعي ان تكون هذه الخصائص ـ وكما علمنا ـ هي الاصول الواقعية التي بنى عليها هذا الدين العظيم ، والسمات العامة في كل حقيقة من حقائقه ، والمكونات الاولية لكل شخصية منتجبة من شخصياته .. اذ ما كانت حكمة الله سبحانه لتختلف او لتتفاوت في أي شأن من شؤونها .. كما علمنا.

ومن الطبيعي كذلك ان تؤخذ هذه الخصائص ضمن موارد الرعاية الالهية لهذه الشخصيات المنتجبة ، والفيوض التي تضفى عليها ، اذ لابد ان تحفظ لتلك الاصول الانسانية دورها الكامل دون ادنى نقص

او تجاوز .. تماماً كما هو الامر مع غيرها من الناس وهم يسترشدون هدى الله ويتبعون بيناته.

بل وكما هو الامر مع أي انسان يحقق بعض اهدافه السامية في الحياة ، او يستشرق ببصيرته إلى بعض آفاق المعرفة .. اذ حتى مثل هذه الامور مما لا يمكن نيله بدون توفيق من الله ورعاية منه.

وكما لا تقسر هذه الرعاية احداً من الناس وهي تمده بسعة الادراك ، وتهيئ له الوسائل الكفيلة له بتجسيد هدفه المنشود ، وتعد له الظروف المناسبة لهذا التحقيق ، كذلك فان تلك الرعاية لا تقسر أحداً من اولئك الصفوة على اتباع سبيل معين من سبل الحياة ، ولا تجبره على اتخاذ موقف خاص في حادثة من حوادثها ، وان بلغت هذه الرعاية معه إلى القمة من السمو والرفعة في تكوين ذاته ، وبناء سلوكه على رصيد ثابت من الحق ، والهدى وصرفته عن أي إنحراف عنه ، او عن مقتضياته في أي موقف له في الحياة.

بل هي تجري معهم ـ وكما اشارت اليه النصوص السابقة ـ ضمن إنشاء مكوناتهم الذاتية على أكمال ما تعنيه التسوية الالهية في إنسان أمثل ، وفي توازن ما في ذواتهم الذاتية على اكمال ما تعنيه التسوية الالهية في انسان امثل ، وفي توازن ما في ذواتهم من قوى كاملة النضج والفاعلية ، وفي الهداية الرشيدة لهم في مختلف مسالك الحياة ، حيث تقف ببصائرهم على مكامن الحق في الامور ومنابع الهدى فيها ، واستيعاب مداركهم لجميع ما تعتمده حكمة الله من غايات عليا في كل موقف من المواقف ، وكل حالة من الحالات ، وعلى أي صعيد من أصعدة الحياة.

ولئلا يصبح في الحديث نوع من الغموض يمكننا فهم المسألة من خلال واقعنا المعاش ، وما يدركه كل فرد منا حين يعود إلى ذاته ويلحظ طريقة تكوينه الشخصي واتجاهاته الخاصة في الحياة.

فانا ـ مثلا وكأي انسان آخر نشأ في بيئة اجتماعية معينة لها قيمها وتقاليدها واتجاهاتها الخاصة ـ وان كنت في بداية نشأتي الشخصية في هذه البيئة ربما اجد في هذه القيم والاتجاهات اشياء بعيدة عن نفسي ، وقيوداً محددة لسلوكي الا انني وفي سبيل تحقيق الانسجام بيني وبين المجتمع ـ اتقبلها في اعماق نفسي كواقع مفروض علي ، واحاول ان اجري ضمن حدودها ، وامضي مع مقتضياتها في سلوكي وطموحاتي في الحياة ، حتى تصبح ـ مع مرور الزمن ـ جزءاً في تكويني الذاتي ، وصفة عامة لاتجاهاتي الشخصية ، مما قد يصعب علي مخالفة بعضها ، او حتى التفكير في مخالفته ولو في خطرات نفسي اذ سيصبح لها من القوة والهيمنة على النفس ما يمكنها من التدخل حتى في نظرتي للامور ـ وتصوراتي الخاصة حولها.

لكنني ـ حتى مع هذه القوة التي اجدها في نفسي لها ـ لا اجدني مسلوب الارادة معها ، ولا مجبوراً على اتخاذي ما اتخذه من المواقف او اختيار ما اختاره من صور السلوك ، وان لم افكر يوماً من الايام في الخروج عنها ، او مخالفتها وبالاخص حين تملأ بصيرتي واعتقادي العقلي ، وتصبح بعض مثلي الرفيعة في الحياة.

موارد الرعاية الالهية في اولئك الصفوة تمضي معهم ضمن هذا السبل ايضاً.

فهي وان احاطت كلاً منهم بمقتضيات الحق ، ومكنت من ذاته دلائل الهدى ، حتى بلغت معه إلى درجة الامتناع العقلي من مخالفتها في كلمة او سلوك الا انها ـ حتى مع هذه الدرجة ـ لم تبلغ معه إلى مرحلة القسر والاكراه على أي سلوك يأتيه ، او كلمة يقولها ، وان اصبح ذلك السلوك وهذه الكلمة بعض دلائل الهدى ومنار حجته في هذه الارض.

فرق ما بين التكوين الشخصي للفرد العادي والمنتجب

نعم ، ان ها هنا فوارق مهمة بين طريقة التكوين الشخصي للفرد العادي من الناس وهذه الموارد المنتجبة للرعاية الالهية الخاصة لا بد من الاشارة اليها ، ولو باختصار:

الاول : مصدر التكوين الشخصي...

فهذا المصدر في موارد الرعاية الالهية هو الله تعالى قبل أي مصدر اخر ، فعنايته الخاصة ، ومدده المباشر ، وتوفيقه الدائم ، هي الاساس الاول في تكوين بنياتهم الشخصية ، وتحديد اتجاهاتهم في السلوك وتسديد خطاهم في مسالك الحياة.

ووقايتهم من عوادي الانحراف والزلل وهذه العناية الخاصة هي كانت هي المتفردة في بناء هذه الشخصيات المنتجبة حتى قبل وجودها في هذه الارض وهي المنفردة في بنائها كذلك بعد تسويتها كما تريدها حكمة الله تعالى شواهد لدينه وأعلاماً لهداه..

فتسليم هؤلاء الاصفياء لله تعالى مطلق ، وانقادهم لامره شامل ، واتباعهم لهداه عام ...فلا ذاتيات لهم وراء ذلك التسليم ، وهذا الانقياد والاتباع ، اذ تغني مظاهر الوجود كافة ، امام الحق تعالى في تلك النفوس المطهرة ، وتعجز عن التأثير فيها ، ما لم تكن ضمن هداه وبصائر بيناته.

ولا شك ان هذه الدرجات العليا من التسليم والانقياد مما لا يؤمل تحققه في غيرهم من بني الانسان ، اذ لا يؤمن ان تتدخل في ذلك التسليم لله لدى عامة الناس ـ وان كان في ارفع مستوياته ـ عوامل

موضوعية اخرى تقصر به عن هذا المستوى الرفيع فمعروف ان هذا التسليم انما يتأتى للإنسان العادي من خلال معرفته بالله تعالى ، وادراكه لسبل الارتباط به ، والانقياد اليه ، ومن خلال الطاقات المختلفة التي يملكها في فكره ونفسه وجسده . وهي ـ كما نعلم ـ اقصر من ان تبلغ به إلى ذلك المدى المطلق من التوحيد مع الحق والتسليم اليه والانقياد له ، وان بلغ بعض الناس في هذه المجالات شأواً رفيعاً لم يبلغه الاخرون ، الا ان هذا المدى يبقى أدنى من أن يطال تلك الافاق العليا المتصورة لأولئك المطهرين : " واصطنعتك لنفسي. "

"مخصوص بالفضل كله من غير طلب ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضل الوهاب"...

الثاني : العمق الذي يعتمده الحق في بنية الذات.

فهذا العمق في الشخص المصطفى يبدأ من الأصول التي تتكون منها ذاته ، لينتهي بالتالي معها إلى كل ما تتجلى به هذه الاصول من مظاهر في بناء شخصيته ومواقفه لتنعكس من ثم ـ على الحياة الانسانية ـ كلها وما تطمح اليه من رشد.

فلا وجود في شخصية المنتجب لغير الحق ، ولا مجال لغير نوره ، فهو فيها طابع تكويني ، صيغ على اساسه كل جزء من أجزائها ، وكل مقوم من مقوماتها ، قبل ان يكون طابعاً تشريعياً يسم كل بعد من ابعادها ، وكل موقف من مواقفها كنتيجة لانتظامها مع دين الله عز وجل ، واتباعها لامره ونهيه ، ـ ليمتد ـ من ثم في كل دور لها في الحياة الانسانية عامة ، وكل مهمة لها في هدى الانسان.

هذا بينما يستحيل تصور هذا العمق في غير المرتضى الالهي من الناس .. اذ وكما سبق ان اشرنا ـ ان ارتباط الانسان العادي بالله تعالى وبهداه ، انما يتأتى له من خلال كسب ومجاهدة ، تتفاعل فيها ذاته ـ وبما تملكه من أختيار ، تتدخل في تكوينه عوامل الوراثة والبيئة التي يعيش فيها الفرد ـ مع ما تدركه هذه الذات في وعيها لحدود الحق ومناهجه ، قبل ان تنصهر شيئاً فشيئاً ـ بمرور الوقت ـ في نفاق تلك الحدود ، وليصل بها التسامي ـ من ثم ـ إلى الدرجات الرفيعة التي يريدها الانسان لذاته من الكمال والاستقامة في سبيل الله عز وجل.

ومن غير الممكن تجرد هذا التسامي وان كان في ارفع درجاته ـ عن رواسب تلك المراحل الاولية من عوامل القصور ، وما سبق ان جرى عليه من تأثر ببعض الاهواء او عدم النضج او نقص الخبرة وغيرها.

فهذه الامور وان تضاءل دورها ، او حتى انمحى هذا الدوربعد تحقق النضج والارتفاع بدرجات اتباع

الحق الا ان من الطبيعي ان يبقى من آثارها في اعماق الذات ، ولو بعض الندبات ـ وربما اللاشعورية ـ التي تشير إلى وجودها يوماً من الايام ، حيث يستحيل تجريد الخبرة وذاكرة الانسان من تلك السوابق ، وان لم يكن لتلك السوابق دور فيما وراء المراحل الاولى من حياة الفرد.

ومن الطبيعي ان يكون لتلك الندبات تاثير فعلي في الذات من حيث شعر الانسان او لا يشعر ، اذ يمكن ان يبرز بشكل او بآخر ولو في بعض الاحيان ، كما في حالات الضعف الانساني ، والازمات النفسية وشبهها ... وهذا مما لا يتصور في شخصية أحد ممن ينتجبهم الله تعالى هدة للانسانية ، واعلاماً لدينه القويم فيها.

الثالث : مدى استيعاب الحق لجنبات الذات.

وهو فارق مهم اخر لابد من الالتفات اليه ...

فالانسان العادي انما يصدر منه الحق والهدى كسمة تصطبغ به تصوراته الفكرية وميوله واتجاهاته ، وسائر مظاهر سلوكه الاخرى ... وطبيعي ان تخضع هذه السمة لعوامل القوة والضعف التي تحكم ذاته في اتجاهاتها النفسية المختلفة في المعرفة والرغبات والالتزام وغيرها . كما تخضع لعوامل القوة والضعف التي تحكم وجوده الشخصي في مختلف جوانبه الاخرى الجسدية والفكرية وغيرها.

ولهذا فان عنصر الحق ـ حتى في اسمى درجاته لدى الانسان العادي يبقى ـ كأي سلوك آخر له ـ اسير تلك العوامل جميعاً ، ولاريب انها كما تعين الانسان لبلوغ ما يريده من تلك السمة في بعض الموارد ، قد تهن به في موارد اخرى ، وكما قد تسمو به في بعض اصعدة الحياة والمعرفة قد تكبو به في اصعدة او في موارد اخرى.

وهكذا ، وكل هذا مما لا يضمن للحق شرائطه المطلقة التي لا بد من توفرها في كل الموارد والاصعدة والمواقف التي تصدر من الانسان وان بل درجة رفيعة في الاستقامة واتباع أمر الله.

اما في الشخصيات المصطفاة فان الموضوع فيها مختلف تماماً.

اذ الحق فيها ليس سمة يصطبغ بها ما يصدر منها من فكر ومواقف ، وانما هو فيها الركن الاساس الذي يعتمد عليه وجودها في هذه الحياة . قبل ان يكون منبعاً لما يصدر منها من كلمات ومواقف.

فهذه الكلمات والمواقف انما هي ـ وقبل أي ملاحظة اخرى ـ مجلى لذلك الحق الذي اعتمدته العناية الربانية في وجودهم ذاته ، قبل ان تكون مجلى لمنشأ آخر في حياتهم ومكوناتهم الشخصية ، اذ لا دور لمنشأ آخر في اختيارهم وارادتهم دون الحق ، ودون هداه ورشده ، فمنه وحده ـ ينطلقون في

ممارستهم للحياة واليه وحده ينتهون في دلائل كلماتهم ومواقفهم.

ولهذا كانت حدود الحق وحدود مسؤولياتهم فيه وفي قيام حجته بين الناس هي حدود مختلف العوامل والقوى والطاقات التي يملكها الشخص المرتضى وان تجاوزت المدى المعروف منها لدى الانسان العادي.

الرابع : واقعية القيم العليا التي يعنيها السلوك ، والكمال الذي ينتهي اليه.

وهو ايضاً فارق مهم آخر.

فالقيم العليا يقصدها الانسان العادي انما هي صورة محددة في ذهنه عن مفهوم السمو والكمال في هذا المجال من الحياة أو ذاك ، فهي ـ ولا ريب ـ ادنى من ان تحيط بالواقع الفعلي الذي تعنيه حكمة الله تعالى لهذا الكمال والسمو وان امكن ان تنتهج سبيلها حين تتضح للعقل دلائلها ، لان تصور الانسان ـ كاي سلوك آخر له ـ محكوم كما نعلم ـ بحدود الخبرة ومختلف الطاقات التي يملكها والعوامل الموجهة لاهتماماته.

هذا في حين ان تلك المثل العليا في مذهب الحق ، وفيما يصدر عن شخصياته المصطفين يجب ان لا تقصر ـ بحال من الاحوال عن المقتضيات الواقعية لحكمة الله سبحانه ـ وتجلياتها في الانسان وحياته ـ كما قلناه مراراً ومن هنا استحال على الانسان العادي ان يشرع لنفسه مذهب الحق ، إذ هو ـ بحدوده المعروفة ـ لا يملك الاحاطة بتلك المقتضيات ، مالم يسعفه هدى الله تعالى وبصائر بيناته.

ولهذا فان اقصى درجة تتصورلسمو الانسان العادي ، وارتفاعه في سلم الكمال ، انما تتأتى له من خلال فهمه لدلائل الاسلام وانقياده لحجته واسترشاد بيناته في مسالك الحياة . وهي الدرجات التي تطمح اليها فطرة الانسان ، ليستقيم في سبيل الحق ، ويسعد في حياته ، ويهنأ بما اتاه الله تعالى من نعم ، ويتم له كماله المنشود في الدنيا والاخرة.

اما السمو في شخصية المصطفى فهو ـ اولاً وقبل أي اعتبار آخر ـ احد مظاهر رعاية الله الخاصة له ، ومجالي حكمته فيه ، ولطفه ورحمته بالناس الذين كلف باقامة حجته عليهم.

فالاهداف التي يقصدها المنتجون فيما يصدر عنهم من المواقف والكلمات ، والقيم التي تستقطب اهتماماتهم انما هي مجلى للحقائق التكوينية التي جبل عليها الانسان في فطرته ، قبل ان تكون قيماً تشريعية عليا ، تسعى نحوها البشرية ، لتحقق لنفسها السعادة والهناء في حياتها.

بمعنى في سلوكها ان هذه الاهداف التي يقصدها هؤلاء المنتجبون ليست محكومة بحدود الجهد

الانساني الا بمقدار ما يتجسد به ذلك الحق في حياة الانسان تصوراً من التصورات ، او سلوكاً وموقفاً يبرز فيه المرتضى كلمة الله العليا وحجته البالغة على العباد . اما المبادئ والاسس التي تعتمدها تلك المواقف والتصورات من الحق فهي الواقع ذاته وهي مقتضيات حكمة الله في الوجود ومستلزماتها في حياة الانسان ، ومن هنا اصبح كل ما يصدر من اولئك المصطفين ـ محمد والمطهرين من آله (عليهم السلام) ـ بعض حقائق الاسلام وملتزمات رسالته الخاتمة ، تماماً كما كان الرسل والاصفياء السابقون (عليهم السلام) كل في موقعه ودوره وزمانه ورسالته.

اذن فلا جبر ، ولا اكراه لاولئك المنتجبين ، بما أحيطوا به من عناية الله تعالى ورعايته ، وفي مختلف آفاقها ومجالها ، وانما هي الواقعية في الكمال ، وانما هو شمول الحق في اصول التكوين الشخصي ومظاهره كافة ، وانما هي الوقاية وتسديد الخطى في كل امر يمضون ـ مع مسؤولياتهم الشاملة في تحقيق هدى الله سبحانه واقامة كلمته في هذه الارض ، بعيداً عن القصور والوهن اللذين يحكمان الانسان في حدوده المعروفة.

وهذا المعنى هو الذي يؤكده باحثو العقيدة الاسلامية حينما يعرضون لهذه الناحية من اولئك المصطفين (عليهم السلام) تبعاً لما نصت عليه مختلف المصادر الاسلامية الواردة في هذا المجال.

اذ يقول المرحوم السيد عبد الله شبر (قدس سره) في كتابه(حق اليقين في معرفة أصول الدين) مثلاً ـ في عرضه لمفهوم العصمة ـ:

)والعصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب مع كونه قادراً على المعاصي كلها كجائز الخطأ وليس معنى العصمة ان الله يجبره على ترك المعصية ، بل يفعل فيه الطافاً يترك معها الخطأ باختياره مع قدرته عليها ، كقوة العقل وكمال الفطانة والذكاء ، ونهاية صفاء النفس ، وكمال الاعتناء بطاعة الله تعالى) (٢٨.(

كما يقول المرحوم الشيخ النباطي البياضي في كتابه (الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم:(

)واما العصمة التي لا يقع منها عصيان ، فهي لطف يفعله الله لا يوجب الاجبار بل يجامع الاختيار ، والانسان يعلم انه يترك ذنوباً بحسب اختياره فالمعصوم يترك الجميع كذلك ، اما للطف من نفسه بزيادة عقله وعلمه ومداومته على الفكر في امور معاده وملازمته على الكلمات بخلاف غيره واما من الله تفضلاً لا يوجب مشاركة غيره فيه لكونه زائداً على القدر الواجب عليه) (٢٩.(

وبعد فان هذه الناحية هي التي يؤكد عليها كذلك مضمون النصوص الاسلامية الواردة في بيان شؤون

اولئك المصطفين (عليهم السلام) ـ كما قلت ـ حيث سبق ان اقتبسنا بعضها فيما تقدم كحديثي الامام الصادق والامام الرضا (عليهما السلام) اللذين قراناهما قبل قليل.

مبدأ العصمة الإلهية للمصطفين

اما النتيجة الفعلية البارزة للرعاية الربانية الخاصة في شخصيات اولئك المنتجبين فان من اولى معالمها الكبرى : استقامتهم المطلقة والعامة مع الحق ، ومع دلائله التي شرعها الله تعالى للناس في دينه العظيم ، ومع متطلبات الواقعية التي اقتضتها حكمة الله تعالى في خلقها للإنسان.

فلا انحراف عن الحق في موقف من مواقف اولئك الاصفياء (عليهم السلام) ولا اختلاف في شأن من شؤونهم ولا تفاوت في أمر من أمورهم ، وانما هو الحق وانما هو نهجه القويم وانما هي دلائله وبيناته العظمى.

فقد علمنا مما تقدم ـ ان هذه الاستقامة ـ وفي أدق وأشمل ما لها من معنى ـ هي الغاية الاولى من تلك الرعاية الالهية المباشرة ، والتعهد الرباني الشامل لتلك الذوات المطهرة ... لضرورة ان تمتد دلائل الحق في كل حقيقة من حقائق الدين او المذهب الذي ينتسب اليه . اذ لابد من استقامة هذا المذهب في نفسه ، وفي كل منهج من مناهجه ، وكل بعد من أبعاده ، وكل حقيقة من حقائقه ... ومن ثم في كل شخصية من شخصياته ، ولا بد من انتظامها جميعاً في منهج واحد ، هو المنهج الذي تقتضيه حكمة الله تعالى في ايجاد الانسان وبناء حياته بالشكل الذي اجرته عليه.

وقد راينا ان عموم هذه الاستقامة ، والانتظام في المنهج الالهي هو ضرورة ثابتة لا مناص منها ، ولا استثناء فيها ، رغم جميع المؤثرات والظروف التي تكتنف حياة الانسان ، او الحق لا يتفاوت بحال من الاحوال ، وان تعددت تجلياته ، بتعدد الموضوعات التي يتراءى فيها وتعدد الزوايا التي يلاحظ منها.

كما لا ريب في تحققها الفعلي أيضاً فالله تعالى هو خالق الكون ، وهو بارئ الانسان ، وهو مشرع دين الحق وهو القائم على أمره ، وطبيعي أن تنفذ ارادة الله في الوجود ، وأن يمضي حكمه في المكونات وفي سننها كافة بما فيها الاسلام دين الله تعالى.

وكما لم تتخلف هذه الاستقامة في فكرة من فكر الاسلام ، ولا في منهج من مناهجه ، او في حكم من احكامه ، لا يمكن ان تتخلف كذلك في شخصية من شخصياته المنتجبة أيضاً ، اذ هي ـ بعد تحقق

الالتزام الرباني لها ـ تصبح واحدة من تلك الحقائق الثابتة لدينه ، بل وهي تصبح ـ بهذا الالتزام ـ رافداً مهماً من روافد كلمته ، ومنبعاً رئيسياً من منابع حجته على العباد ، ومجلى تتبلور فيه حقائقه جميعها في الواقع الانساني المعاش .

ومن هنا كانت ضرورة الرعاية الالهية التي علمناها في البحث السابق.

اذن ، فاستقامة الحق في منتجبيه تعتبر واحدة من المستلزمات الاساسية لاصطفائهم من الله سبحانه حيث يستحيل تحقق الغايات الاولى لهذا الاصطفاء بدونها ، لان عدم الضمان الرباني لتحقيقها فيهم يعني ايكال امر الحق ودينه القويم إلى من لا يؤمن منه الانحراف والشطط ، وهذا مما يستحيل تصور وقوعه كما سبق أن عرفنا.

ولهذه الاستحالة نفسها ، كان من الضروري أن لا تختص هذه الاستقامة في بعض جوانب تلك الشخصيات المرتضاه دون جوانب أخرى ، ولا في بعض المواقف منها دون بعض ، ولا في بعض حالاتها دون غيرها ، ولا بعض مراحل حياتها دون سواها . بل يجب ان تكون عامة منهم ، شاملة لهم ، محيطة بكل جانب من جوانبهم وكل موقف وكل حالة ولكل مرحلة لهم في الحياة فقد قلنا : ان حدية الحق مما يستحيل فيها التجزئة والنسبية والاستثناء.

وكل واحدة من هذه النقاط واضحة كل الوضوح ، ولا سيما بعد المسيرة التي قطعناها من الحديث.

فقد علمنا ـ أولاً ـ أن هذه النواحي كلها هي من الشؤون التي يعنيها الاصطفاء الالهي ذاته.

فمعروف ان سعة هذا الاصطفاء وآفاقه يجب أن تواكب ما للدين نفسه من سعة في الافاق ، وهذه الافاق بدورها تتبع ما يعنيه الحق من دلائل وشرائط في حياة الانسان ، وما لحكمة الله سبحانه من مقتضيات في تكوين الخلق وإنشاء مختلف مظاهر الموجود ـ بما فيها الإنسان ـ.

ولئن تكلفت قدرة الله سبحانه لغير الاختيار من الانسان ما يستقيم به وجوده وكماله من السنن والقوانين الحتمية فأجرتها فيه من حيث يشعر او لا يشعر ، فانها شرعت للاختيار منه هذا الدين العظيم ، وما فيه من احكام تحمل صبغته ، ليكون هو السنن التي يبلغ بها إلى تلك الغاية العليا بدوره ومن خلال سبله وافاقه الادارية.

اذن فكل جانب وطبيعة اختيارية في الانسان هو مورد لدين الله تعالى واحكامه ، لانه في الاساس مجلى لحكمة الله تعالى ومظهر لقدرته وتدبيره.

ولان ذلك الشخص المرتضى لاقامة هذا الدين في البشرية ، وتحقيق رسالته فيها هو المثل الشاخص

لكيانه في الحياة ، فطبيعي ان لا يتصور منه قصور في وجوده وحياته وفي كل مايصدر عنه ـ دون تحقيق ما لهذا الدين من واقع ، ماله من غايات كبرى في هدى الانسان ، وصلاح أمره دون إنحراف او وهن.

كما علمنا ـ ثانياً ـ ان الانسان كيان حيوي واحد يستحيل فيه التفكيك او التجزئة في بنائه الشخصي ، اذ ان كل بعد من أبعاد هذا البناء له دوره وآثاره في سائر الابعاد الاخرى ، وله دلالاته في أي حالة يكون عليها الانسان ، وفي أي موقف يصدر منه.

فهناك وشائج متينة بين كل بعد وآخر ، وهناك علاقات وثيقة (بارزة او خفية) تربط بين مختلف المواقع والاصعدة ، التي يتكون منها هيكل الانسان ، وينتظم منها وجوده وتستقيم حياته.

وحينئذ فما لم تكن تلك الاستقامة عامة في جنبات تلك الذوات المصطفات كافة ، او في مختلف ركائزها واعماقها ، ولا يمكنها ـ بحال من الاحوال ـ ان ترقى إلى مستوى الحق او تحوي شيئاً من شرائطه ، بذلك المدى المطلق والعام الذي قلناه . في حين اننا علمنا ان شرائط الحق في دينه حدية لا نسبية فيها ولا تبعيض.

ولهذا السبب قد اختلفت الموازين العامة في اولئك المصطفين عن الموازين المتبعة في غيرهم من الناس ، سواء في الخصائص الذاتية ، او في مظاهر السلوك ، ام في النتائج التي ينعكس بها هذا السلوك على الحياة الانسانية بشكل عام.

ولهذا ، فحيث يكتفي من سائر الناس ـ مثلاً ـ باتباع هدى الله تعالى والانقياد لامره ، وتجنب نهيه في مستوى القصور الفكري والسلوك العملي ، لتعطي ـ من ثم ـ درجات النجاح والفوز عند الله سبحانه إلى من حقق في حياته تلك المفاهيم ، فإن ذوي الاصطفاء الالهي لا يكتفي منهم بهذا الحدود ، وان كانت في اسمى مستوياتها.

سبل المقاييس فيهم تنفذ إلى كل محل مكون لشخصياتهم وكل مقوم فيها والى كل اصل وفرع من وجودهم ، قبل ان تستوعب كل حالة من حالاتهم ، وكل موقف من مواقفهم ، بل وتمتد إلى كل نتيجة تتأتى من هذه المواقف في عطائها وإشاعاعها على الحياة البشرية ، ضمن الدور الذي أعده الله لكل منهم فيها.

وهكذا فلا خطأ ولا غفلة ولا نسيان ، بل ولا اختلاجة نفس ، تتفاوت فيها ذواتهم المطهرة عن استقامة الحق ، أو تنحرف عنه ، ولو في مجال الاحتمال ... فكل ما يصدر عنهم انما هو من الحق ،

وكل ما تأتي منهم انما هو بعض بصائره ودلائله ، وكل ما يبرز منهم انما هو افق من آفاقه ـ دون استثناء ، او وهن يمكن ان يتصور في دلالة او حتى احتمال ولو ضعيف.

وعلمنا ـ ثالثاً ـ ما يعنيه النمو والتطور في قابليات الانسان وطاقاته من دلالة على قصور هذه القابليات ولو في مدأ تكوينها . وما لهذا القصور من آثار على كمال شخصية الفرد ، ونتائج في تحقيق استوائها ، وهي قد تكون نتائج سلبية تبقى مع هذه الشخصية حتى مراحل نضجها الكامل.

ولهذا فما لم يكن الضمان الالهي لاستقامة الحق في شخصية المصطفى شاملاً لحياته كلها ، محيطاً بمراحل عمره كافة لا يمكن ان يؤمن تأثره ببعض الموهنات ، او عوامل الانحراف ، ولو في بعض أدوار حياته ، وهي موهنات قد لا تختص آثارها السلبية في حدود معينة من شخصيته ، ولا في مرحلة دون أخرى من مراحل حياته ، وانما هي قد تمتد إلى جميع آفاقها ومراحلها ، ولو في درجات الاحتمال الضعيف ، الا ان مثل هذه الدرجات وان استسيغت من سائر الناس العاديين ولم تؤثر عليهم في درجات فوزهم عند الله تعالى ، الا انها غير مستاغة أبداً في موارد الاصطفاء الالهي ، ـ كما قلنا اذ الحق لا يتعدد ولا يتفاوت بحال من الاحوال.

وهنا لا بد لنا من ان نتذكر ما أشرنا اليه سابقاً ـ أيضاً ـ من ان هذه الاستقامة وان بلغت هذا المدى الشامل والحدي الدقيق لدى أولئك الصفوة فهي لم تتأت لهم من خارج متطلبات انسانيتهم ، او دون حدودها الاختيارية ، بل هي تجري ـ وكما لاحظنا ـ ضمن هذه السمة الطبيعية التي جبلت عليها فطرة الانسان ، وهذه الحدود التي أنشاتها عليها حكمة الخلق والتكون.

كما لا غرابة في هذه الاستقامة ، ولا في أي أفق من آفاقها او شروط من شرائطها بعد أن اخذ لطف الله سبحانه ورحمته على نفسه ضمانها في اولئك المنتجبين (عليهم السلام (، بل وهي ضرورة وجودية لا بد منها ، بعد ان كانت هي المظهر الاسمى الذي تتجلى به حكمة الله تعالى في الوجود الانساني خاصة ، والوجود التكويني بشكل عام.

وهذه الاستقامة المطلقة التي تتجلى في أولئك المنتجبين هي التي سمت في الاصطلاح الاسلامي بـ (العصمة. (

فالعصمة ـ كما يقول الشيخ (زين الدين) في كتابه القيم (الإسلام ، ينابيعه ، مفاهيمه ، غاياته:( )رصيد نفساني كبير يتكون من تعادل جميع القوى النفسية ، وبلوغ كل واحدة منها أقصى درجة يمكن أن يبلغها الانسان ، ثم سيطرة القوى العقلية على جميع القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة

حتى لا تشذ عنها في أمر ، ولا تستقل عنها في عمل.

)هذه الحصانة الذاتية التي يرتفع بها الانسان الاعلى عن الاتضاع في طبيعته ، ويمتنع بها عن الانزلاق في ارادته ، ثم عن الانحرافات والالتواءات التي تترسب في منطقة اللاشعور، وتتحول – كما يقول العلماء النفسيون – عقداً نفسية تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه، وفي اتجاهاته وملكاته ، وتسوقه من حيث لا يريد إلى النشوز عن الحق والشرود عن العدل.

)هذه الحصانة الذاتية التي توقظ مشاعر الانسان الكامل فلا يغفل ، وتعتلي بملكاته واشواقه فلا ينزلق ولا يكبو ، والتي تكفل له صحته النفسية من كل وجه.

)هذه العصمة التي يشترطها مذهب اهل البيت في الرئيس الاعلى لحكومة الاسلام. وفي ظني انّه شرط بمنتهى الجلاء ، كما انّه بمنتهى الحكمة.

..)بمنتهى الجلاء بعد أن كشفت مدارس التحليل النفسي حقيقة الرواسب وأبانت مدى تأثيرها في سلوك الانسان ووجهته في الحياة ... وبمنتهى الجلاء بعد أن وضعت التربية النفسية الحديثة طرقها لحل هذه العقد وللابتعاد بالنشء عن هذه الازمات.

..)في ظني انّه شرط بمنتهى الجلاء والوضوح بعد أن سار العلم هذا الشرط ، وفرغ من تقرير هذه النتائج.

)من جراء هذا الضعف المتوطن في طبيعة الانسان حين تتعرض له المغريات والمرديات.

)ومن جراء العقد اللاشعورية الخالفة في نفس الانسان من صدماته في الحياة وانزلاقاته في الارادة ، وترديه بسبب الجهل او بسبب الهوى.

)ومن أجل طبيعة النظام الذي أنشأت لصيانة الحكومة في الاسلام ، ومن أجل غاية هذا الدين الكبرى التي تتصل بها كلّ جذوره وتستقي منها كلّ فروعه.

)ومن أجل الادلة الكثيرة .. الكثيرة ، التي تجاوزت حدود المئات ، ودلّت على وجوب العصمة في الامام بعد ان دلّت على وجوب العصمة في الرسول.

..)من جراء هذه الامور كلّها قالت الشيعة من اتباع اهل البيت (عليهم السلام (بوجوب العصمة في الامام بعد أن قالت بوجوب العصمة في الرسول (صلى الله عليه وآله وسلّم)(٣٠.(

من اسباب القصور في فهم العصمة

اذن فالعصمة مبدأ ضروري لابد منه في موارد الاصطفاء الالهي..

وهو مبدأ واضح الضرورة وواضح التحقق ، حين تقاس القضايا بهذه المقاييس الإسلامية المتماسكة ، وحين ينظر اليها من خلال متطلبات الحق وتسلسل شرائطه في تلك الذوات المطهرة ، وحين يستلهم من نصوص الإسلام الثابتة والمسلمة لدى جميع المسلمين.

امّا الاشكالات التي وجهت إلى هذا المبدأ والشبه التي وضعت في سبيله ، فهي – مع غض النظر عن منزلة من صدرت منهم – انّما تنطلق من اسس قاصرة الفهم ، لم تسمُ في نظرتها إلى ما تعنيه آفاق الحق ، ولم تتسع لموازينه، ولم تستقم مع متطلباته ، ولم تعط لدوره الكبير أهمية العُظمى في الوجود ، ولم تقدّر لقيامه في الارض منزلته الكبرى عند الله جلّ شأنه.

اجل، هذا هو الواقع المشهود في تلك الشبه ، وأي ملاحظة – ولو سريعة – يمكنها أن تؤكده للباحث الحر دون أي عناء.

فهي – أولاً – قد لا ترى أن لدين الله العظيم ذلك الارتباط المطلق بالحق ، وذلك الامتداد الطبيعي لحكمة الله تعالى ومتطلباتها في الإنسان والكون ، ولا ترى أن ذلك الارتباط وهذا الامتداد هما الأساس الثابت الذي نهض عليه كيان الإسلام ، وأقيمت حقائقه ، وانتظمت به شؤونه، وشرّعت عليه أحكامه لكي يتجلى هذا الحق – من ثم – ركناً ثابتاً في شخصياته المنتجبة التي اصطفاها مشرّعه الحكيم تعالى شأنه.

أو انّها – ثانياً – قد لا ترى ان لقيام الحق أو لتحقق شرائطه في دين الله تعالى تلك الأهمية الكبرى التي تستحق من لطف الله ورحمته التفاته خاصة تضمن تجليها ولو في بعض الأصفياء ، وإن اتّضح التزامه لهم شهداء على خلقه، وأقام على هذا الالتزام كلّ ما هو جلي من الدلائل والآيات الواضحة ، والشواهد المعجزة.

أو انّها – ثالثاً – قد لا ترى انّ الاهداف العليا التي يقررها الاسلام ويترسمها في مناهجه ، ويدعو اليها في بصائره يمكن أن تتحقق في الواقع الفعلي للإنسان ، وان تتبلور ولو من خلال أصفياء الله تعالى ومنتجبيه (عليهم السلام) ، وأن تعهدتهم رعاية الهية خاصة وضمنت إستقامة الحق فيهم ، مما يعني أن تلك القيم والمثل والأهداف الإسلامية كلها لا تعدو – لدى مصادر هذه الشبه – عالم الفكر والتصور البعيد عن الواقع أو التحقق الفعلي.

أو انّها – رابعاً – تستبعد على قدرة الله تعالى استطاعتها في توفية الأرضية المناسبة في ذوات بعض

الناس لتحقيق هذه الدرجة العليا من الكمال الإنساني بالفعل.

أو انّها – خامساً – تخلط – عن عمد أو لا عن عمد – بين تجليات الكمال الالهي المطلق في ذات الله سبحانه وصور الكمال الإنساني المحدود ، فاعتبرت العصمة والاستقامة مع الحق واحدة من تجليات ذلك الكمال المطلق التي يستحيل تحققها من عالم الإنسان.

إلى غير هذه النواحي التي يمكن أن تُرى بوضوح في كلمات أولئك الناقدين لمبدأ العصمة والمستبعدين لتحققه في أولياء الله المصطفين . وهي – وكما نراها بوضوح أيضاً – نواح ناشئة من رواسب بعيدة عن الحق ، قاصرة عن دلائله شاذة عن مقتضياته.

العصمة من خلال المنطلقات القاصرة

هذا ، ومع أنني – حتى الآن – لم أحاول ، بل ولم أرغب الدخول في أجواء علم الكلام ، أو انتهاج طرائقه في الاستدلال أو النقض – بالرغم من أن موضوعنا الذي نحن فيه يعتبر بعض مسائله المهمة – لأن لتلك الأجواء والطرائق مستلزماتها التي لا تتناسب ومنهجنا في الحديث إلاّ أنني – وقد وصل الحديث بنا إلى هذه النقطة الحساسة – اجد نفسي مضطراً لاستعراض ولو نموذج واحد من آراء المتكلمين الذين تناولوا موضوع العصمة ، ولكن من خلال تلك المنطلقات القاصرة التي أشرت اليها ، لكي نرى مدى التفاوت الكبير بين تلك الاوليات الاسلامية الواضحة وآثار تلك الرواسب التي قصرت بالبصائر عن أن تمضي مع النور إلى آخر المدى ، وان وجدت معالم الحق أمامها واضحة كلّ الوضوح.

يقول الفضل بن روزبهان:

)انّ أهل الملل والشرائع – بأجمعهم – أجمعوا على وجوب عصمة الأنبياء ، عن تعمد الكذب فيما دلّ المعجز القاطع على صدقهم فيه، كدعوى الرسالة فيما يبلغونه عن الله تعالى إلى الخلائق. اذ لو جاز عليهم التقول والافتراء في ذلك عقلاً– لأدى إلى إبطال دلالة المعجزة ، وهو محال.

وفي جواز صدور الكذب عنهم – فيما ذكر – على سبيل السهو والنسيان خلاف ، فمنعه الأستاذ أبو اسحاق ، وكثير من ألائمة الأعلام ، لدلالة المعجزة على صدقهم في الأحكام، فلو جاز الخلف في ذلك لكان نقضاً في دلالة المعجزة وهو ممتنع.

وامّا سائر الذنوب ، فهي امّا كفر أو غيره.

امّا الصغائر والكبائر كل منها إمّا أنْ يصدر عمداً أو أن يصدر سهواً ، أمّا الكبائر فمنعه الجمهور المحققين ، والأكثر على أنة ممتنع سمعاً. قال القاضي والمحققون من الأشاعرة انّ العصمة فيما وراء التبليغ غير واجبة عقلاً اذ لا دلالة للمعجزة عليه فامتناع الكبائر عنهم عمداً مستفاد من السمع وإجماع الأمّة قبل ظهور المخالفين في ذلك . وامّا صدورها – سهواً ، أو على سبيل الخطأ في التأويل –فالمختار عدم جوازه.

وامّا الصغائر عمداً فجوّزه الجمهور ، وامّا سهواً فهو جائز إتفاقاً بين أصحابنا، وأكثر المعتزلة الاّ الصغائر الخسيسة كسرقة حبة أو لقمة مما ينسب صاحبه إلى الدناءة والخسة والرذالة) (٣١(

ويمضي الفضل بعد استعراض لهذه الأقوال في الاستدلال على ما يراه فيقول في بيان أدلته:

الاول : لو صدر عنهم ذنب لحرم اتباعهم فيما صدر عنهم ضرورة أنّه يحرم إرتكاب الذنب ، واتباعهم واجب للاجماع ، ولقوله تعالى (إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله)(٣٢.(

وهذا الدليل يوجب وجوب عصمتهم عن الصغائر والكبائر ، لكن في الصغائر تجويز عقلي لدليل آخر كما سيأتي.

الثاني : لو أذنبوا لردّت شهادتهم ، إذ لا شهادة للفاسق بالاجماع ، واللازم باطل بالاجماع ، لأنّ من لا تقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين القيم إلى يوم القيامة ؟

وهذا الدليل يدل على وجوب عصمتهم عن الكبائر والاصرار على الصغائر لأنّها توجب الرد لا نفس صدور الصغيرة.

الثالث: إن صدر منهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم ، لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وايذاؤهم حرام إجماعاً.

وأيضاً لو أذنبوا لدخلوا تحت قوله تعالى : (ومن يعص الله ورسوله فانّ له نار جهنم .(33)(

وتحت قوله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)(٣٤.(

وتحت قوله تعالى ، لوماً ومذمة : (لم تقولون ما لا تفعلون)(٣٥.(

وقوله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)(٣٦.(

) فيلزم كونهم موعودين بعذاب جهنم وملعونين ومذمومين ، وكلّ ذلك باطل إجماعاً ، وهذا الدليل أيضاً على عصمتهم من كلّ الذنوب..) (٣٧.(

ثمّ يقول الفضل بعد شطر من كلامه:

) ثم اعلم انّ تحقيق هذا المبحث يرجع إلى تحيق معنى العصمة ، وهو عند الأشاعرة – على ما يقتضيه أصلهم من استناد الأشياء كلّها إلى الفاعل المختار إبتداءً – ان لا يخلق الله ذنباً ، فعلى هذا يكون الأنبياء معصومون (كذا) من الكفر والكبائر والصغائر الدالة على الخسة والرذالة، وامّا غيرها من الصغائر فانّهم يقولون لا يجب عصمتهم عنها لانها معفوّ عنها بنص الكتاب من تارك الكبيرة:

)الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الاّ اللمم انّ ربّك واسع المغفرة هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)(٣٨.(

دلت الآية على أنّ مجتنب الكبيرة والفاحشة معفوّ عنه ما صدر من الصغائر عنه، وفي الآية إشارة إلى أن الإنسان لما خلق من الأرض ونشأ منها فلا يخلو عن الكدورات الترابية التي تقتضي الذنب والغفله فكانت بعض الذنوب تصدر منهم بحسب مقتضى الطبع ، ولما لم يكن خلاف ملكة العصمة فلا مؤاخذة به.

وامّا العصمة عند الحكماء فهي ملكة تمنع من الفجور ، وتحصل هذه إبتداءً بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات ، وتتأكّد في الأنبياء بتتابع الوحي اليهم بالأوامر الداعية إلى ما ينبغي ، والنواهي الزاجرة عما لا ينبغي.

ولا اعتراض على ما يصدر عنهم من الصغائر سهواً أو عمداً عند من يجوّز تعمدها – ومن ترك الأولى والأفضل ، فإنّها لا تمنع العصمة التي هي الملكة ، فان الصفات النفسانية تكون في إبتداء حصولها أحوالاً ثم تصير ملكات بالتدريج.

ثم انّ الأنبياء مكلّفون بترك الذنوب ، مثابون عليه، ولو كان الذنب ممتنعاً عنهم لما كان الأمر كذلك اذ لا تكليف بترك الممتنع ولا ثواب عليه.

)وأيضاً فقوله : (انّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ..)(٣٩) يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحي لا غير .. فلا يمتنع صدور الذنب عنهم كما في سائر البشر..) (٤٠.(

نعم ، من هذا المنطلق الضحل المتهافت يتناول المتناولون هذا الركن الأساس من دين الله تعالى ،وعلى هذه القاعدة المتداعية يحاولون أن يقيّموا هذه الركيزة الإسلامية الكبرى التي يعتمدها الإسلام نفسه في وجوده وقيام صرحه ، وبلوغ حجته إلى الناس ، واستكمال كلّ بيّنة من بيّناته.

..النبي شخص عادي من سائر الناس ، لا يحمل في نفسه أي مؤهلات ذاتية، ولا يستحق من الله أي عناية خاصة لأنه لا يفترق عن غيره من الناس الاّ بأنّه موحى اليه من الله تعالى لا غير.

ولأنه بشر خلق من طين هذه الأرض وأنشيء من ترابها، فطبيعي أن لا يخلو من الكدورات الترابية التي تقتضي – بذاتها – الذنب والغفلة ، كما تقتضي التغذية والتنفس والارتواء من الماء، بمعنى انّ الذنب والغفلة عنصران طبيعيان في وجود الانسان ، يستحيل عليه مجانبتهما كما لا يستطيع تجنب الغذاء والماء والهواء وسائر العناصر الطبيعية الضرورية لوجوده.

ولهذه الحتمية استحالة حتى على الله سبحانه بارئ النبي ومنشئ تكوينه، ومدبّر أمره أن يهيئ فيه من أسباب الطهر من تلك الذنوب ما يستطيع أن يُبرَّأ به عن كلّ دنس منها، إلاّ إذا قسره وأجبره على مثل هذا الارتفاع لتكون العصمة بالتالي مانعة له من التكليف ، ومن الثواب عندما يترك المعصوم تلك المعاصي إذ لا تكليف ولا ثواب مع الجبر.

ولكن يا ترى ، كيف امكن أن تتحقق العصمة من الكفر والكبائر المتعمدة، والكذب في دعوى الرسالة، فهي كسائر الذنوب أيضاً ولا شكّ أنّها كذلك بعض الكدورات الترابية الدخيلة في تكوين النبي. أي أنّها انّما تصدر منه بحسب مقتضى طبعه أيضاً ؟

وهل أنّ الأنبياء مجبورون على تركها بتلك العصمة ، فلا تكليف عليهم بتركها ، ولا ثواب لهم على هذا الترك إذ لا تكليف بترك الممتنع ولا ثواب عليه ؟

وهل .. ؟ وهل .. ؟

ولا أحاول الاستطراد في التساؤل حول النقاط، التي عرضها الفضل بن روزبهان، فما فيها من وهن وتهافت أوضح من أن يخفى على ذي فطنة أو يغيب على لبيب.

ولكن السؤال الأكثر أهمية في المسألة هو : هل أن تناول العصمة ... هذا الأصل الإسلامي الكبير من هذه المنطلقات القاصرة، وعلى هذه الأسس المتهاوية هو السبيل المناسب للتعرف على دلائل حجة الله تعالى ، وبيّنات بصائره ؟ وهل هذا هو الصراط الأسلامي المستقيم للإنسان ، وهو يتطلع إلى إدراك الحق في أصفيائه واستقامة شرائطه في منتجبيه ؟

واين هذا المنهج المتداعي عن الدلائل الإسلامية الرشيدة وهي تتناول هذا الصرح الإسلامي العتيد من خلال منطلقاتها الثابتة ومناهجها المستقيمة ، لتكن المعجزة – كما هو الحق – كافية في تصديق الرسول – أي رسول – بدعواه السفارة عن الله عزّ وجل ، وأنّه مرسل بأمره إلى العباد ، ولكن يا ترى هل أنّ دعوى الرسالة تقف عند هذا الحد؟

أليس في هذه الرسالة أحكام وحدود وتصورات وحقائق لابد للرسول من بيانها للناس في أقواله

وأفعاله وفي كلّ ما يصدر عنه ؟

وها هو القرآن الكريم يؤكد هذه المهمة في شخص الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) اذ يقول:

)يا أيّها النبي انّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)(٤١.(

إذن فكيف نستلهم أحكام تلك الرسالة وحقائقها وحدودها من شخصية لا تؤمن مخالفتها لتلك الحقائق والأحكام.

والى أي مدى يمكن للأمّة أن تقتدي بهذه الشخصية وتسترشد هداها في مسالك الحياة ؟

وأين يكمن الحق في سلوك شخص يخالف فعله قوله ، أو يتفاوت في أقواله وأفعاله ؟

وكيف يمكن الايمان بواقعية دين الله بل والايمان بأنّه (فطرة الله التي فطر الناس عليها)(٤٢) مع دعوى استحالة ان يستقيم أحد من الناس في سبيله ، حتى ولو كان هذا الفرد هو من أولئك الأصفياء الذين اختارهم الله لتبليغ حجته، والقيام على أمره؟

بل وما معنى أن يلتزم دين الله عنصر الحق قيمة عليا له، وهو يصطفي أشخاصاً لا يؤمن منهم الإنحراف ؟ ولا توثق منهم الاستقامة معه ؟

وهكذا إلى العشرات من الأسئلة التي ترد في هذا المضمار المهم ، مع الاعتماد على هذا المنطلق المتهافت في فهم مبدأ العصمة ، دون أن تجد لها إجابة واضحة متكاملة ، ولتتهاوى – من ثم – جميع ركائز الإسلام وبيّناته وحقائقه . وهي نتيجة لا أعتقد أن أحداً من المسلمين يرتضيها لنفسه.

ولهذا فلا نحاول الدخول في مناقشات تفصيلية مع الفقرات السابقة من حديث الفضل ، ولا رؤية ما فيها من تضارب وتكذيب بعض الفقرات السابقة من حديث الفضل ، ولا رؤية ما فيها من تضارب وتكذيب بعض فقاراته للبعض الآخر ، كما في تأكيد الفضل بأنّ الدليل الأول والثالث يستوجبان القول بعصمة الأنبياء من الذنوب كافّة ، فهو حكم عقلي بالعموم ، والحكم العقلي – كما هو معروف – مما يستحيل تخلفه في موضوعاته أو تخصيصه ببعضها ، لأنّه ينتهي إلى التهافت والتناقض الصريح ، فكيف صح منه استثناء الصغائر وعدم منافاتها للعصمة . في حين أن الدليل الذي ذكره لتسويغ الصغيرة انّما سوغها لا باعتبار انّها ليست ذنباً من الذنوب ، وانّما لسعة مغفرة الله تعالى ورضوانه ، وتجاوزه سبحانه عمن أذنب بمثل ذلك اللمم من الذنوب.

ثم .. ما معنى إعتماد الأجماع في الحديث حول أصل اعتقادي مهم يعتمده وجود الإسلام نفسه

كالعصمة – بينما الإجماع – على تقدير إعتباره وان كان بهذا الشكل الواهي – انّما هو أصل من أصول استنباط الأحكام الشرعية التي يكون الحديث فيها متأخراً عدة مراتب بعد فرض ثبوت العقائد ؟ ، وهكذا.

الشرائط الموجبة للعصمة

أجل .. انّ العصمة انّما طرحت كواحدة من المفاهيم المهمة والسمات الضرورية في بلورة أصلي النبوة ، والإمامة من أصول الاعتقاد ، وحتى أولئك الذين استثنوا منها السهو والغلط وصغائر الذنوب اضافة إلى غيرهم من المسلمين انّما اشترطوها فلأجل تلك الأدلة العقلية التي أوجبتها وأوجبت في حكمة الله سبحانه ورحمته بالناس ضمانها ورعايتها في أولئك المصطفين، لتحقيق الأرضية المناسبة لقيام هداه في الحياة إذ لا يمكن بلوغ تلك الغايات الكبرى للاصطفاء الإلهي بدونها ، كما أن أي خروج من المصطفين عن متطلباتها انّما يعني التفاوت في ذات دين الله سبحانه ، وعجز قدرة الله جلّ وعز، عن إحكام آياته. وهذا محال كما هو واضح.

وهذه – كما نراها – نقطة مبدئية أولى تتعلق بذات الإصطفاء الإلهي ودلالاته وغاياته ، فهي سابقة على مرحلة تسلّم أولئك الأصفياء لمهماتهم في هذه الحياة كما تستبق مسؤولية الناس في الارتباط بهم ، وامتثال أمر الله سبحانه بالاقتداء بهم ، واتباع أمرهم ، واعتماد سبيلهم مسلكاً للوصول إلى رضوانه تعالى في صغائر الأمور وكبائرها على حد سواء.

ومن هذا المنطلق بالذات يجب فهم العصمة وفهم انعكاساتها في دين الله وفي البشرية معاً، وهو – كما نراه – منطلق واضح الأسس، جلي الدلائل ، وهو يثبت هذه العصمة وضرورة استيعابها لشخصيات أولئك المنتجبين كافّة ولجميع مكوناتهم ومواقفهم وحالاتهم ، دون أي استثناء أو تخلف ، فالاستثناء والتخلف – وكما أشرت مستحيلان ، لأنّ عموم الأسس التي يعتمدها مبدأ العصمة في الحق ، وفي دين الله وفي غايات الاصطفاء – عموم حدّي يمتنع تفاوته في موضوعه بحال من الأحوال ، الاّ حيث يصح الالتزام بنسبية الحق ، أو عدم اكتمال الهدى في دين الله تعالى أو إمكان العجز في قدرة الله (جلّ وعز (وكلّ هذا مما لا يستساغ الالتزام به من عاقل يعي ما يقول.

ولا يعنينا هنا الديث حول أدلة العفو الإلهي ومغفرة الله لبعض الذنوب ، إذ الكلام هنا ليس في المؤاخذة على الذنب أو عدم المؤاخذة عليه ، ولا في آثار بعض الذنوب على الإنسان ، بل الكلام هنا

انما هو في استيفاء المرتضى لجميع شرائط الحق ، حيث انتجبه الله تعالى علَما له ، واصطفاه من أجل إقامة حجته ، وهو أمر لا تختلف فيه الذنوب شدّة وصعفاً ، أو صغراً وكبراً ، بعد أن كانت جميعها تعني الإنحراف عن استقامة الحق والخروج على وحدة منهجه ، وهي استقامة حدية لا عوج فيها – كما علمنا ، ووحدة ثابتة لا نسبية فيها ولا تهاون.

ولا يبرّر هذا الإنحراف والخروج بتخصيصه بصغائر الذنوب وحدها أو بما يصدر من المنتجب عن سهو أو غفلة ، بعد أن كان ما يأتيه هذا الإنسان منها فاحشة أو انحرافاً عن تلك الاستقامة التي يجب أن تتجلى فيه بشكل حدي مطلق، تتوحد فيه كلمة الحق وعنوان حجته.

إذن ، فلا محيص عن القول بعصمة شواهد الحق الذين اصطفاهم الله تعالى هداة لدينه ، ولا محيص عن القول بعموم هذه العصمة في أي مجلى تكويني لوجودهم وشخصياتهم ، وفي أي عمق تعتمده ذواتهم أو في أي كلمة أو سلوك يصدر منهم ، وفي أي مرحلة من المراحل أعمارهم وفي أي حالة يكونون عليها.

فلا صغائر تصدر منهم ، ولا غفلة ولا نسيان في أي أمر أو صعيد في حياتهم.

ومدد الله عزّ وجلّ ورعايته المباشرة هما الضمان الفعلي لتحقيق هذه الدرجة المطلوبة من العصمة.

واصطفاء الله تعالى لهم وارتضاؤه إياهم هداة لبريته ، هما الشاهد المصدّق لهذا الضمان.

ودين الله العظيم الذي استوجب – لتصديق أنبيائه وأصفيائه – خرق الكثير من نواميس الطبيعة وقوانينها من أجل قيام حجته بهم على امتداد تأريخه في البشرية جدير بأن يستوجب – لهذه الغاية أيضاً – اكتمال هذه النواميس ولو في أولئك الأنبياء والأصفياء ليبلغوا في فطرهم وحياتهم إلى كمالهم الأعلى ، لأنّ هذا الكمال هو الغاية الأولى التي يهدفها هذا الدين العظيم نفسه في واقع الأنسان .

وإذن فليكن رسل الله وأنبياؤه وأصفياؤه (عليهم السلام) هم مجالى هذا الكمال ومظاهره الواقعية ، لأنّهم القائمون بأمر هذا الدين ، ومثله الشاخصة أمام البشرية ، وهم موارد اقتدائها في سبيله القويم.

أمّا ما يرد من روايات وأحاديث تخالف هذه القاعدة اليقينية ، فهي مما يجب توجيهه بما يستقيم معها حيث يمكن هذا التوجيه ، والاّ فلابد من ردها إلى من قالها لأنّها لا تعني – في موازين الحق – غير كونها شبهة في مقابل البديهية.

وما أكثر ما أدخل على نصوص الأسلام ما ليس منها .. إذ لا شكّ انّ للباطل جهوده المستميتة لطمس

معالم الحق في سبله ، ولا سيما في هذه المراحل الأولى من العقيدة ، لما لها من دور كبير في اقامة أسس الهدى ، وتشريع مناهجه.

ولهذا فحيث يستطيع الباطل أي يضع لنفسه قدماً في هذه المراحل فانّه سيكسب من النتائج – ولا ريب – ما لا يمكن أن يناله في مراحل أخرى ، أذ سيستطيع أن ينحرف بالبصائر عن استقامة الحق ، ويتفاوت بها عن وحدته وهدي بيناته بشكل أسهل وأجدى له من المراحل الأخرى.

ولا ننسى بهذا الصدد ما للسياسة من دور مشبوه في هذا المجال وبالأخص ما كان منها في العصور الأولى بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم (، وقد قرأنا عن الدور الأموي بعض شواهده.

والرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والحجج الطاهرون من عترته (عليهم السلام (هم أول من حذّر الأمّة المسلمة عن الوقوع في هذه المزالق وهم الذين وضعوا لها المناهج الكفيلة لتتبع معالم الهدى في دلائله ، ورسموا السبل المناسبة لتمحيص ما يردها من نصوص تحسب على الإسلام ومصادره ، وأوضحوا لها كيفية التعرف على مكامن الحق والباطل منها ، واتباع ما استقام منها مع الحق ، ومع هدى الله تعالى ورشده.

فعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) انّه قال – وقد سأله بعضهم عن الاختلاف في الحديث : -)انّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذباً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وحفظاً ووهماً . وقد كذِّب على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)على عهده ، حتى قام خطيباً وقال : (أيّها الناس ، قد كثرت عليّ الكذابة ، فمن كذب متعمداً فليتبوأ مقعده من النّار ..) . ثم كذب عليه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من بعده ..) (٤٣.(

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال :

)قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : انّ على كلّ حق حقيقة ، وعلى كلّ صواب نوراً ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه) (٤٤). إلى أحاديث أخرى في هذا المعنى.

عصمة علي (عليه السلام(

امّا بالنسبة لعصمة علي (عليه السلام) بالذات .. فاني لا أعتقد أنّها ... وبعد هذه المسيرة الطويلة من الحديث لم تبلغ درجة كافية من الوضوح يُغنيها عن مزيد من الحديث فيها بالخصوص...

فعلي (عليه السلام) – كما علمنا – مورد لاصطفاء الله تعالى وارتضائه الثابت لولايته الكبرى في

هذه الأمة بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم..(

إذن فهو أحد موارد رعاية الله جلّ شأنه وعنايته الخاصة التي استوجبتها حكمته لمصطفيه . إذ لابد أن ينال من توفيق الله سبحانه ومدده ما يضمن أداءه لمسؤولياته العظيمة في تلك الولاية ومهماتها ، وهي مسألة لا تحتاج إلى مزيد بيان ، لانّها من موارد تلك القضية العامة.

ويكفينا لتأكيدها – من النصوص الأسلامية – ما قرأناه من دعاء الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) له يوم أعلن ولايته على الأمّة يوم غدير خم : (اللهم ... وأدر الحق معه حيث دار.(

كما يكفينا ما قرأناه من شمول قطعي في آية التطهير المباركة له.

وكذلك تأكيد الكثير من الروايات الواردة بأنّه مع الحق والحق معه ، وانّهما لا يفترقان حتى يردا على الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الحوض يوم القيامة.

ونضيف اليها هنا الاشارة إلى روايات الثقلين ، وهي متواترة الصدور عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وقد سبق بعض مواردها ضمن خطبة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يوم الغدير ذاته ، إذ قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم:(

)وأني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، الثقل الاكبر كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ، ولا تبدلوا .. عترتي أهل بيتي ، فأنّه قد نبأني اللطيف الخبير انّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.(.

ومن روايات الثقلين أيضاً ما رواه أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) كما رواه غيره كذلك عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنه قال:

)أيها الناس ، انّي فرطكم وأنّكم واردون عليّ الحوض ، فاني سائلكم حين تردون عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا وعترتي أهل بيتي ، فأنّه قد نبأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) (٤٥.(

وواضح ما في هذا الجمع والمعادلة بين كتاب الله تعالى الذي أنزله بالحق ، وهذه العترة المطهرة وما في هذه المعية التي لا إفتراق فيها بينهما حتى يردا على الرسول)صلّى الله عليه وآله وسلّم) الحوض يوم القيامة ، من دلالة واضحة على عصمتهم من الذنوب والانحراف عن الحق ، فالكتاب هو العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٤٦.(

وهو الذي (أحكمت آياته ثمّ فصلت من لدن حكيم خبير) (٤٧).

وبهذا السياق أيضاً يرد تأكيد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بأنّ علياً مع القرآن والقرآن مع علي حتى يردا عليه الحوض(٤٨).

كما يرد قول الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في حقه أيضاً:

)انّ حافظي علي بن أبي طالب ليفخران على سائر الحفظة لكينونتهما مع علي بن أبي طالب ، وذلك انهما لم يصعدا إلى الله بعمل يسخطه) (٤٩).

إلى غير هذه الأحاديث الواردة في تأكيد عصمة علي (عليه السلام) وتنزيهه عن الذنوب.

ونقف عند هذا الحد مع هذا النوع عن رعاية الله (تعالى) لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) وما تجلى به هذه الرعاية في عصمته ، بعد أن اتّضح لنا أنّهما مما لا مجال فيهما لريبة مرتاب ، أو شك شاك حين يعود إلى الإسلام في استقامته الذاتية في أوليائه وفي صحيح نصوصه.

والله تعالى هو الهادي والموفق للصواب.

هوامش:

1- الغدير : ج ١ ، ص ٣٣ ، عن شرح المواهب ج ٧ ، ص ١٣.

2- فضائل الخمسة من الصحاح السته : ج ٢ ، ص ١٠٩ ، عن تاريخ بغداد - ج ١١ ، ص ٣٢١ .

3- صحيح الترمذي : ج ٥ ، ص ٦٣٣ ، والمستدرك على الصحيحين : ج ٣ ، ص ١٢٤.

4- مجمع الزوائد : ج ٧ ، ص ٢٣٥.

5- المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٣٤.

6- فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ٢ ، ص ١٠٩.

7- ص : ٤٥ - ٤٧.

8- يوسف : ٢٣ - ٢٤.

9- طه : ٤١.

10- المائدة : ص ١١٠.

11- النساء : ١١٣.

12- الأحزاب : ٣٣.

13- المستدرك على الصحيحين : ج٣ ، ص ١٤٧.

14- صحيح الترمذي ج ٥ ، ص ٣٥٠ ، ويراجع للمزيد من المصدر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ، ص ٢٢٤ ، وما بعدها.

15- صحيح الترمذي ص ٦٣٤ ، تحقيق إبراهيم عطوة ن شركة ألبابي الحلبي ١٢٨٥ ـ ١٩٦٥.

16- المستدرك على الصحيحين ج ٣ ، ص ١٣٥ ، ويراجع ج ٢ ، ص ٢٦٠ للمزيد من المصادر.

17- مريم : ٢٩ ـ ٣٣.

18- مريم : ١٢ ـ ١٣.

19- يوسف : ٢٤.

20- ص : ٤٦.

21- النحل : ١٢١.

22- الحج : ٦٧.

23- يوسف : ٢٤.

24- الاحزاب : ٣٣.

25- اصول الكافي للشيخ محمد بن يعقوب الكليني : ج ١ ، ص ٢٠٤ ، ن مكتبة الصدوق طهران سنة ١٣٨١.

26- المصدر السابق : ص ١٩١.

27- المصدر السابق : ص ٢٠٠ ، ٢٠٣.

28- حق اليقين في معرفة اصول الدين للسيد عبد الله شبر : ج ١، ص ٩٠ ، مطبعة العرفان ـ صيدا سنة ١٣٥٣.

29- الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم لأبي محمد علي بن يونس العاملي النباطي البياضي ج ١ ، ص ١١٦ ـ ن المكتبة المرتضوية ـ ط الاولى سنة ١٣٨٤.

- 30الاسلام ، ينابيعه ، ومناهجه ، غاياته – للشيخ محمد أمين زين الدين ص ٣٣٢ 334 – ط ٢ مطبعة الاداب ، النجف سنة ١٩٧٨.

- 31دلائل الصدق – الشيخ محمد حسن المظفر ج ١ ص ٣٦٩ ، ط تابان – طهران.

- 32آل عمران : ٣١.

- 33الجن: ٢٣.

- 34هود:١٨.

- 35الصف: ٢.

- 36البقرة:٤٤.

- 37دلائل الصدق ج ١ ص ٣٧٠.

- 38النجم: ٣٢.

- 39الكهف: ١١٠.

- 40دلائل الصدق: ج ١ ص ٣٧١.

- 41الاحزاب : ٢٥ – ٢٦.

- 42الروم:٣٠.

- 43وسائل الشيعة ب ١٤ من أبواب صفات القاضي ج ١ ويراجع كتاب نهج البلاغة ص ٣٢٥ ط الأولى تحقيق د. صبحي الصالح بيروت سنة ١٣٨٧ – ١٩٦٧ .

- 44الوسائل ب ٩ من ابواب صفات القاضي ج ١٠.

- 45مجمع الزوائد للهيثمي ج ١٠ ص ٣٦٣ ، وقال : رواه الطبراني باسنادين . ويراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) للوقوف على مزيد من المصادر للحديث ج ٢ ص ٤٨ وروايات أخرى في نفس المضمون

- 46فصلت : ٤٢.

- 47هود: ١.

- 48المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ص ١٢٤ ويراجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستة (ج ٢ ص ١١٢ للمزيد من المصادر.

- 49فضائل الخمسة عن الصحاح الستة ج ٣ ص ١٨ عن تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٤٩.

الباب الرابع

في علم علي (عليه السلام (

علم علي (عليه السلام) في النصوص الاسلامية

امّا الرعاية الالهية التي تستوجب سعة الافاق العلمية التي يملكها علي ابن ابي طالب (عليه السلام) ليستطيع الوفاء بمسؤوليات ولايته الكبرى في دين الله تعالى ، فهي أيضاً بعض ضرورات ذلك الاصطفاء الربّاني له ، اذ يستحيل عليه تحقيق متطلبات هذا الارتضاء دون ان يمده الله سبحانه بما يكفيه من العلم بجميع آفاق تلك الولاية ومستلزماتها ، القريبه والبعيده . البارزة منها والخفية على امتداد ما جعلت له من الزمان والاجيال البشرية.

ومع ان هذه الافاق تعدو كونها جزءاً من الاصول والمقومات العامة التي تتكون منها شخصية علي (عليه السلام) كولي لله فتجب لولايته ، وانها مجلى لرعايته المباشرة له ، حيث سبق منّا الحديث فيها ، الا انّه لما كان للآفاق العلمية دورها الخاص في الوفاء بمسؤوليات الولاية فطبيعي ان تستوجب منّا الوقوف عندها خاصة بما يتناسب واهميتها تلك ، لندرك إلى أي مدى تمضي الحكمة الربّانية في عناياتها لتحقيق استقامة الحق في دينه العظيم ، وتوفيه مستلزماته فيمن اختارهم الله تعالى للقيام عليه ، وتجسيده امثلة قائمة لحجته بين الناس . ومن هؤلاء الاصفياء – بالطبع – علي بن ابي طالب (عليه السلام.(

ولرؤية شيء من هذه الافاق العلمية في علي (عليه السلام) نحاول – أولاً – متابعة بعض النصوص التي تسالم على نقلها المؤرخون وحفظة السنّة ، قبل أن نستلهم دلاتها العامة في فهم شيء مما تعنيه طبيعة هذه الافاق ومداها فيه.

ونقف هنا عند طوائف ثلاث من هذه النصوص ، لها أهميتها في تحقيق غايتنا السابقة.

الطائفة الاولى : ما تواتر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان هذا الجانب المهم من شخصية علي (عليه السلام. (

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان هو أول من نوّه بعلم علي (عليه السلام (واشاد به ، وبيّن مصدره . بل وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يستغل كلّ فرصة مناسبة لالفات بصائر المسلمين إلى هذه الفضيلة الكبرى من علي (عليه السلام) وتعريفهم بمميزاتها ودلالاتها في

شخصيته ، وسمو ما لديه منها على كل ما لدى الاخرين كافّة ، كما كان) صلى الله عليه وآله وسلم) وكثيراً ما يشير – وهذا هو الاكثر أهمية في اشادته (صلى الله عليه وآله وسلم) بعلم علي (عليه السلام) – إلى الرابطة الوثيقة بين علم نفسه)صلى الله عليه وآله وسلم) وعلم علي (عليه السلام) ، ووحدة مصدرهما معا ، وإنّ هذا المصدر هو الله سبحانه الذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) برسالته وارتضى علياً (عليه السلام) لولايته ، بل ووحدة ما بين علميهما وعلم جميع الانبياء (عليهم السلام) من هذه الناحية.

وكثير من هذا الحديث يبلغ من الاستفاضة إلى حد المتواتر بين المسلمين عامة ، حيث لم تختص بنقله طائفة منهم دون طائفة ، أو بعض الرواة دون بعض...

ونحن نقرأ من هذه الاحاديث قوله (صلى الله عليه وآله وسلم: (

)علي عيبه علمي) (١(

)علي باب علمي ، ومبين ما ارسلت به بعدي ، حبه ايمان وبغضه نفاق ، والنظر اليه رحمة)(٢ (

)انا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن اراد المدينة فليأت الباب) (٣(

)انا دار الحكمة وعلي بابها) (٤(

)اعلم أمتي من بعدي علي بن ابي طالب) (٥(

)قسمت الحكمة عشرة أجزاء ، فاعطي علي تسعة أجزاء والناس جزاءاً واحداً وعلي أعلم بالواحد منهم) (٦(

)من أراد أن ينظر إلى آدم (عليه السلام) في علمه ، والى نوح (عليه السلام) في فهمه ، والى ابراهيم (عليه السلام) في حلمه ، والى يحيى بن زكريا في زهده ، والى موسى بن عمران في بطشه فلينظر إلى علي ابن ابي طالب) (٧ (

..إلى كثير من الروايات التي تدخل ضمن هذه الطائفة ، وهي اكثر من ان تحصى ، ولا ننسى ان نعيد قراءة ما اقتبسناه من احاديث الغدير اذ لم يفته (صلى الله عليه وآله وسلم) التنويه بهذا الركن الاساس من شخصية علي (عليه السلام) ليتم به الحجة في اعلان ولايته على الاشهاد.

)فاسمعوا واطيعوا ، فان الله مولاكم ، وعلي امامكم ، ثم الامامة في ولدي من صلبه إلى القيامة... لا حلال الا ما احله الله ورسوله ، ولا حرام الا ما حرم الله ورسوله وهم فما من علم الا وقد احصاه الله في ونقلته إليه(

)افهموا محكم القران ولا تتبعوا متشابهه ، ولن يفسر ذلك لكم الا من انا آخذ بيده وشائل بعضده ...).

)هذا أخي ووصيي ، وواعي علمي وخليفتي على من امن بي وعلى تفسير كتاب ربي.(

الطائفة الثانية : ما اكده علي (عليه السلام) نفسه من هذه الافاق في شخصيته.

فهو (عليه السلام) – بالرغم مما علمته الامة من فضائله الجمّة – كان يخصّ هذه السمة من ذاته بالتاكيد ، والفات الانظار ، وكان كثيرا ما يتحدى الناس ان يجدوا له فيها بديلا أو شبيها ، أو يثبتوا في ادعائه لها تفأوتا عن الحقيقة وفي هذا الموضوع يقول (عليه السلام : (

)علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألف باب من العلم ، واستبطت من كل باب الف باب) (٨(

)سلوني قبل ان تفقدوني ، فاني لا اسال عن شيء دون العرش الا اخبرت به) (٩(

)اني احدث .. كنت اذا سألت اعطيت ، واذا سكت ابتدئت وبين الجوانح علم جم فاسألوني)(١٠(

)الا ان ها هنا – واشار إلى صدره – لعلما جما لو اصبت له حملة ، بلى ، اصبت لقناً غير مأمون يستعمل الة الدين للدنيا) (١١(

إلى احاديث اخرى ، وهي اكثر من ان تحصى كذلك.

الطائفة الثالثة : ما اقرّه الاخرون لعلي (عليه السلام) من هذه الافاق.

فعلم علي (عليه السلام) فضيلة يعلمها جميع من عرفه (عليه السلام)، وادرك منه بعض خصائصه ، وما اكثر كلمات الاطراء والاشادة بهذا العلم منه (عليه السلام) ، بل ما اكثر كلمات التسليم له بالتقدم فيه ، حتى من أولئك الذين لم يقروا له بالامامة أو ارتضاء الله اياه للولاية.

وقد سبق ان قرأنا بعض المواد التي رجع فيها بعض الخلفاء لعلي (عليه السلام) في المهمات ، وما صرحوا به من كلمات الجأتهم إلى النطق بها بعض الظروف ، ونضيف هنا استكمالا للموضوع.

ما قآله ابو بكر في قضية سآله فيها احد اليهود مسألة أجاب عنها علي بن ابي طالب ،)يا كاشف الكربات انت يا علي فارج آلهم) (١٢(

اما عمر بن الخطاب ، فكلماته في علي (عليه السلام) مشهورة في كتب التأريخ ومصادر السنّة

كقوله:

)لو لا علي لهلك عمر) .. (اعوذ بالله ان اعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن (،)اللهم لا تنزل بي شدة الا وابو الحسن إلى جنبي) ، يا ابن ابي طالب فما زلت كاشف كل شبهة وموضع كل حكم) (١٣) ، وغيرها.

ويقول عثمان في هذا المضمار أيضاً : (لولا علي لهلك عثمان) (١٤(

اما معاوية فقد كان يكتب فيما ينزل به ليسآله به علي بن ابي طالب (عليه السلام (، فلما بلغه مقتله قال :

)ذهب الفقه والعلم بموت ابن ابي طالب.(

فال له اخوه عتبة : (لا يسمع هذا منك اهل الشام.(

قال : (دعني عنك) (١٥(

ولما جاء نعي علي بن ابي طالب (عليه السلام) إلى معاوية وهو نائم مع امراته فاخته بنت ورطة فقعد باكيا مسترجعا فقالت له فاخته : انت بالامس تطعن عليه واليوم تبكي ؟

قال : (ويحك انما ابكي لما فقد الناس من حلم وعلم) (١٦(

والواقع ان علم علي من الوضوح والجلاء بدرجة من البداهة لا اعتقد ان احدا – عرف من امر علي (عليه السلام) شيئا ولو يسيرا – يمكن ان يرتاب فيها ، ولهذا فاطالة الحديث باقتباس مزيد من النصوص التي تذكر هذه السمة الجليلة فيه ، أو الاستطراد بذكر شهادات قالتها اسماء لامعة في التاريخ واقرته فيها له (عليه السلام) ليس بمستحسن في بحث كالذي نحن فيه.

بل ولابد من الاشارة هنا إلى اننا لم نقتبس الاحاديث والشهادات السابقة بعلم علي) عليه السلام) من اجل اثبات هذه الصفة السامية فيه (عليه السلام) لانفسنا أو للقاريء الكريم . كلا ابدا ، بل الغرض هو – وكما يقتضيه منهج الحديث – ان نستوفي صورة تمهيدية متكاملة فيه تمكننا من الانطلاق إلى فهم ما تعنيه هذه الصفة الجليلة في التزام الحق لعلي (عليه السلام) ، وراتضاء الله ايّاه..

فماذا يعني هذا الاتزام في علم علي ؟..

وما هو دور ارتضاء الله تعالى ايّاه فيه ؟..

نعم ، فالاجابة حول هذين السؤالين هي التي تعنينا في هذا الحديث اذ لا يمكن استلهام ملامح واضحة

عن غايتنا فيه بدونها.

بل والاجابة حول هذين السؤالين هي الاساس في فهم طبيعة هذه الصفة ذاتها في شخصية علي (عليه السلام) وفي شخصيات غيره من اصفياء الله المنتجبين.

وما كان ليتضح بدونها – معنى تلك الاشارات المتكررة من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعلم علي (عليه السلام) ، بهذا الحجم الكبير الذي لاحظنا البعض في مصادر النصوص الاسلامية.

وما كانت لتتضح بدونها أيضاً ابعاد ذلك الاعتزاز والتحدي من علي (عليه السلام (نفسه بما كان يملكه من هذه الصفة ، وتأكيده عليها في كل فرصة مناسبة.

وما كانت بدونها أيضاً لتستبين دلائل ذلك الافتخار المتواصل يعلمه (عليه السلام (من ابنائه المنتجبين ومن أوليائه المخلصين على مرّ التأريخ .. لا في عصره (عليه السلام) فحسب وانما في جميع العصور حتى القيامة.

نعم ، ما كانت لتتضح هذه الامور كافة بدون تلك الاجابة ، التي تضع هذه السمة العظمى من علي (عليه السلام) وشخصيته ضمن الاصطفاء ومتطلباته والمسؤوليات الملقاة عليه في دين الله تعالى.

اذ الالتزام الالهي – وكما اشرنا اكثر من مرة – لاي شخصية يصطفيها الله تعالى لتلك المهمات الكبرى يعتبر هو المقوّم الاساسي لتلك الشخصية ، والركيزة الثابتة لكينونتها ، كما انه المائز الاكبر في جميع ما تملكه من سجايا لا ينآلها غيرهم من الناس..

فدون هذا الاصطفاء تقف الحدود الانسانية كافة وان كانت في اسمى مظاهرها لتمضي الرعاية الربانية الخاصة بدورها في صياغة تلك الشخصيات المنتجبة واقامة كيانها.

العلم ومذهب الحق

تمهيدا للاجابة حول السؤالين السابقين لابد من الالتفات إلى نقطتين مهمتين ، لهما اثرهما الكبير في أيضاًح الاسس التي تعتمدها هذه الاجابة..

النقطة الاولى : العلم ضرورة لقيام مذهب الحق

ما تعنيه صفة العلم من ضرورة في قيام الحق وفي تجلي شرائطه وخصائصه في الشخص الذي يصطفيه الله تعالى لهذه المهمة في الوجود البشري.

وهي ضرورة تمتد إلى كل اصل من اصول الدين يعتمده هذا الاصطفاء في مسؤولية المنتجب، والى

كل سلوك يأتيه أو موقف يصدر عنه أو غاية يترسمها.

وقد اشرنا إلى ان اصول دين الله تبدا مع الانسان ، بل ومع الموجودات كافة، لا من ظواهرها البارزة منها فقط ، ولا من واقعها الشخصي القائم كحآله جزئية ، أو آنية محدودة ، وانما هي تبدا معها من خلال ما تعنيه حكمة الله تعالى فيها وما تقتضيه فيها من مستلزمات ، لا في حدودها الذاتية كوجودات ، وانما في افاق دلالاتها على عظمة الحكمة التي انشأتها ، وعلى جلالة ذلك التدبير الذي سوّاها واستقامت به امورها .

ولا ريب انها مستلزمات تستوعب افاق جميع ما في الوجود التكويني كله ، بما فيه من مظاهر وشؤون وتفاعلات فاي منها هو بدوره – مجلى لتلك الحكمة ، وفيض من لطفها ورحمتها...

ومن الطبيعي حينئذ ان يحيط دين الحق بجميع هذه الافاق والمظاهر والشؤون والتفاعلات، لينطق منها بالانسان إلى اسمى كمال يطمح اليه بذاته في أي زمان وفي أي مكان، وعلى أي مستوى حضاري ، وفي أي مجتمع يعيش فيه ، لا في وعيه وفكره فحسب ، وانما بنفس وجوده ، ذات فطرته الاولى ، وبما في هذه الفطرة من تطلع ذاتي الاستقامة العامة مع غايات حكمة الله في الخلق ، حيث جعلت ركائز هذه الاستقامة في اعماق تكوينها ، وان لم تتبلور في الذهن فكرة محدودة واضحة الملامح.

ومن هنا يتضح ما تعنيه صفة العلم في مهمة الشخص المنتجب لقيام دين الله تعالى ، ودورها في مسؤوليته الكبرى في ابلاغ حجته إلى العباد ، اذ من المستحيل عليه الوفاء بهذه المسؤولية دون ارصدة من العلم والمعرفة تحيط بكل تلك الامور ، وما يتصل بها ، فهي التي تؤهله لمثل هذا الوفاء.

وسياتي بعون الله تعالى ، مزيد بيان لهذه النقطة ، وتفصيل لبعض الاجمال فيها.

النقطة الثانية : حدود الانسان

وهي استعادة لما سبق ان لاحظناه من قصور الانسان عن استيعاب الواقع بفهمه أو ادراكه .

فقد قلنا هناك ان حدود قابليات الانسان وطاقاته المدركة لا تعدو – في فهمها للامور –حدود ظواهرها القريبة ، حيث تنآله وسائلها الحسية أو الحدسية التي تمكنها من ادراك صورة معينة عنها، وتتميز ملامح هذه الصورة قبل التعامل معها على اساس مما يملكه المرء من أوليات نظرية ، وخبرات سابقة ، ثم تحديدها في اطار معين كفكرة يعتمدها الانسان في السلوك و ممارسة الحياة في

مختلف اصعدتها .

ولا ننسى دور الوسط الذي يعيش فيه الفرد في بلورة تلك الطاقات وتوجيهها .. كما لا ننسى دور التطور الذاتي له وتواتر مراحل النضج التي يمر بها ، وآثارها في تكوينه النفسي والجسدي ، وكذلك المستوى العلمي والفكري الذي يبلغه المرء في حياته ، ولا بد هنا من التأكيد على دور الاتجاه الاجتماعي العام في المعرفة والمستوى الذي وصلت اليه المعرفة فيها من تأثير في توجيه طاقات الفرد ، وكيفية فهمه للامور ، واستخلاصه للنتائج منها ، ثم في طريقة تعامله معها.

اذ ليس من السهل على الانسان الخروج بوعيه ومداركه الخروج عن الاتجاه العام الذي يسلكه المجتمع في المعارف والعلوم والمستويات التي بلغتها الجهود الانسانية فيها ، لانها الظروف التي تتشكل ضمنها توجهات قابليات الفرد وتتحدد فيها اهدافه وتطلعاته ، وتتجلى فيها مواهبه وجهوده في الحياة.

ومن هنا قلنا ، ان الانسان وليد عصره ، وهو ابن بار للعصر الذي يعيش فيه ، وهو لا يستطيع تجأوز احكامه في نموه العقلي والعاطفي والعلمي ، الا حيث يعتمد النتائج المقررة التي بلغها الاخرون في جهودهم قبله ، لينطلق منها إلى ما هو اعلى واكمل . فخبرة الانسان تنمو وتتسع مع متابعته في دراسة الامور ومثابرته على استلهام الحقائق ، مما يبحث فيه من القضايا والوقائع التي تصل إلى وعيه ، لتصبح ضمن معلوماته عن الواقع ، ثم ليصل معها (بعض الناس) إلى درجات اسمى مما بلغه الاخرون في هذا الجانب من الحياة أو ذاك ، اما باكتشاف غوامض لم يدركها السابقون ، أو اختراع مستجدات لم يتصوروها . . وهكذا.

الا ان هذا التقدم وان كان من خلال تلك الطاقات القابليات التي يملكها المرء في تكوينه الذاتي ، فهو يجري ضمن البيئة التي يعيش فيها الانسان ، اذ من غير الممكن لهذه الطاقات ان تنمو وتنضج وتكتمل فاعليتها في الحياة وتتفاعل مع الواقع بدون وسيط يأخذ بها في طريق النمو والكمال ، ويستقطب جهودها لتبلغ – من ثم إلى ما تطمح إلى بلوغه ، ولا ريب ان الاتجاهات العامة التي تمضي عليها المجتمعات في المعرفة والمستوايات الفكرية والعلميلة التي يصل اليها كل مجتمع ، ضمن هذا الجانب من الحياة أو ذاك ، تشكل افقا واسعا من هذا الوسط الذي تتبلور فيه تلك القابليات والطاقات الموجودة في الافراد الذين يعيشون فيه.

ويلاحظ هنا ان السبق الذي يحرزه احد الناس في بعض جوانب المعرفة لا يعني انه القمة التي لا

تسمو وراءها لغيره، فان للواقع عطاء اللامتناهي للفكر الانساني المتجدد..

..كما لا يعني ان الانسان الذي احرز هذا السبق ، قد امتلك ناصية العلوم والمعرفة كافة وفي كل اتجاه ، وفي أي جانب من جوانب الوجود ، لان تقدم انسان في بعض الامور لا يعني استيعابه لكل الامور ، ولا يجعل لوعيه المحدود سعة تحيط بحالاتها وعلاقاتها جميعا، وان بلغ هذا الانسان في خبرته إلى درجة تأخذ بالالباب كما يصادف الامر مع نوابغ التأريخ.

كما يلاحظ أيضاً ان السبق الذي ينآله احد الناس في مرحلة من تاريخ المعرفة لا يؤهل ذلك الشخص لتسنم القمة فيها . واتخاذ موقع القيادة منها إلى الابد ، حتى في المجال الذي نبغ فيه هذا الشخص نفسه.

لان مسيرة الانسان في المعرفة – عادة – متنامية ، ولهذا فان النتائج التي ينآلها احد الباحثين – مهما سمت – ستصبح قاعدة لجهود غيره في الانطلاق إلى ما هو اتم واكمل –حين يفسح لهذا الجهود مجال المتابعة ، مما يعني انها ستبلغ إلى نتائج اسمى مما بلغه الباحث الاول ، وان هي استخدمته منطلقا لمتابعتها ، وارتكزت عليه في دراستها . بل وسيصبح ذلك السبق والنجاح الذي بلغه ذلك الباحث مسألة تأريخية في ذلك الاختصاص.

وهذه الناحية معروفة في تاريخ العلوم والحضارات، فمبتكرات شخصية عبقرية مثل) اديسون) في الكهرباء اليوم هي بدائية قديمة – ولا شك – وان كانت في وقتها فتحا كبيرا في الحضارة الانسانية.

ومن ناحية اخرى يلحظ أيضاً ، ان السبق الذي ينآله بعض الناس في احد جوانب المعرفة وفي أي مرحلة في تاريخها – لا يؤهل ذلك البعض – مهما بلغت درجته من السمو وكمال المعرفة – لان يتعالى على حدود المعرفة للقابليات الانسانية في التعامل مع القضايا والاشياء ... وهي حدود – كما قلنا سابقا لا تتجأوز في ادراكها للظواهر البارزة لها ، لانها هي مجال الحواس وأوليات الفكر ، وطرق الحدس.

كما لا يخرج هذا السبق نفسه عن ان يكون نتاجاً لتلك الحدود ، وان بدا من العظمة والاهمية بدرجة لم تطرأ على الفكر الانساني قبل تحققه.

فالفكرة السابقة غير مؤهلة لان تعطي قيمة الواقع ذاته ، أو ان تعطي شيئا من دلالاته وراء تلك الحدود والوسائل التي استعان بها الانسان ووعيه للوصول إلى تلك الفكرة . بل وما أكثر الفكر التي ينتهي اليها الانسان حول أمر من الامور ، أو حول حادثة من الحوادث ، فيراها مستقيمة تمام

الاستقامة مع الواقع الذي تعبر عنه الا انها ماتفتأ أن يستبين فيها من مواضع الوهن والتفأوت ما يبعدها عن ذلك الواقع بمراحل كثيرة.

ومع التدقيق في هذه الناحية نرى أنها من أبرز دلائل القصور الانساني لأنها قضية يشهدها كل أحد من ذاته قبل أن يراها في غيره من الناس .. كما أنها من المسلمات الاولية في جميع العلوم حتى الطبيعية منها ، وكذلك نواحي المعرفة الاخرى.

ولهذا فالنظريات العلمية ـ حتى التجريبية منها ـ لا تدّعي لنفسها قيمة الواقعية الا على أساس رجحان احتمال مطابقتها للواقع ، ومدى ما تستقيم به مع الملاحظة والتجربة ، وهكذا فهي تتلاشى عن دورها حين ترد نظرية أخرى أرجح احتمالا ، واستقامة مع الواقع وملاحظة الانسان له وفهمه ايّاه.

وطبيعي أن يبرز قصور الانسان أكثر مع دقة الامور والقضايا التي يروم فهمها ، وابتعاد حقائقها عن ملاحظته وسموها عن حدود ما يملكه من وسائل المعرفة ، كما في عالم الحياة وشؤون الانسان النفسية والاجتماعية وغيرها ، اذ لا تعدو الفكرة والنتائج التي بلغتها جهود الانسان فيها مرحلة الافتراضات المبتورة التي تعتمد ـ في أكثرها ـ على أوليات وقناعات ذات صبغة شخصية ذاتية أو فلسفية قبل أن تعتمد على نفس الواقع الذي تحأول التعبير عنه ، أو حكايته . ويقول الدكتور (الكسيس كاريل) في هذا المعنى:

)وكل آرائنا عنه "الانسان " مشربة بالفلسفة العقلية ، وهذه الاراء جميعاً تنهض على فيض من المعلومات غير الدقيقة بحيث يرأودنا اغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط ، ومن ثم ، فان فكرتنا عن الانسان تختلف تبعاً لإحساساتنا ومعتقداتنا.

)فالشخص المادي والشخص الروحي يقبلان نفس التعريف الذي يطلق على بلورة من الكلوريد ، ولكنهما لا يتفقان ـ أحدهما مع الاخر ـ في تعريف الكائن الحي وعالم وظائف الاعضاء الذي يبحث في عمليات الجسم الميكانيكية وكذا عالم وظائف الاعضاء الذي يبحث في مذهب الحياة نفسه ، لا يمكن أن ينظر إلى الانسان من زأوية واحدة ... وكذا فان الكائن الحي ـ كما يراه (جاك لويب) ـ يختلف اختلافاً عظيماً عما يراه (هاتز وريش) (١٧.(

وهذه الناحية صادقة في مختلف العلوم الانسانية أنفسها ، فظلاً عن النظريات التي تنتزع منها لتبني عليها مذاهب سلوكية أو تربوية أو أخلاقية أو قانونية أو غيرها.

ولهذا فظاهرة انسانية واحدة ـ مثلاً ـ لا تتفق في تفسيرها مدرستان ، أو حتى مذهبان ضمن مدرسة

واحدة ، كما هو معروف.

ولهذه النواحي مجتمعة ـ بل ـ ولغيرها مما لم نذكره ـ كان من المستحيل أن تعطى قيمة الحق المطلق لكلمة من الكلمات يقولها أحد من الناس ، أو لموقف من المواقف يأتيه ، أو اتجاه من الاتجاهات السلوكية يتخذه ، ـ وراء حدود البديهة العقلية ونتائجها القريبة اليقينية ـ مهما سما هذا الشخص في سلّم الكمالات الانسانية ، الا حيث ينتهل مايقوله وما يفعله من معين العلم اللامتناهي ، وهذا ليس مورد حديثنا هنا.

والتساؤل هنا : هو انّه ما لم تضمن الرعاية الالهية الخاصة لهذا الانسان سمة الحق وشرائطها كافّة فيما يقول ، وما يفعل كيف يمكن للاخرين أن يستلهموا منه هذه القيمة العليا في الحياة ، أو يقبسوا منه ما يستهدونه في شؤونهم وسلوكهم دون تفأوت عن أمر الله تعالى أو اختلاف عن مفتضيات حكمته.

لا ريب أنه سؤال سيبقى بلا جواب.

علم الانسان وشرائط الحق

نعم ، قد يندب شخص من الاشخاص ، أو حتى فئة من الناس ، لوضع صيغة مذهبية معينة ، وتشريع مناهج خاصة لتنظيم الحياة في بعض المجتمعات – مثلا –تحدد على اساسها الروابط والعلاقات والحدود الاجتماعية في هذا المجال من الحياة أو ذاك.

و طبيعي ان يبحث ذلك المنتدب – قدر ما يستطيع في استكمال تلك الصيغة المذهبية التي يراها جديرة القيام ، وينظر في شؤون ذلك المجتمع وحاجاته التي تتراءى له بمقتضى تلك الصيغة ، وما تتطلبه من مناهج واحكام وقيم اجتماعيه عامة لكي تتوحد لديه هذه الامور جميعها في كيان يراه خاليا – قدر المستطاع – من الثغرات والتهافت ، قريبا من تطلعات المجتمع نفسه ، مستقيماً مع الاهداف العامة التي يسعى اليها في حياته، وفي علقته مع ذلك المذهب .. وهكذا.

وقد يتوقع هذا المنتدب – وعلى اساس مما يراه في تطور المجتمع – حالاتت مستجدة ينبغي ان يحسب لها حسابها في التصور المذهبي ، أو في التشريعات والمناهج المنبثقة منه ليعدها – من ثم – لاستيعاب تلك الحالات المستجدة..

نعم ، وقد ينجح هذا المنتدب في اداء مهمته كما اراده لنفسه ، أو اريد منه وقد يصيب في توقعاته

تلك أيضاً ، مما يعطي لجهوده درجات ايجابية في صالحه هو ، وصالح مذهبه ، والمجتمع الذي يمضي ضمن خطه في بعض فترات التأريخ.

الا انّ هذا النجاح – مهما سمت درجته – لا يعطي لتلك الشريعة ، ولا لقوانينها طبيعة الواقعية المطلوبة ، كما لا يعطي للنظريات التي انبثقت منها قيمة الحق المطلق ، بل ولا يعطيها نفس القيمة من النجاح في مجتمعات اخرى وفي بلدان اخرى ، بل لا يعطيها نفس القيمة من النجاح في جوانب اخرى من حياة ذلك المجتمع الذي وضعت له ، أو في ازمنة اخرى لم يتوقعها ذلك المنتدب في حسبانه.

وهكذا كان لابد من متابعة الجهود ، ومواصلة التعديل ، وكان لابد من ملاحظة ما يستجد على المجتمع من حالات ، وما يطرأ في المعرفة من قضايا يمكن ان يكون لها اثرها في الحياة الانسانية.

وقد يحتاج الامر إلى التراجع عن بعض الاحكام والقوانين ، أو حتى عن بعض الاصول المذهبية التي اعتمدتها حين يستبين فيها من السلبيات ما لا يمكن تلافيه حين يراد للمذهب أو القانون نوعا من الحيوية والبقاء ، كما هو المشهود في بعض القوانين الوضعية السائدة ، فهي جميعها محكومة بقصور الانسان وضيق خبرته وتأثره بالادوار والحالات الجارية في حياته.

امّا ان تكون لذلك الشخص أو الفئة المنتدبة للتشريع مهمة تمثيل الحق نفسه – وكما هو في واقعه المذهبي الذي اراده الله تعالى للانسان – وبما لشريعته من دور كامل ودقيق في الوجود التكويني عامة ، والانساني خاصة – كما هو الشأن في مورد الاصطفاء الالهي من الناس.

اما ان تجعل لذلك الشخص أو الفئة مهمة القيادة العامة للبشرية ، وهي تطمح إلى هداها ورشدها الاكمل في هذا الحياة.

اما ان يقر الله عزّ وجل لكل كلمة تصدر وكل موقف يتخذونه ، واي سلوك يقومون به وكل فكرة يطرحونها قيمة واقعية ، التي تبرز دلائل الحكمة الالهية في الخلق ، وتقرر الحكم الربّني الذي يتجلى به لطف الله تعالى بالانسان ورحمته به.

اما ان تعرف دلائل الحجة الالهية لهم بالاستقامة المطلقة في كلّ منحى من مناحي حياتهم ، وفي كل بعد من ابعادها .. تلك الاستقامة التي لا تحدد ضمن خصوص ما يبرز منهم من نواحي السلوك فقط حيث هو المستوى المطلوب من عامة الناس – وانما هبي الاستقامة الذاتية المطلقة التي تبرز بجلاء – عظمة الحكمة الالهية في تكوينهم الذاتي ، وفي الدين والتشريع الذي اصطفتهم له معاً.

اما ان تُناط بهم بصائر هدى الله بمعانيها العظمى ، وحدودها التامة التي لا تخصيص فيها ولا استثناء ، لافي ادوار حياتهم الشخصية فحسب ، وانما في كل زمن تشمله مسؤولياتهم في قيام الحق.

اقول : اما هذا كله – كما هو الشأن في الشخصيات التي ينتجبها الله سبحانه لهذه المهمات – فهو غير ممكن ابدا بدون مدد آلهي خاص من العلم والمعرفة يرتفع بهم إلى مستويات هذه الشؤون كافة ويفي لهم بمتطلباتها جميعا ، كما لم يكن ممكنا دون رعاية شاملة ترتفع بمكوناتهم الشخصية الاخرى إلى هذا المستوى أيضاً وتسدد منهم كل خطوة في أي سبيل من سبل الحياة ، وعلى أي صعيد ، كما لاحظنا في الباب السابق.

مدد آلهي من معين العلم والمعرفة ، يتجأوز بأولئك الاصفياء كلّ حدود القصور والانساني في هذا المجال ، ويسمو بطاقاتهم وملكاتهم كافة عن الوقوف في الادراك والتعامل مع الاشياء – عند خصوص الظواهر القريبة منها – كما هو الشأن في الانسان الاعتيادي.

قد يرتفع بهم إلى الاحاطة بواقع هذا الوجود نفسه، وبما له من أوليات تستند اليها تلك الظواهر ، سواء برزت تلك الاوليات للوعي الانساني العام ام لم تبرز ، ادراك الاخرون منها شيئا ام لم يدركوا.

..مدد آلهي من العلم لا تحكمه العصور ولا اتجاهاتها في المعرفة ، ولا مستوياتها الخاصة في مجتمع من المجتمعات ، أو الحضارة من الحضارات.

اذ بدون هذا المدد يستحيل على احد من أولئك الاصفياء اداء مسؤوليته ، أو القيام بمهمته التي ارادها الله تعالى منه ، كما ارادها له ، وكما اقتضتها حكمته السامية فيه ، حينما اختارته موردا للاصطفاء.

وهكذا يبدو ان المدد الرباني من المعرفة والعلم الذي يكفل لأولئك الصفوة بلوغ تلك الغاية هو أيضاً ضرورة تستوجبها استقامة الحق في شخصياتهم وشمول لطف الله تعالى بالانسان، واطلاق الحكمة الربانية في مقتضياتها ، وهي تصطفيهم مثلا عليا للبشرية ، وحججا على الخلق ، وشواهد لقيام دين الله تعالى في هذه الارض، وألسنة للتعبير عن كلمته بين الناس.

اذن فعلم هؤلاء الاصفياء المنتجبين (عليهم السلام) ، وهذه المستويات العليا التي ذكرناها لهم ، وربّانية مصدرها كافة .. كلّ هذه الامور انّما هي ضرورات تنشأ من نفس المنطلقات السابقة التي ذكرناها في التزام الاسلام (دين الله) لعنصر الحق اساساً لوجوده ، وركناً لكل بعد من ابعاده ، ومحوراً لكل حقيقة من حقائقه ، بما فيها هؤلاء الاصفياء الذين ارتضاهم تعالى هداة له وامناء على

كلمته ، وحجة له في بريته ، حيث علمنا استحالة ان يؤدي أي منهم دوره الكبير هذا دون ان يحيط بحقائق الامور التي تقع ضمن مسؤوليته ودلائل حكمة الله تعالى فيها دون خلل أو تفأوت.

وبهذا المعنى يقول الامام ابو عبد الله الصادق (عليه السلام) لهشام بن الحكم من حديث :

)ويك يا هشام ، لا يحتج الله (تبارك وتعالى) على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون اليه ..) (١٨(

كما يقول (عليه السلام) في حديث اخر:

)اترون ان الله (تبارك وتعالى) افترض طاعة أوليائه على عبادة ،ثم يخفي عنهم اخبار السمأوات والارض ويقطع عنهم موارد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم ؟ (19) (

كما انّ هذا العلم – من جهة ثانية – ضرورة تنشأ من تلك الحدود العليا التي جعلها الله سبحانه لكلمته في أي مجلى من مجالي التكوين والتشريع معاً ، واي مظهر من مظاهرها .. اذ قال (عزّ من قائل: (

)وكلمة الله هي العليا ..)(٢٠(

)وتمت كلمة ربكّ صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم)(٢١(

فحين علمنا ان أولئك المصطفين هم الذين يتجسد بهم علو كلمة الله عزّ وجل في هذه الارض ، ويتحقق بهم تمامها في البشرية ، وكمآلها في مجالي التكوين والتشريع معا ، فمن الطبيعي ان تضمن فيهم الرعاية الالهية تلك الارصدة العلميةالتي تمكّنهم من تحقيق ذلك العلو والتمام ، كما ضمنت فيهم مختلف المطلقة مع الحق ، سواء في شؤونهم الذاتية ام في مواقفهم وكلماتهم التي تصدر منهم.

علم علي (عليه السلام) من خلال شرائط الحق

نعم ، من خلال هذه الافاق – خاصة – ينبغي ان نفهم ما تعنيه فضيلة العلم في علي (عليه السلام..(فعلي (عليه السلام) هو – وقبل أي شيء آخر – احد أولئك الاصفياء الذين انتجبهم الله تعالى لقيام الحق في هذه الارض ، فمن الطبيعي ان تتجلى فيه شرائطه وضروراته كافة. بما فيها هذا المدد الخاص من العلم الذي يمكنه من الاحاطة لا بخصوص مظاهر التكوين وحدها ، وانما بمقتضيات حكمة الله فيها أيضاً.

وعلي (عليه السلام) كذلك هو احد مظاهر كلمة الله تعالى في البشرية بعد الرسول) صلى الله عليه وآله وسلم)، فمن الطبيعي ان يتحقق فيه تمام هذه الكلمة وسموّها في أي مكونات شخصيته، وفي

أي سلوك يصدر منه.

اذن فعلم علي (عليه السلام) فيض آلهي خاص لا تحدده طبيعة الانسان الاعتيادي ، ولا تحكمه ظروف الانية ولا مستوياته ولا الاتجاهات الشائعة لمعرفته في عصر من العصور أو حضارة من الحضارات ، وانما يحدده – قبل أي شيء آخر – اصطفاء الله تعالى له ، واختياره اياه علما لهداه ، وتحدده مسؤوليات هذا الاصطفاء ، ومهماته التي القاها عليه ، وألزمه بها هذه الحياة.

وهذا ما تؤكده نفس الروايات السابقة التي وردت عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعن علي (عليه السلام) اذ يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم – (وكما قرأناه في الطائفة الاولى - :

)هذا اخي ووصيي وواعي علمي ، وخليفتي على من امن بي وعلى تفسير كتاب ربي(

)فاسمعوا له واطيعوا ، فان الله مولاكم وعلي امامكم ... فما من علم الا وقد احصاه الله في ونقلته اليه(..

ويقول علي (عليه السلام) – كما قرأناه في الطائفة الثانية:

)علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الف باب من العلم واستنبطت من كل باب الف باب (

)اني احدث .. كنت اذا سألت أعطيت ، واذا سكت ابتدئت وبين الجوانح علم جم فاسألوني(

وهنا لا بد من القول بأن الانطلاق في فهم هذه السمة العليا .. علي (عليه السلام (من خلال هذين المنشأين خاصة ، وما تعنيه كل منها من مستلزمات ودلالات يجب ان يكون هو الاساس الاول في التعريف على معالم شخصية علي (علي السلام) بل ومعالم شخصيات غيره من موارد الاصطفاء الالهي والتعامل معهم ومع مواقعهم الكبرى في دين الله تعالى ، وحجته البالغة على العباد.

وقد قلنا في مقدمة هذا البحث ان الاصطفاء الالهي – بما له من مقتضات – هو المقوم الاساس لكيانات الاصفياء ، ويستحيل على احد من الناس ان يصل إلى فكرة سليمة حول أي فرد منهم ، أو حتى حول شأن من شؤونه ، دون ان يأخذ بالاعتبار هذا الاصطفاء نقطة ارتكاز مبدئية يعتمدها في ملاحظته واستنتاجه.

وطبيعي ان تختلف النتائج التي سيحصل عليها المرء في ملاحظته لهذه الفضيلة الكبرى لدى الاصفياء ، حين يبدأ فيها من هذا المنطلق ، كما سيتضح الكثير من الفروق ما بين آفاق هذه السمة

العليا لديهم ، وآفاقها المحدودة لدى سائر الناس وان بلغوا من السمو فيها درجة كبيرة ملفتة للانظار .

ونحن هنا نقف عند نتيجتين من هذه النتائج ، كان لهما دورهما الكبير في أيضاًح معالم الحق في شخصية علي (عليه السلام) ، وفي بلورة موقف المسلم معه ، ومسؤوليته تجاهه ، وهو يستلهم معالم الهدى منه، ويتبع دلائلها في حياته ومواقفه وكلماته . وهاتان النتيجتان هما :

أولا : عنصر الشمولية في علم علي (عليه السلام..(

ثانيا: علم علي (عليه السلام) بالغيب.

الشمولية في علم علي)عليه السلام(

اما الشمولية في العلم الذي اتاه الله تعالى عليا) عليه السلام) فتجب ملاحظتها من خلال بعدين اثنين لكل منهما دلالاته في بيان ما تعنيه هذه الشمولية:

البعد الاول : دور الاسلام في قيام الحق في الوجود الانساني.

البعد الثاني : دور رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في البشرية كخاتمة لرسالات الله تعالى في الناس.

الاسلام ومقتضيات الحكمة الربّانية

امّا البعد الاول فلابد – لفهم ما يعنيه دور الاسلام في قيام الحق – من مراجعة للمبدأ الذي اعتمدناه في هذا الحديث ، وهو الالتزام الاسلام لسمة الحق ، وان الحق في الاسلام انما يعني مطابقته الجدية والدقيقة لدلائل حكمة الله في الخلق ، واستقامته التامة مع مقتضيات هذه الحكمة في تسويتها للانسان خاصة حين رسمت له دوره الخاص في هذا الوجود ، واهلته لتسنم هذا الدور ، بما افاضت عليه من خصائص وطاقات.

فمن هذا المبدأ يجب فهم سعة معنى الحق في الاسلام ، وسعة الاسلام ذاته ، وسعة ما له من خصائص ومميزات وشرائط ، تمتد إلى كل حقيقة من حقائقه ، والى كل مجلى من مجاليه ، بما فيها أولئك الاصفياء ، انفسهم وما يملكون من مزايا ، ترتفع بهم إلى هذه القمة السامية.

بمعنى ان هذه السعة في جميع مجالاتها هذه – كما تنشأ من سعة آفاق تلك الحكمة الربّانية في الوجود وتجلياتها العامة في الخلق ، يجب ان تضطرد معها أيضاً في كل حقيقة من حقائق الاسلام

وكل شأن من شؤونه.

ومهما يجب الالتفات اليه – بهذا الصدد – ان حكمة الله سبحانه هي اسمى من ان تقتصر على حدود ارادة الانسان واختياره ، واجل من ان تتناهى عند حدوده الفردية أو الاجتماعية أو النوعية. أو تتوقف عند المظاهر البارزة للخلق.

كلا أبداً.!!

فهذه الحكمة في واقعها هي احد مجالي الكمال الالهي المطلق ، الذي لا نقص فيه من جهة ، ولا حاجة فيه من جهة .. اذن فمن الضروري ان تبرز آثارها في كل ما يصدر عن هذا الكمال من امر ، وما يتحقق بسببه من وجود.

فهي في الموجودات التكوينية كافة فيوض عامة من الرحمة واللطف التي لا يحيد عنها موجود، ولا يخرج عنها ولو في بعض شؤونه وحالاته.

فهي حكمة شاملة محيطة بجنبات الوجود ، ونواحي الخلق كافة ، فهي تتراءى في كل مظهر من مظاهره وكل سمة من سماته ، وكل حال من احوآله . الدقيقة منه أو العظيم .. البسيط فيه أو المعقد. وليس الانسان وما يملكه من خصائص ومميزات ، وما تتحقق به هذه الخصائص من مواقف وافكار سوى بعض تلك الافاق التي تتجلى بها تلك الحكمة وتبرز فيها ألطافها.

وحينئذ – لكي يحصل مفهوم الحق في دين الله العظيم – يجب ان لا يقصر هذا الدين الحنيف في مطابقته لمقتضيات حكمة الله سبحانه عن هذه السعة التي تستوعب الوجود كله ، وتشمله بكل ما فيه من جذور وعلاقات ومظاهر.

ولئن اقتضت حكمة التشريع صياغة الاسلام ضمن شخصيات منتجبة لها مثل عليا وتصورات فكرية ، واحكام ومناهج سلوكية تتناسب وطبيعة الاختيار الانساني وطاقاته ، الان هذه الصياغة لا تعني ان هذا المدى وحده هو الاساس الذي تعتمده المبادئ الاولية للاسلام في تكوينه الذاتي ، وان هذه الحدود هي الجذور التي ينطلق منها كيانه في الحياة ، وان هذه الافاق وحدها هي مستند حكمة الله فيه.

كلا .. ابدا .. لان واقع الاختيار الانساني نفسه والذي شرع له الاسلام – لا ينتهي عند هذه الحدود فقط ، اذ هو لا يستقل في وجوده وأولياته عن غيره من مظاهر التكوين ، وان امتاز عما سواه ببعض المميزات.

كما ان الحكمة الالهية التي انشأت الاختيار في الانسان وانزلت الاسلام لهداه لم تقتصر في تجلياتها

عند الحدود الذاتية لهما فحسب.

انها – وكما علمنا – حكمة واحدة شاملة عمت الوجود بلطفها ورحمتها .. فجميع ما في الكون انما هو تجل واحد لها ، فهي التي احكمته بتدبيرها ، واعدت فيه من السنن الموحدة المتكاملة ما يستقيم به وجوده ، ويحقق فيه مقتضياته في ايجاده وغاياته منه .وان تجلت هذه السنن في كل موجود بما يناسب طبيعته ، وينتظم به في دوره المعد له في ذلك آلهيكل الموحد للتكوين.

فتلك الحكمة الالهية هي التي تجلت رحمتها في جزئي الذرة السالب ، وهو يدور حول جزئيها الموجب بقوانين مرسومة ، استقام بها الوجود المادى للكون كله.

وتلك الحكمة هي التي تجلّت في العناصر المادية البسيطة منها والمركبة وهي تنسق بين العالم آلهائل من الذرات لصنع مختلف ما في الكون من مظاهر مادية..

و تلك الحكمة هي التي بدت في الخلية الحية وهي تمازج بين عنصر الحياة والمكونات المادية فيها وفق قوانين دقيقة لا تتخلف ولا تتفأوت.

وتلك الحكمة هي التي ظهرت معالمها في الجسم الحي ، وهو يضع كل خلية منه في موضعها المناسب من خلال عالم من السنن لم يحط العقل الانساني الا بالقليل منها حتى الان.

وتلك الحكمة هي التي سوت الانسان وميزته بخصائصه ومزاياه لتعده لدور الخلافة عن الله في هذه الارض من بين سائر الموجودات.

وتلك الحكمة الالهية نفسها هي التي تتجلى بالاسلام أيضاً كقانون اختياري شرعه الله تعالى للأخذ بيد هذا الانسان المريد – وبما يتناسب وطبيعته الخاصة كذلك – إلى الغايات الاولى لهذه الحكمة في انشائه ، بما له من ادوار وخصائص مميزة كواحد من اسمى تجلياتها في هذا الكون المشهود.

نعم ، والقرآن المجيد ليشير – في العديد من سياقاته المباركة – إلى هذه الناحية، وما ذكرناه لها من مستلزمات وآفاق...

اذ هو يؤكد على الحكمة الالهية كمصدر عام لكل ما في هذا الوجود، وعلى الوحدة المضطردة لها في التكوين والتشريع معا وعلى توحّد الموجودات كلها في المباديء ، ووحدة ما في هذه الموجودات من السنن التي تحكمها ليبلغ كل منها إلى ما اعدته له هذه الحكمة من اهداف ثم لتنتهي إلى ان الاسلام واحد من تلك الضرورية لاستقامة الوجود ، وقد شرعته الحكمة الالهية ليبلغ بالانسان – وعن طريق اختياره وارادته – إلى ما عينته له من اهداف رفيعة في الحياة حينما انشأته قمة بين مظاهر التكوين

ليصبح الاسلام – من ثم – هو القمة بين سنن الكون كافة.

ونقف هنا عند شاهدين اثنين من هذه السياقات القرانية الواردة في هذا المعنى – وهي كثيرة – ونقرؤهما دون شرح أو تعليق لوضوح دلالتها على ما ذكرناه ، ضمن هذه الافاق العامة التي ذكرناها فاستلهام المراد منها لا يحتاج لأكثر من قراءة متأنية مع قليل من التدبر والتأمل.

قال تعالى في سورة الانعام:

)إِنّ اللَّه فالق الحبِ والنَوى يخرِج الحي من الميت ومخرِج الميت من الحي ذلكم اللَّه فَأَنَّى تؤفكون. فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم .وهو الذي جعل لكم النجوم لتَهتدوا بِها في ظلمات البر والبحر قد فصلنَا الايات لِقوم يعلمون . وهو الذِي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقَهون.وهو الذي أَنزل من السماء ماءً فأخرجنَا بِه نَبات كل شيءٍ فَأَخرَجْنَا مِنهُ خَضِرًا نخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا. وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .(

)وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ آله الا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .لاَ تُدْرِكُهُ الابْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الابْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير.قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)(٢٢(

وقال تعالى في سورة الجاثية:

)تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)(٢٣(

نعم هذه هي الارصدة المبدئية التي ينطلق منها وجود الاسلام ذاته ، وهذه هي الدعائم التي بنيت عليها حقائقه كافة ، وهذه هي الاصول التي يعتمدها في سنّ مناهجه وتشريع احكامه.

..حكمة الله ربانية شاملة أوجدت الموجودات ، وكونت الكون ، ودبرت مافيه من مظاهر ، وحددت

لكل مظهر منها غاياته ، واعدت له دوره ، ثم رسمت له ما يبلغ به إلى تلك الغايات من سنن يستحيل عليه ان يتخلف عنها ، كما يستحيل عليها هي ان تزيغ به عن آلهدف اذ لا عبث ولا عجز ولا جهل في تلك الحكمة البارئة المدبرة.

ثم جعلت هذه الحكمة من الوحدة والتكامل بين الموجودات رصيدا لتجلياتها فيها..

اما الانسان فهو لا يعدو ان يكون بعض موجودات هذا الكون .. واما موقعه فيها فهو أحد المواقع التي يبرز به ذلك التكامل المضطرد فيما بينها . واما دوره فيها فهو احد الادوار التي تتجلى بها وحدتها . واما الاسلام فهو السبيل الذي يحقق به الانسان غايات تلك الحكمة فيه . فما كان ليبلغ هذه الغايات بدون منهج ينتظم به في سلوكه الاختياري مع المسيره العامة للكون ، ويستقيم به مع متطلباتها في الحياة .

ثم ما كان الاسلام ليبلغ بالانسان إلى هذه الغايات االرفيعة بدون الاستقامة مع تلك الوحدة، وذلك التكامل الشاملين.

علم الشخص المنتجب ومقتضيات الحكمة الربّانية

اذن ، فهذه الشمولية – وبهذه السعة المستوعبة لمظهر التكوين كافة ، ولدلائل حكمة الله فيها – هي رصيد الاسلام في أولياته المبدئية التي ينهض عليها كيانه ، وعليها يقيم دلائله وبيناته ، لتبلغ به حجة الله تعالى على العباد وتستقيم به كلمته في الارض ويظهر به لطفه العميم ورحمته الواسعة بالانسان.

وهذا يعني – وبوضوح لا لبس فيه ضرورة ان تؤخذ هذه الشمولية – وبهذه السعة أيضاً – في علم الشخص الذي يصطفيه الله تعالى لتبليغ أمره ، ويختاره لان يكون حجته القائمة لدينه في البشرية اذ بدون هذا المستوى من الاحاطة في علم المنتجب لا يضمن الاسلام لنفسه استقامة الحق فيه، بتلك الحدية التي ذكرناها في التمهيد الاول لهذا البحث.

علم تمتد آفاقه لا إلى الاحاطة بوجود الانسان وحياته واحوآله ومنزلته الخاصة بين الموجودات فحسب ، .. بل ولا إلى الاحاطة بهذا الوجود التكويني القائم وما فيه من مكونات ومظاهر كذلك .. وان كانت هذه الدرجات الرفيعة من العلم هي المطمح السامي الذي تقف دونه آمال البشرية كافة في الدراسة والبحث ، وترنو اليه ابصار العلماء وبصائرهم في مختلف فروع العلم والمعرفة على امتداد التأريخ الانساني.

كلا ، وانما هو علم يمتد إلى ما وراء الموجودات كافة ليستوعب ما تعنيه حكمة الله سبحانه فيها وما تقتضيه فيها من متطلبات وشؤون وما تستوجبه من سنن وقوانين . على ان يكون هذا الامتداد إلى المدى الذي يستوجب قيام حجة الله تعالى بذلك الشخص المرتضى ، وما يصدر عنه من مواقف واقوال لا في حدود عمره الشخصي فقط وانما في آفاق الدور الذي اتسعت له مسؤوليته في قيام دين الله تعالى – كما قلناه أكثر من مرة – فمن الواضح ان أي قصور يبدو في كلمة أو موقف يصدر من ذلك الشخص المرتضى عما رسمه الاصطفاء الالهي له من مهمات يعني – ودون أي ريب – نقصاً في قابلية هذا الشخص على أداء دوره المطلوب منه ، وهذا محال ، اذ هو سينعكس في دلالاته السلبية على ذات الاصطفاء الالهي له وعلى دين الله نفسه وعلى قيام حجته فيه.

وستأتي – ان شاء الله تعالى – الاشارة إلى ما يعنيه قوله تعالى في سورة الجن..) :عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . الا من ارتضى من رسول ، فانّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربّهم واحاط بما لديهم ، واحصى كل شيء عددا)(٢٤(

فانّ في هذه الايات المباركة تأكيداً على ان ابلاغ رسالات الله ضرورة في ارتضاء الله لرسله تستدعي امدادهم جميعا بكل ما يحتاجون اليه من مهمات وان كان هو العلم ببعض الغيوب.

لا بد ان يكون مصدر علم المنتجب ربّانياً نعم ، ولهذا الضرورة وجب ان يكون مصدر العلم في أولئك الاصفياء ، هو الله تعالى ، فالافاق التي ذكرناها مما يستحيل على الحدود الانسانية القاصرة بلوغها دون مدد ربّاني خاص يأخذ بها إلى ذلك المستوى الرفيع.

والايات الكريمة التي عرضت لرعاية الله سبحانه لرسله وانبيائه المطهرين نصت على ان سمة العلم هي بعض مجالي هذه الرعاية وآفاقها..

فيقول تعالى في آدم (عليه السلام) – مثلا - : (وعلّم آدم الاسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة)(٢٥(

كما يقول عن نوح (عليه السلام) : (قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين. ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون)(٢٦(

ويقول عن موسى (عليه السلام) : (ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)(٢٧(

ويقول سبحانه عن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك

ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)(٢٨) .. إلى آيات اخرى وردت في هذا المضمون.

وهو ما اكده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان ما في ذاته المقدسة من فضيلة العلم ، وقد قرأنا قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم غدير خم : (فما من علم الا وقد احصاه الله فيّ.(.. كما يقول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث آخر : (أوتيت مفاتيح كل شيء الا الخمس: (ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير)(٢٩)) (٣٠.(

وحين تكون صفة العلم لدى هؤلاء المنتجبين آلهية المنشأ ، ودون اكتساب حتى منهم أنفسهم فطبيعي ان لا يلحظ فيها قصور أو تفأوت عن الضرورات التي قلناها ، حيث يستحيل تصور احد هذين النقصين فيهم حينئذ فالله تعالى أجل واعز من ان يُرى في امره وهن ، أو يكون في قدرته عجز .

ولابد ان تكون هذه الافاق وهذه الشرائط هي اصول سمة العلم لدى علي (عليه السلام..(

فهو (عليه السلام) أول من ارتضاهم الله تعالى لقيام حجته الكبرى في البشرية بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفي آفاق هذه الحجة حددت مسؤولياته العظمى في هذه الحياة . وحينئذ فمن المستحيل على حكمته تعالى ولطفه بالعباد ان لا يمدانه بما يحتاجه في اداء دوره هذا، وما يتطلبه استيفاؤه لشرائط الحق في دينه القويم..

والروايات السابقة التي ربطت بين علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلم علي)عليه السلام) .. وكذلك الروايات التي ربطت بين علم سائر الانبياء أو بعضهم وعلمه) عليه السلام) واضحة الدلالة على هذه الناحية.

فهو علم آلهي المنشا، افيض عليه (عليه السلام) لتأهيله للقيام بمهماته الكبرى التي كلّف بها في دين الله سبحانه وفي ولايته العامة على الامة ... وطبيعي ان لا يقصر ضرورات هذه المهمة أو يحيد عنها.

)علي عيبه علمي) .. (علي باب علمي).. (أنا مدينة العلم وعلي بابها) ... (أنا دار الحكمة وعلي بابها) ... (ما من علم الا وقد احصاه الله فيّ ونقلته اليه) ... (من أراد ان ينظر إلى آدم في علمه) .. (و وارث علم النبيين.(

دور رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في البشرية

امّا البعد الثاني الذي ينبغي ان نقف عنده من عنصر الشمولية في علم علي (عليه السلام) فهو الجانب الذي يتأتى من سعة الدور ، وعظم المهمات التي جعلها الله سبحانه لرسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في هدى البشرية ، وارشادها إلى الصراط المستقيم .. هذه الرسالة التي كان لعلي (عليه السلام) موقعة الثاني فيها بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومن أجلها تحقق إرتضاء الله عزّ وجل له ولياً على الناس ، فمن الطبيعي ان يكون لتلك السعة والعظمة دلائلها الواضحة في الشرائط والسمات التي تتجلى في اصفياء هذه الرسالة ، ومنتجبها كافة – بمن فيهم علي (عليه السلام) – لنفس المستلزمات التي ذكرناها سابقاً.

ونقف هنا عند جانبين من هذه السعة:

فمن المعلوم – أولا – ان الله تبارك وتعالى قد بعث محمداً نبراساً لدينه وهادياً للبشرية جمعاء فرسالته – ولا ريب – شاملة للبشرية جمعاء .. قال تعالى :

)قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً..)(٣١(

)وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذير)(٣٢(

ومن المعلوم – ثانيا – ان الله سبحانه وتعالى قد جعله خاتما للنبيين فلا نبي بعده ، اذن فرسالته خاتمة الرسالات والنبوات كافة ، فلا رسالة ولا نبوة بعدها ، قال عز من قائل:

)ما كان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)(٣٣(

والمعنى القريب لهذين الجانبين من سعة رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الاسلام في رسالته المحمديه العصماء هو الدين الذي جعله الله تعالى هدى للبشرية كافة ، فلا يحده في مهمته بلد معين ، ولا لغة من اللغات ولا طائفة من الطوائف أو امة من الامم أو قومية من القوميات أو مستوى حضاري أو علمي خاص، أو اتجاه من الاتجاهات الفكرية أو العاطفية أو غيرها.

وان الاسلام في رسالته المحمديه هو الدين الخالد مع البشرية ما دام لها وجود في هذه الارض فلا يحدّه زمن من الازمنة ولا عصر من العصور منذ ان صدع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأول حقيقة من حقائق الرسالة ، وحتى يوم يقوم الحساب ، فلا استغناء لجيل من الاجيال عنه ، ولا فرد من الافراد ، ما دام هناك من يعمر البسيطة مهما تمادت الحقب وتواترت القرون.

وكلتا النقطتين هما من البداهة لا سلامية المعروفة.

وطبيعي ان ياخذهما دين الله اصلاً عاماً في حقائقه كافة ، وشرطاً مضطرداً في بيّناته ودلائله جميعاً

اذ يستحيل التفأوت بين هذه الغاية الكبرى والواقع الفعلي في ذاته .. كما هو واضح.

والذي يعنينا من هاتين النقطتبن هو : ملاحظة ما كان لهما من آثار في الدلائل والبيّنات الاسلامية وقيام حجة الله فيها ، ولا سيما تلك الدلائل التي اعتمدها في شخصيات أصفيائه المنتجبين (عليهم السلام.(

وقد لا حظنا في البحث السابق ان السبب في ضرورة اعتبار سمة الشمولية واحدة من الشرائط الاساسية في علم الشخص المنتجب انما هو ضرورة التناسب المطلق بين حدود الاصطفاء الالهي والغايات المطلوبة منه ، مع وفاء الشخص المصطفى بمسؤولياته الكبرى فيه .. واستحالة التفأوت بينهما لحكمة الله تعالى وقدرته واحاطة علمه.

..وكما كان هذا التناسب سببا في حاجة علم الاصفياء إلى المصدر الالهي ، لقصور الانسان .. مهما بلغ سمواً وكمالا .. عن الاستقلال بنفسه في الوصول إلى هذا المستوى ، دون مدد من العلم الربّاني المحيط ..

...وكما كان هذا التناسب أيضاً سببا لان يستوعب علم الاصفياء لجميع الاصول والمبادئ التي يستند اليها دين الله تعالى من مقتضيات الحكمة الالهية ذاتها ، وتجلياتها الكبرى في الوجود الانساني بشكل عام..

..كذلك يجب ان يكون هذا التناسب هو الرصيد الفعال في سعة هذا العلم لجميع آفاق مسؤوليات أولئك الاصفياء في ابلاغ كلمة الله تعالى إلى أسماع البشرية وبصائرها وقيام حجته عليها في جميع ازمنتها وامكنتها ومستوياتها العلمية والحضارية واتجاهاتها الثقافية التي أخذت في تلك المسؤوليات.

فهذا التناسب المضطرد هو الحاكم بضرورة ان تكون سمة العلم في منتجبين دين الله) عليهم السلام) بدرجة من الكمال والسمو تستوعب جميع ما يتصور بلوغ البشرية كافة اليه – وفي جميع الازمنة والامكنة والمجتمعات والحضارات – وما تصل اليه من مستوى فكري أو عملي وفي أي مجال من مجالات المعرفة وفي أي صعيد من اصعدة الحياة وعلى مدى التاريخ.

اذ كما استحال التفأوت في الاصول المبدئية التي يستند اليها الاسلام في الدلائل التي يقيم بها حجة الله على الناس ، مما استدعى الاستيعاب في علم منتجبيه لحقائق تلك الاصول ، منذ اعماقها الاولى ، كذلك يستحيل التفأوت في الغايات الالهية لهذا الدين في هدى الناس، وما في هذه الغايات من جوانب السعة والشمولية لمختلف المجالات والمهمات . مما يستوجب كمال دلائله وبيّناته بدرجة تسمو على

جميع ما يمكن ان يبلغه الناس من حدود ، وتتنزه به عن التهافت أو الخلل ، أو القصور عن ابلاغ كلمة الله تعالى في عصر من العصور أو مجتمع من المجتمعات.

بمعنى ان تكون هذه الدلائل والبينات شاملة الحجة في أي وجود بشري أو على أي مستوى يصل اليه الفكر الانساني.

وان تكون بالغة الحجة في كل مكان يعيش فيه احد من الناس على هذه البسيطة.

وهي ضرورة عامة في ألسنة الاعلام كافة، وفي جميع شواهد تصديقه .. من القران الكريم، إلى سنة الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) والى تراث أوصيائه المنتجبين) عليهم السلام) ، اذ الاساس في الجميع واحد ، والمقتضيات واحدة ، والمنهج واحد كما علمنا.

هكذا كان لكل ما صدر من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومن أوصيائه المطهرين جميع شرائط الحجة الالهية وعوامل بلوغها ، وسمو كلمتها مع العصور وفي أي وسط اجتماعي ، دون ان يحدّ هداها والزامها للبصائر حدود موضوعية أو فكرية ، أو شيء مما يحكم حياة الناس من اسبابه التفأوت والاختلاف ، أو شيء مما يمليه عامل الزمن من الفوارق في المستويات والاتجاهات بالرغم مما اقتضته ظروف الخطاب وحدود فهم الناس الذين خوطبوا بتلك الكلمات من طرائق وحدود فيها.

وهي نقطة فعلية وواضحة لنا في هذه الايام كما كانت بالامس .. من ذات الاسلام ، ومن دلائله وبيّناته كافة ، فسنّة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرة) عليهم السلام) – كالقرآن العظيم – هي اليوم ، وكما كانت بالامس حجة الله بالغة واضحة النور والهدى لجميع الناس ، لا وهن في دلالتها ، ولا خلل في عطائها ، وستبقى بهذا المستوى من الوضوح والقوة والكمال مع الناس في حياتهم إلى القيامة..

)إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)(٣٤.(

فرق ما بين المنتجب وغيره من الناس

ومن هنا كانت هذه الناحية بعض الفوارق الواضحة بين أولئك الاوصياء وغيرهم من الناس ، كما كانت ينبوعا من ينابيع الاعجاز الالهي في كلماتهم وافعآلهم ومواقفهم كافة..

اذ يستحيل على الشخص العادي من الناس بلوغ هذه السعة والمستوى في مداركه وطاقاته المحدودة ، مالم يرفده مدد رباني خاص..

فان لكل بلد من البلدان ، ولكل طائفة من الطوائف ، وكل حضارة من الحضارات تقاليد ومسلّمات

واتجاهات سلوكية وعملية وثقافية خاصه تختلف بها عن غيرها من البلدان والطوائف والحضارات حتى في الزمن الواحد.

وكذلك فانّ لكل حقبة من حقب التأريخ ، ولكل زمن تمرّ به أجيال الناس ، أثرا كبيرا طرح نوع خاص من التوجهات والاهتمامات الفكرية والسلوكية ، وكذلك في الوصول إلى درجات خاصة من الخبرة يتفأوت به كل جيل عما تنآله الاجيال الاخرى حتى في البلد الواحد أو الشعب الواحد من الناس..

ولا ريب ان لكل من هذين الجانبين اثره في تحديد السمات العامة لشخصيات الناس ، فان الفرد وهو ينشأ في وسط اجتماعي أو ثقافي معين لابد ان يكتسب طابع البيئة التي يعيش فيها ، ويتأثر بالاجواء العامة التي تحكمها من حيث يشعر أو لا يشعر.

وقد قلنا أكثر من مرة ان الانسان وليد عصره وهو ابن بار للوسط الذي يعيش فيه ، وان سعى للانفصال عنه بخطوة إلى الامام أو الخلف أو إلى احد الجانبين

ومثل هذا التحديد مما لا يتصور في موارد الاصطفاء الالهي ، وبالاخص أولئك الذين اخذت الشمولية للبشرية وعصورها كافة في مسؤولياتهم ، وفي مقتضيات اصطفائهم كمحمد) صلى الله عليه وآله وسلم) والنجباء من عترته المطهرين (عليهم السلام) .. أو من المستحيل تصور قصورهم عن الوفاء بتلك المسؤوليات وهذه المقتضيات – كما قلنا .. - فلابد ان تؤخذ تلك الشمولية – بكل ابعادها – في مجاري الفيوض الربّانية لهم في العلم والاحاطة بالامور أيضاً كما هو الشأن في الشرائط الاخرى لاصطفائهم ، وشرائط الحق الذي اعتمده هذا الاصطفاء لهم.

ومن هنا أوتي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مفاتيح كل شيء الا الخمس التي ذكرتها الاية الكريمة السابقة..

كما أوتي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكثير من الخصائص التي فضل بها حتى على غيره من انبياء الله ورسله (عليهم السلام) لاختلاف ما بين مسؤولياته (صلى الله عليه وآله وسلم) عن مسؤولياتهم (عليهم السلام) اذ كانت رسالاتهم محدودة الزمن أو المكان أو المجتمعات البشرية – كما هو معروف بينما لم تحدد رسالته باي من الحدود الموضوعية.

اذ يقول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (فضلت على الانبياء بست . اعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، واحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا ، وارسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيّون) (٣٥(

ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً : (اعطيت مالم يعطه احد من الانبياء . فقلنا: يا رسول الله وما هو ؟

قال (صلى الله عليه وال هوسلم) : نصرت بالرعب ، واعطيت مفاتيح الارض . وسميت أحمد ، وجعل لي التراب مسجدا وطهورا و جعلت أمتي خير الامم ..) (٣٦) إلى روايات اخرى في هذه المضامين..

علي عليه السلام كالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الشرائط

وعلي (عليه السلام) لا يختلف في هذه الناحية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وان كان تبعاً له فيها...

فالله سبحانه هو الذي اختاره وليا للامة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم (وارتضاه هاديا لها بدينه القويم ونبراسا له في البشرية ومبلغا لامره ، وان لم يبلغ درجة النبوة بل أخذ هذه المهمات والمواقع والادوار من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم.(

وحديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه : (انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي) (٣٧) معروف متواتر.

وحيث لم تحدد مسؤولياته دون حدود رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاتها في البشرية فمن الطبيعي ان تؤخذ في اصطفائه ، وفي الفيوض الربّانية له ، نفس الشمولية التي اخذت مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اذ لا تفأوت في موازين الحق ومتطلباته. وقد قرأنا هذا في بعض احاديث الغدير ذاتها ، اذ يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم :(

)فان الله قد نصبه لكم وليا واماما وفرض طاعته على كل احد . ماض حكمه . جائز قوله .ملعون من خالفه . مرحوم من صدقه . اسمعوا له واطيعوا . فان الله مولاكم وعلي امامكم ثم الامامة في ولدي من صلبه إلى القيامة . لا حلال الا ما احله الله ورسوله . ولا حرام الا ما حرمه الله ورسوله وهم ( ).٣٨)

ويؤيد هذه الشمولية كثير ما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حق علي)عليه السلام) ، اذ كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤكد عليها في كل مناسبة..

فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول – مثلا - : (سألت الله فيك خمسا فاعطاني اربعا ومنعني واحدة ، سالته فاعطاني انك أول من تنشق الارض عنه يوم القيامة . وانت معي معك لواء الحمد ،

وانت تحمله، واعطاني انك ولي المؤمنين بعدي) (٣٩(

ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (انا وعلي حجة الله على عباده) (٤٠(

ويقول كذلك – وقد راى عليا مقبلا - : (انا وهذا حجة على امتي يوم القيامة) (٤١(

ويقول أيضاً كما عن انس بن مالك : يا انس ، قلت لبيك ، قال : (هذا المقبل حجتي على أمتي يوم القيامة) (٤٢(

والرصيد العلمي لعلي (عليه السلام) يجب ان لا يقصر بحال من الاحوال عن هذه الافاق أيضاً.

فالدلائل الالهية التي يقيمها في البشرية والبيّنات والبصائر الاسلامية التي يحققها في مواقفه وكلماته ، يجب ان تستوعب – بدورها – حدود البشرية كافة ، وتتجاوز عامل الزمن والمكان والاتجاهات العلمية والحضارية التي اخذت فيها ، دون ان تتأثر بحد من الحدود ، أو تقصر عن احتواء اتجاه أو تعجز عن بلوغ غاية..

وكل هذا واضح من خلال التأمل في تلك الاطلاقات والعمومات الواردة في كلمات الرسول)صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يبين ما لعلي (عليه السلام) من خاصة العلم فيه .. وفي الاحاديث المتقدمة التي قرأناها كفاية عن اقتباس مزيد منها وان كانت مصادر الحديث ملأى بمثل هذا المضمون..

)فما من علم الا وقد احصاه الله فيّ ونقلته اليه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به .. فهو افضل الناس بعدي .. ما نزل الرزق وبقي الخلق . ملعون من خالفه ، قولي عن جبرئيل عن الله(..

)أعلم أمتي من بعدي علي بن ابي طالب..(

)علي عيبه علمي) .. (علي واعي علمي) .. (علي باب علمي).. إلى آخره..

ومحال ان لا تصح هذه الكلمات من الرسول في مورد فهو (صلى الله عليه وآله وسلم (،)لا ينطق عن آلهوى ان هو الا وحي يوحى) بنص الكتاب العزيز.

و(قولي عن جبرئيل عن الله) بالتزام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه..

وضوح الاعجاز العلمي في دلائل دين الله تعالى

هذا ولعل البشرية في هذه العصور اقرب إلى ادراك ما تعنيه هذه الشمولية في دين الله تعالى وفي ابعادها المتقدمة المختلفة ، سواء في حججه البالغة ، ام في الارصدة العلمية والبيّانية التي تستند اليها وسائل تبليغه المصطفاة..

..هذه العصور التي قفزت فيها المعرفة درجات لم تكن بحسبان احد من الناس ، حتى في العصور

القريبة من التأريخ – فضلا عما قبلها من حقب – وسارت فيها ركائب العلوم في كل اتجاه ، ومضى الانسان يجوب افاق الفضاء ، ويتأمل مكونات الذرة ، ويغور في الملاحظة إلى اعماق النفس الانسانية ، وينفذ إلى ادق دقائق الحياة..

الا ان الانسان – ومع كل ما بلغه من افاق المعرفة هذه ، ومع كل ما يفرضه عليه التطور العلمي من نتائج حاسمة في الحياة – لم يجد أي وهن في دين الله تعالى ، أو انحراف عن الهدى والرشد في اصوله ومناهجه ، أو تصور في بيّناته عن كفاية اكبر العقول في قناعتها التامة ، واطمئنانها إلى سلامة الطريق وضمان النتائج التي يهدف اليها الاسلام في مختلف توجّهاته.

فرغم جميع هذه المستجدات المشهودة للإنسان يبقى هدى الاسلام هو الهدى ، وكلمته هي العليا ، ولا تزال حجته البالغة ، ولا تزال لتلك الكلمة وهذه الحجة قابليتها الاولى –والتي كانت لهما في العصور السابقة – في ملء البصائر وقيادة الحياة ، والاخذ بركائب الاجيال الانسانية إلى ما اراده الله سبحانه لها من رشد وصلاح ، والى ما اقتضته حكمة الايجاد للانسان من دور سام بين مظاهر هذا الوجود.

ومن الواضح ان هذا السمو والكمال في ذات الاسلام واتجاهاته وبيّناته – وبهذا المستوى الرفيع والواضح – ما كان ليتحقق دون ان تؤخذ الشمولية التي قلناها – واحدة من الارصدة المبدئية في العلوم التي تركن اليها وسائل التبليغ التي اختارها الله لاقامة كلمته في هذه الارض وارتضاها سبلا لابلاغ حجته إلى العباد.

..الشمولية في استيعاب هذه الوسائل لجميع الاصول العميقة التي طلق منها الاسلام في اقامة كيانه دينا للحق ، معتمدا لمقتضيات حكمة الله تعالى في انشائها للخلق ، ومستقيما مع تجلياتها البارزة والخفية في مختلف جنبات الوجود .. بما فيه الانسان وحياته وشؤونه وعلاقاته الخاصة والعامة.

والشمولية في رؤية هذه الوسائل لجميع ادورا الانسان ومستوياته الفكرية ، وتطلعاته العلمية كفاية للهدى الاسلامي نفسه وفاعليته في الحياة ، وفي الخلود الابدي لكلمتها مع الزمن ، دون ان يؤثر فيها أي من عوامل التغيير ، أو تطورات الحقب..

وكل هذه الابعاد من الشمولية واضح في بينات الاسلام وبصائر مصطفيه ، ويستطيع أي متدبر واع ادراكه مع اني تدبر لها ومتابعة لدلائلها في الحياة.

الاعجاز في علم علي عليه السلام

امّا علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالخصوص ـ حيث يعينه هذا الحديث بالذات من بين ألسنة الاسلام ومنتجبي حجته ـ فمن نافلة الحديث ان نقول : انه أحد أولئك الذين تجلت فيهم هذه الشمولية في مختلف أبعادها كذلك...

ويكفينا من شواهد تصديقها ما تراه البشرية اليوم ـ عين ما رأته بالامس القريب والبعيد ـ من حيوية الدلائل الاسلامية التي أقامها في كلماته وأفعآله ، واعجاز ما اعتمده فيها من أوليات وقيم فكرية واخلاقية امتدت معه إلى شؤونه كافة ، وخلود النور والهدى في جميع ما أثرعنه في حياته المباركة كلّها.

وها هي حياة علي (عليه السلام) وما خلده التاريخ من وقائعها وأحداثها ..

وها هي كلمات علي (عليه السلام) وأقواله التي ألقاها على مسامع الاجيال حجة للإسلام بالغة مع الزمن.

وها هي حياة علي (عليه السلام) وها هي كلماته جميعها اليوم ـ وكما كانت في السابق نبراساً حياً يمد السائرين في طريق الحق بالروح والاستقامة ، ويهدي به السالكين في سبيل الرشاد ، بالرغم مما واكب تأريخه وتأريخ ولايته من غبن الاحقاد وانحراف الاهواء ، وجهود الضغائن في طمس منابع النور فيها . ولكن هذه الاحقاد ، وبالرغم مما تملكه من خبث الباطل ـ لم تجد في أي من تراث علي (عليه السلام) ثغرة يمكن أن تنفذ منها إلى مآربها معه ، أو هفوة تستطيع التسلق عليها إلى غاياتها الدنيئة فيه أو في إبعاد البصائر الحرّة عنه ، أو تفأوتاً عن حدود الاسلام وبيّناته الاخرى ، ليمكنها ـ من ثم ـ ان تتخذه ذريعة لنيل أهدافها مع ولايته.

وطبيعي أن لا أحاول الدخول في تفاصيل هذه النقطة من شؤون علي (عليه السلام) كما لا أحاول الاستعانة باقتباس بعض شواهد التصديق لها ، فهي وكما يرى القارئ اللبيب ـ أوسع من أن يستوعبها حديث مقتضب سريع ، كالحديث الذي نحن فيه..

نعم ، يكفيني ان أشير إلى ما يراه الانسان في نفسه من قصور أزاء العظمة التي يجدها فيما أثر على علي (عليه السلام) من كلمات ومواقف ... فان المرء قد يرتضي من نفسه ما بلغته من درجات المعرفة والعلم ، بل وقد يكبر فيها هذه الدرجات ، الا انه ما ان يقف أمام كلمة قالها علي (عليه السلام) ضمن اختصاصه ، الا ويدرك انه لا يزال صغيراً ضئيلاً أزاء ما فيها من من عظمة ، وما فيها من دلائل العلم والمعرفة ؛ بل ويدرك ضرورة أن ينتظم في خطها ويستظل بظلالها ، أو يقبس

من اشعاعها ، ان أراد لكفاءاته وقابلياته ودرجاته العلمية التي أوتيها أن تثمر ثمارها الطيبة في حياته أو في حياة الاخرين..

ولا يختص هذا الشعور منه في بعض اتجاهات المعرفة دون بعض مما استوعبته كلمات علي)عليه السلام) ومواقفه ، كما لا يختص ببعض الناس دون آخرين ، أو بمستوى علمي دون غيره ، ولهذا فيمكن القول بأن كل أحد من الناس يمكنه ان يلمس هذا الشعور من نفسه في أي اتجاه من المعرفة سلكه ، كان لعلي (عليه السلام) كلمة فيه أو استند اليه علي في بعض كلماته . وفي أي مستوى بلغه في هذا الاتجاه.

ومن الطبيعي ان يعلم المرء ان الاتجاهات المعرفية المختلفة ومستوياتها كافة ، لا تعدو هذه النتيجة أيضاً، والا لم تخف الايام ما استطاع احد من الناس ان يتجاوز به هذه الحدود المطلقة فيها ، ولا سيما مع ما عرفناه من سلبية مواقف التاريخ مع علي) عليه السلام) وولايته.

ويكفيني ان أشير أيضاً إلى اجماع المنصفين من باحثي حياة علي (عليه السلام (وسيرته على الاعتراف بقصورهم عن استيعاب افاق العظمة في شخصيته ، وفيها خلده التاريخ من موقفه والشؤون ،وتأكيدهم على وحدة المنابع والاصول التي أدركوها لتلك الافاق والماقف والشؤون مع مختلف دلائل الاسلام واتجاهاته واصوله ، دون ادنى وهن أو تفأوت.

واقول : المنصفين من باحثي حياة علي (عليه السلام) ، لاني اعلم – حق العلم – انه ليس كل احد ممن دخل هذا المضمار كان رائده الحق ، أو كانت غايته الاستقامة معه ، أو كان يقصد الوفاء بمسؤوليته الالهيه والانسانية في استماع القول لا تباع احسنه ، ليستطيع – من ثم – ادراك منابع الرشد والهدى في هذه الشخصية العظمى أو حتى يرى مطالع انوارالله فيها.

بل ، واعلم ان الكثير ممن عني بدراسة حياة ، علي (عليه السلام) كان من ذوي النفوس المريضة ، وانه قد ارتكس على أم رأاسه في حمأة الباطل في جهوده بتلك الدراسة ، وهوى إلى دركات سحيقة من الضلال في النتائج التي بلغها فيها .. فعلي (عليه السلام (وحياته لا يختلفان عن مصادر الاسلام وبصائر الاخرى في جهة فهمه ، هي من خصائص الاسلام ومعجزاته ، وهذه الجهة هي : ان المواقف السلبية مع الاسلام وحقائقه ستنتهي مع الانسان إلى ما لا يحمده لنفسه من النتائج ، والقران الكريم يشير إلى هذه الحقيقة من نفسه والنتائج المشينة لمواقف الناس السليبة من ذاته قبل غيره من تلك المصادر اذ يقول:

)الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون)(٤٣(

)ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)(٤٤(

إلى آيات كثيرة اخرى في هذا المضمون.

كما يقول القران أيضاً عن هذه الحقيقة من مواقف الناس من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والرسل السابقين عليه . اذ يقول : (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب)(٤٥) . إلى آيات اخرى كثيرة كذلك ، وردت في هذا المضمون.

ولهذا فليس غريبا ان يرتكس أولئك الحاقدون في مضلات النتائج حين يقفون من علي وابنائه (عليه السلام) تلك المواقف السلبية أو الحاقده ويكفيني ان اشير أيضاً إلى ما قراناه سابقا من كلمات علي (عليه السلام) في اعلامه للامة بما يملكه من علوم ربّانية المصدر ، وتحّديه للبشرية كافة بهذه العلوم .

)سلوني قبل ان تفقدوني ، فاني لا أُسال عن شيء دون العرش الا اخبرت به(

)ألا أنّ ها هنا – وأشار إلى صدره – لعلماً جماً لو أصبت له حملة(..

)كنت اذا سألت أعطيت ، وذا سكت ابتدئت ، وبين الجوانح علم جم . فسألوني(

إلى كلمات اخرى في هذا المضمار.

نعم يكفينا منها هذا التحدي الخالد لجميع الكفاءات والقابليات البشريه على امتداد التأريخ دون جواب منها يقف به عند حد ، اذ بقي – حتى اليوم ، بل وسيبقى حتى اليوم الاخير في هذه الدنيا حيا متلألئا ، شامخاً، دون ان يستطيع احد التطأول عليه ببيّنة ، أو ينال منه هدفاً بكلمة.

وحتى تلك الضغائن والاحقاد التي علمنا ما لها من أدوار كبرى في صياغة حياة الامة المسلمة ، وكتابة تأريخها ، فهي – ومع عظم ادوارها هذه – لم تستطع ان تنال من هذا التحدي في اثبات شيء مما يكذب علياً (عليه السلام) في كلماته هذه ، أو يوهن مدلولها في جانب من الجوانب التي عرضها في اقوآله وافعآله واحواله كافّة نعم لا شيء واحد اختلف فيه علي (عليه السلام) عن الحق ، أو قصر عن دلائله أو تفاوت عن سبيله بالرغم من سعة الجوانب التي طرحها في كلماته ، والافاق التي تناولها في بيّناته.

علم علي (عليه السلام) بالغيب

تمهيد :

وفي هذا الخط أيضاً..

في ضرورة الاستقامة بين اركان الحق ومتطلباته..

وفي حتمية عدم التفأوت بين الاصطفاء الالهي وتحقق اهدافه في الشخص الذي يرد فيه..

في هذا الخط أيضاً يجب ان يفهم الجانب الغيبي من علم علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، علم الغيب الذي يتطلبه قيام الحق في دين الله سبحانه، ويحتاجه علي (عليه السلام) نفسه في وفائه الكامل بمسؤولياته الكبرى فيه فبعد ان ثبتت ولاية الله الكبرى له ، وبعد ان اصطفاه الله تعالى لها ، فمن الضروري ان يمده بجميع ما يلزمه في الوفاء بمتطلّباتها ،وتحقيق شرائط الحق فيها منذ ادق دقيق فيها وحتى اظهر مظاهرها وضمن أي جانب من جوانبها.

ولا ريب ان العلم ببعض الغيوب هو احد تلك المتطلبات المفروضة واهمها ، لان دين الاسلام ذاته – والذي اصطفى علياً (عليه السلام) لولايته – ليس الا صلة رابطة بين الغيب والشهادة فالمنتجب للقيام بدور خاص في هذا الدين لابد ان يرفد من هذا الرصيد بما يمكنه من اداء دوره هذا ، والاقصر عن الغاية ، وهذا محال ، كما سبقت الاشارة اليه اكثر من مرة..

وعلي (عليه السلام) لا يفترق عن غيره من اصفياء الله تعالى في هذه الناحية ، فهي – على اجمالها هذا – مما لا يتفاوت فيه الاصفياء كافّة ، وان اختلفت التفاصيل في كل منهم ، لا ختلافهم في المهمات الموكلة اليهم وفي حدود مسؤولياتهم في هذه المهمات.

ونحن – ومن اجل فهم مناسب لما يعنيه علم الغيب لدى علي (عليه السلام) خاصة ، ولدى الاصفياء (عليهم السلام) عامة – ينبغي ان نقف بشيء من التدبر – عند بعض النصوص التي عرضت له صراحة أو ضمناً ، لنستلهم منها بعض الدلالات المطلوبة لتحقيق غايتنا تلك.

والملاحظ في هذه النصوص انها من الاستفاضة والشهرة بدرجة اسمى من ان يرتاب في مضمونها العام ذو خبرة منصف وان نوقشت بعض الجزئيات فيها فهي مع شهرة روايتها ، وتواتر بعضها ، لا يختص ورودها في مصادر خاصة لمذهب معين ، ولا في اتجاه واحد من اتجاهات المعرفة الاسلامية فهي تملأ مختلف كتب الحديث والتفسير والتأريخ والسيرة والملاحم والمناقب وغيرها.

ولكي نستشف نحن فكرة واضحة متكاملة الخطوط يمكننا ان نستعرض طوائف اربع من هذه النصوص لكل منها دور بارز في أيضاَح جوانب مما تحتاجه في هذه الفكرة ، اضافة إلى بيان ما

يعنيه علم الغيب في شخصية علي (عليه السلام) وعظمتها ، وفي مدى وفائه) عليه السلام) لمسؤولياته الكبرى في ولايته الاسلامية ولا في حدود زمان أو مكان معين ، وانما في كل زمان ومكان.

الطائفة الاولى:

وهي النصوص ما جمع فيه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا الجانب من علم علي)عليه السلام) إلى جوانبه الاخرى ، والنصوص التي وحّد فيها علوم علي (عليه السلام (مع علومه وعلوم جميع الانبياء وبين ان مصدرها جميعا هو الله تعالى العليم الخبير...

ونحن قد قرأنا من هذه الطائفة ما قاله الرسول (صلى الله عليه وآله و سلم) في مشهد الغدير نفسه (فما من علم الا وقد احصاه الله في ونقلته(..

كما قرأنا أقواله (صلى الله عليه وآله وسلم) : (علي عيبه علمي) ، (علي وارث علمي) ، (علي باب علمي.(

وتتضح دلالة هذه الطائفة على المقصود أكثر حين نلتفت إلى ما سبق ان من قرأناه قوله)صلى الله عليه وآله وسلم): (أوتيت مفاتيح كل شيء الا الخمس(..

والى ما قآله (صلى الله عليه وآله وسلم) في علي (عليه السلام) : (يا علي انت وصيي ووارثي وابو ولدي وزوج ابنتي .. امرك امري ، ونهيك نهيي اقسم بالله الذي بعثني بالنبوة وجعلني خير البرية ، انك لحجة الله على خلقه ، وامينه على سره وخليفة الله على عباده) (٤٦ (

وما رواه انس بن مالك قال:

)بينما كنّا بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، اذ قال : يدخل عليكم من الباب رجل وهو سيد الوصيين وقائد الغر المحجلين ، وقبلة العارفين، ويعسوب الدين ، ووارث علم النبيين .. إلى اخر الحديث))٤٧(وكان الداخل هو عليا (عليه السلام..(

الطائفة الثانية:

وهي من النصوص ما ورد عن علي (عليه السلام) نفسه في ابراز هذا الجانب من علمه)عليه السلام) وبيان الافاق المعجزة فيه ، ليلفت – من ثم – بصائر البشرية إلى ما له من موقع خاص في دين الله تعالى وما له من دور معدّ في قيادة الامة المسلمة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم.(

فهو (عليه السلام) كان يستغل الفرص المناسبة لاثبات هذا الرصيد العلمي المعجز من نفسه ،وما يعنيه من دلالات في شخصيته وموقعه عند الله عزّ وجل ومهمته الكبرى في حياة الامة..

وطبيعي ان تدرك البشرية هذه الدلائل بوضوح ، فمن بدائة العقول الواضحة : ان مواهب الله عز وجل لا تكال جزافا ، أو محاباة ، فحكمة الله تعالى اجل من ان تتفأوت في امر أو تختلف في شأن.

وقد سبق ان قرأنا العديد من الروايات التي ترد ضمن هذه الطائفة ، ويمكننا ان نضيف اليها هنا أيضاً ما رواه الاصبغ بن نباته.. قال:

)سمعت امير المؤمنين (عليه السلام) يقول : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علمني الف باب وكل باب يفتح الف باب فذلك الف الف باب حتى علمت ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ... وعلمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب) (٤٨ (

كما نضيف اليها ما قآله (عليه السلام) أيضاً:

)انا الذي عندي علم الكتاب ما كان وما يكون) (٤٩(

وقوله (عليه السلام) كذلك : (انا الذي عندي مفاتيح الغيب لا يعلمها بعد محمد غيري (50) (

وقوله (عليه السلام) : (سلوني عن اسرار الغيوب ، فأني وارث علوم الانياء والمرسلين)(٥١ (

ومن اقوآله (عليه السلام) المشهورة كلمته الخالدة : (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا)(٥٢(

ومنها ما ذكره في خطبته له اتفق على نقلها كثير من أنمة الحديث:

)اما بعد ، فاني فقأت عين الفتنة ، واني – وايم الله – لولا ان تتكلموا فتدعوا العمل لحدثتكم بما سبق عل لسان نبيكم – ثم قال (عليه السلام) - : سلوني فانكم لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة الا أخبرتكم به) (٥٣) إلى غير هذه الاحاديث وهي أكثر من ان تحصى.

الطائفة الثالثة:

وهي النصوص التي اخبر فيها علي (عليه السلام) عن حوادث لم تقع حتى زمانه، ثم صدّقه الواقع فيما اخبر به.

وهذه النصوص من الكثرة واستفضة الحديث بدرجة ملأت مصادر الحديث والسيرة والتأريخ الاسلامي.

وبهذا المعنى يقول ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عند استعراضه لمعنى قوله) عليه

السلام :(

)فاسألوني قبل ان تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلا ومن يموت موتا(..

قال ابن أبي الحديد :

)واعلم انه (عليه السلام) قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي بيده، انهم لا يسألونه عن امر يحدث بينهم وبين القيامة الا أخبرهم به ، وانه ما صح من طائفة من الناس يهتدي بها مائة من الناس وتضل بها مائة ، الا وهو مخبرهم – إن سألوه – برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلا ، ومن يموت منها موتاً..

)وهذه الدعوى ليست منه ادعاء الربوبية ولا ادعاء النبوة ، ولكنه كان يقول : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اخبره بذلك ، وقد امتحنا اخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كاخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته(٥٤..(

)واخباره عن قتل الحسين ابنه (عليه السلام) ، وما قآله في كربلاء حين مر به(٥٥. (

)واخباره بملك معاوية الامر من بعده) (٥٦..(

)واخباره عن الحجاج وعن يوسف بن عمرو) (٥٧..(

)وما اخبره به امر الخوارج بالنهروان (٥٨) وما قدمه إلى اصحابه بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب ..) (٥٩(

يستطرد ابن ابي الحديد بذكر نماذج كثيرة اخبره فيها امير المؤمنين (عليه السلام (بامور غيبية صدقه فيها التأريخ .. إلى ان يقول:

)وكم له من الاخبار في الغيوب الجاريه هذا المجرى مما لو اردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرة السير تشتمل عليها مشروحة) (٦٠) . وما يقوله ابن ابي الحديد في هذه الناحية حق لا ريب فيه ، ولهذا فنكتفي بهذا المقدار.

الطائفة الرابعة:

وهي النصوص التي يشهد فيها أولئك الذين عاصروا عليا (عليه السلام) من الناس بعد ان علموا صدقه في كل ما اخبر به من تلك المغيبات .. وهي طائفة كبيرة لا يحيط بها حصر ، ونحن نقتصر

منها على نماذج قليلة كأمثلة سريعة منها:

ما رواه في كنز العمال قال: (كان علي (عليه السلام) يخطب فقام اليه رجل فقال : يا امير المؤمنين ؛ اخبرني عن اهل الجماعة ، ومن اهل الفرقة ، ومن اهل السنة ، ومن اهل البدعة؟..

فقال : ويحك ، اما اذا سألتني فافهم عني ، ولا عليك ان تسال عنها احدا بعدي .. وساق الحديث إلى ان قال : وتنادى الناس من كل جانب اصبت يا امير المؤمنين اصاب الله بك الرشاد والسداد.

فقام عمار فقال : يا ايها الناس ؛ انكم والله ان اتبعتموه واطعتموه لم يضل بكم عن مناهج نبيكم قيد شعرة – يعني قدر شعرة – وكيف لا يكون كذلك وقد استودعه رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم) المنايا والوصايا وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران ، اذ قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): انت مني بمنزلة هارون من موسى . فضلاً خصه الله به اكراما منه لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث اعطاه ما لم يعط احدا من خلقه .. الحديث) (٦١.(

وما نقله في المناقب المرتضوية قال:

)ان عليا (عليه السلام) كان جالسا عند نخلة مع جمع من اصحابه ومنهم رشيد الهجري فقال له : انّك تصلب بعدي على خشبة هذه النخلة ، فكان رشيد بعد شهادته (عليه السلام) يسقيها كل يوم حتى قطعوها .. فقال رشيد ، فارسل الي عبيد الله يحضرني فلما وصلت إلى داره رايت خشبة تلك النخلة على بابها . فلما راني عبيد الله قال : هات من اكاذيب ابي الحسن.

فقلت : والله ما كذب قط وقد اخبرني انك تقطع يدي ورجلي ولساني ثم تصلبني.

فقال : اني اقطع يدك ورجلك واصلبك ولا اقطع لسانك ليظهر كذبه.

فكان رشيد يروي من فضائل اهل البيت (عليهم السلام) مصلوبا ويقول : اكتبوها قبل ان يقطعوا لساني فلما وصل ذلك عبيد الله امر بقطع لسانه) (٦٢) إلى غير هذه الروايات.

ولا يقتصر هذه الشهادة على اتباعه ومريديه من الامة ، فحسب بل الكثير منها قد صدر من أولئك الذين جانبوا سبيله في الحياة ، أو حتى أولئك الذين جابهوه بالحرب وناجزوه القتال. الا ان تلك المجانبة أو هذه المجابهة لم تمنعهم من الاعتقاد الجازم والعلم القاطع بصدقه (عليه السلام) فيما يخبر به من القضايا.

ولهذا فهو (عليه السلام) حين اخبر اهل الكوفة بملك معاوية لها – كما سبق ان قرأناه –علم اهل الكوفة ان هذا حق ، ولابد من تحققه ، فكاتبوا معاوية سرا ، لعلهم بصيرورة الامر اليه – كما تنص

الرواية التي نقلناها في هامش متقدم.

بل وكان معاوية بن ابي سفيان نفسه ممن يشهد لعلي (عليه السلام) بهذا الجانب من العلم كما في رواية اخرى للحادثة السابقة تقول:

)ان معاوية قال لجلسائه : كيف يمكن المعرفة بأن علياً يموت قبلي ام لا؟.

فقالوا : لا ندري.

فقال : اني اعلمه .. استعلمه من علي.

فدعا ثلاثة من ثقاته وقال لهم : امضوا حتى تصيروا جميعا من الكوفة على مرحلة، ثم تواطوا على ان تنعوني بالكوفة، وليكن حديثكم واحد في ذكر العلة واليوم والوقت وموضع القبر ، ومن تولى الصلاة عليّ وغير ذلك ، حتى لا تختلفوا في شيء .. ثم ليدخل الثاني فليخبر بمثله ثم ليدخل الثالث .. وساق الحديث ، إلى ان قال : فلما اكثروا عليه قال امير المؤمنين (عليه السلام) : كلا أو تخضب هذه من هذه (يعني لحيته من هامته(، ويتلاعب بها ابن اكلة الاكباد.

فرجع الخبر بذلك إلى معاوية) (٦٣.(

ولم تقتصر هذه الشهادات على خصوص اولئك الذين عاصروا عليا من الناس وادركوا زمن حياته فقط ، بل هي وردت أيضاً من كثير من الذين تتبعوا تلك الموارد التي اخبر) عليه السلام) بها عن تلك الحوادث وادركوا صدقه فيها . وقد قرأنا سابقا ما قاله ابن ابي الحديد في الطائف الثالثه حول هذا الجانب من علم علي (عليه السلام: (

)وقد امتحنا اخباره فوجدناه موافقا فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة..

ويمكن القول بان الايمان بوجود الجانب الغيبي من علم علي (عليه السلام) وتصديقه بما اخبر به من المغيبات هو من المرتكزات العامة لدى المسلمين كافة في مختلف مشاربهم ومذاهبهم ، بل ولدى غيرهم ممن تتبع حياة علي (عليه السلام) وكلماته ومواقفه.

ولا ريب ان هذا الارتكاز لم يكن لينشأ دون شهادة الواقع نفسه بتصديقه فيها اخبر به ..

وهنا لابد من الالتفات إلى بعض الدلالات المهمة فيما تعنيه هذه الحقيقة في علم علي)عليه السلام) وشخصيته ، اذ من المحال انها لم تتحقق له دون رعاية الهية خاصة ، تؤهله لامر عظيم يتناسب وتفرد الاصفياء في هذه المواهبة ، لان الفيوض الربانية – وكما قلنا – لاتكال جزافا لاحد ، فحكمة الله تعالى اسمى من ان يتصور في حقها عبث.

وطبيعي ان يربط الفكر حينئذ بين هذا الامر العظيم ، واعلان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لولاية (عليه السلام) الكبرى في دين الله.. بين هذا الجانب من علم علي) عليه السلام) وقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه يوم غدير خم : (من كنت مولاه فعلي مولاه.(..

الغيب والاسلام

هذه طوائف اربع مما عرض للجانب الغيبي من علم علي) عليه السلام) من الاخبار .. وقد قلنا: ان ملاحظة هذا الجانب من علم علي (عليه السلام) وغير علي من أصفياء الله ومنتجبيه ، يجب ان تكون من خلال الرؤية الاسلامية الخالصة . اذ هو يرد ضمن رعايات الله سبحانه وعناياته الخاصة ، لكي يحقق منتجبوه جميع ما يقتضيه فيهم انتجابه إياهم ، واصطفاؤه لهم هداه للبشرية ، وبصائر لدينه القويم .. لان الاسلام ذاته هو احد الصلات الرابطة بين الغيب والشهادة كما قلت.

ولفهم أوضح لهذه النقطة يمكننا العودة إلى نقاط اساسية وردت في احاديث سابقة..

اذ رأينا ان اعتماد الاسلام سمة الحق اساسا في تكوينه الذاتي ، وصبغة عامة في حقائقه كافة انما يعني استقامته المطلقة مع حكمة الله تعالى ، وتجلياتها العامة في التكوين بشكل عام ، وفي واقع الانسان بشكل خاص، وتطابقه المطلق مع ما رسمته للانسان من دور خاص بين مختلف مظاهر الوجود.

وواضح ان تلك التجليات انما هي غيبية المصدر ، كما ان مواردها لا تختص بعالم الشهادة فحسب.. وخصوصا اذا قلنا بان هذا العالم هو ما يقع في حدود قابليات الانسان ومداركه الاعتياديه..

وخصوصا اذا اقتصرنا منه على حدود ما استوعبته المعرفة الانسانية العامة في زمن الرسالات الالهية أو في زمان حياة علي (عليه السلام) فحسب ، حيث لم تكن تملك البشرية من هذه المعرفة وراء الملاحظات البدائية الا قضايا ضيقة الافاق محدودة النتائج ، اذ لا ريب أن ما وراء تلك القضايا كان غيبا وان استطعت البشرية ادراكه فيما بعد حيث اتسعت افاق المعرفة لديها.

نعم ، فحكمة الله تعالى انما تتجلى في واقع التكوين كما هو ، وفي مسيرة كل مظهر فيه نحو غاياته التي ارادها الله تعالى له ، سواء ادراك الانسان هذه التجليات ام لا .. امكنه مثل هذا الادراك ام لم يمكنه ، وسعتها قابلياته الفكرية ام لم تسعها ، فحدود الانسان أو غير الانسان من المخلوقات ادنى من ان تحدد تلك الحكمة في مورد من الموارد واقل من ان تقتصر بها عن امر من الامور التي تشاؤها.

وحين شاء الله تعالى لدينه القويم ان يصبح بعض هذه التجليات لحكمته العليا ، واحد موادرها في عالم الانسان، فمن الطبيعي ان لا يتصور فيه قصور عن هذه الغاية أيضاً ، أو وهن عن تحقيق شيء من مستلزماتها في أي حقيقة من حقائقه ، اذ تعالى الله منزله العظيم عن القصور أو التفأوت أو العجز.

فالغيب – من خلال هذه الملاحظة – لا يقف مع دين الله ، ولا مع اصفيائه عند حوادث معينة ذكرها هذا المصطفى ، أو ذلك المرتضى – حيث اقتبسنا بعض ما اثر عن امير المؤمنين (عليه السلام) منها – كما لا يقتصر دور العلم به على خصوص الفات الانظار إلى ما يحمله الشخص المنتجب من سمات رفيعة ومميزات معجزة ، تثبت اتصآله المباشر بالمدد الالهي الاعظم من الحكمة والكمال دون غيره من الناس .. بل الغيب – قبل هذا هو الركن الاول الذي يعتمده وجود دين الله نفسه ، والاساس الذي يتخذه اساسا في قيام كل بعد من ابعاده وفي كل حقيقة من حقائقه ، وكل مظهر من مظاهره ، وكل حكم من احكامه ، وكل غاية من غاياته .. ويستحيل عليه ان يتجرد في أي منها عن مفهوم الغيب ، ما دام هذا الدين يعني انه التعبير عن ارادة الله سبحانه وكونه عنوانا لكلمته العليا ، ومجلى لحكمته في واقع الانسان.

..وهي مسالة واضحة كل الوضوح ، ولا سيما بعد ان علمنا ما تعنيه استقامة الانسان مع مقتضيات حكمة الله تعالى من ضرورة في وجوده وحياته وتحقيقه لدوره المطلوب في هذه الدنيا.

وبعد ان علمنا أيضاً المدارك الانسانية في المعرفة ، وقصورها عن ان تنال حقيقة تلك الحكمة ، أو تحيط بجميع تجلّياتها في التكوين، ومقتضياتها في وجود الانسان ، وحياته حيث لم تتجاوز هذه المدارك حدود الظواهر القريبة من الحياة الدنيا.

مما يعني – وبكل بساطة – ان تلك الحكمة وسواء في واقعها ، ام في تجلياتها في المخلوقات أو حتى في مقتضياتها في سلوك الانسان الاختياري لا تعدو عالم الغيب بالنسبة للانسان، ولئن استطاع ان يدرك بعض مظاهرها القريبة من ملاحظته الا انه اعجز من ان يبلغ درجه الاحاطة بها ليستطيع التعامل معها من خلال هذا المنطق الواقعي لها ، مالم يرفده مدد ربّاني خاص.

ومن هنا كان عجز الانسان عن ان يشرع لنفسه منهج الحق والكمال..

ومن هنا كانت الحاجة في تشريع هذا المنهج إلى الله تعالى وحده دون سواه..

ومن هنا كانت الرعايه الالهية لهذا المنهج شرطا اساسيا فيه ككل ، وفي كل شأن من شؤونه، وفي

كل افق من افاقه .. وفي كل شخصية من شخصياته المصطفاة، اذ كما تصدق تلك الحاجة على الاسلام بمجموعه تصدق على كل واحد من شؤونه وحقائقه هذه ، فقد علمنا انه كيان حيوي ، موحد الحقائق متكامل الخطوط ، تستحيل معه التجزئة والتفكيك.

ومن هنا لزم ان تكون سمة العلم في منتجبيه (عليهم السلام) بعض المظاهر الاساسية لتلك الرعاية الشاملة حيث يقصر الانسان عن نيل تلك الافاق العليا دون فيوض ربانية خاصة..

ومن هنا كذلك لزم ان يستوعب علم الاصفياء (عليهم السلام) جميع ما يستوجبه وفاؤهم الاكمل بمسؤولياتهم التي حددها الاصفياء الالهي لكل منهم ، ضمن موقعه الخاص من دين الله تعالى وفي دوره المعدّ له في قيام كلمته ، وبلاغ حجته في البشرية لما يستوجبه مفهوم الحق من شمولية في الرؤية ، تمتد إلى ما وراء حدود الانسان.

ولهذا فما لم ينهل أولئك المنتجبون من معين الغيب في علومهم لا يمكن لأي منهم القيام حتى بأبسط مسؤولياته في اقامة كلمة الله تعالى أو التعبير عن حجته ، ودفع مشعل هداه في كل قول يصدر منه أو فعل يقوم به .. لأن حكمة الله تعالى التي تعتمدها هذه الكلمة وتجلياتها التي يستند اليها هذا الهدى ذاتها هي من الغيوب ، وما لم ترفدهم رعاية الله تعالى بما يحتاجون اليه منها ، لم تتصل كلمتهم وعملهم بمبدئهما الالهي الاول وهذا محال ـ كما علمنا ـ فهو خلاف مقتضى اصطفائهم.

فرق ما بين المنتجب وغيره في إقامة الحق

وهذه الملاحظة ترشدنا إلى طبيعة الفرق في مسؤوليتي الفرد العادي من الناس والمنتجب الالهي لإقامة دينه القويم فحين يتطلب الحق في مسؤولية الانسان العادي غير المنتجب ـ الانطلاق من أوليات الفكرالتي فطر عليها عقله .ومن دلالات عالم الشهادة وحاجته في الوجود ، والبقاء ، إلى التدبر الغيبي لتنتهي هذه المسؤولية إلى الايمان بعالم الغيب نفسه ، والتسليم المطلق لأمره والانقياد لهداه لتستقيم حياة الانسان كما تريد لها حكمة الله تعالى أن تستقيم .. فان هذا الحق في مسؤولية حملة الاصطفاء الالهي إنما هو انتهال هذا الهدى من معين الغيب نفسه ، واعتماد دلائل حكمته في الوجود ، لبلورتها في عالم الانسان ، كلمة ربّانية عليا ، وحجة يقيمونها لله عز وجل على العباد، وبينات تسترشدها البصائر ، وأنواراً تستضي بها الالباب..

إذن فهما مسؤوليتان مختلفتا المبادي، متعاكسات الاتجاه في الوفاء الفعلي لهما، وان التقتا عند نقطة واحدة هي قيام الحق، وهي غناء التطلع الانساني للاستقامة معه ، والتسليم لأمره والانقياد الكامل

لكلمته..

بمعنى إن مسؤولية الفرد غير المنتجب إنما تستوفي في إتباعه لدلائل العقل السليم ، ومنهجه ما بلغه الفكر من المعرفة بالواقع ، حيث دلته فطرته المستقيمة ، وما جبلت عليه هذه الفطرة من بدائه أولية ، أو ما استطاع إن يناله عقله من خبرة وفهم للأمور ، ليعلم – من ثم – ان هناك مبدأ أولا لما يشهده من الموجودات ، وان هناك قوة أزلية قادرة قاهرة لها مطلق الكمال والجلال، هي المتفردة في خلق المكونات كافة، والقيمة على تدبرها .. وليدرك أن هذا الكون ما كان ليتم له أمر لو لم تفض عليه هذه القوة المدبّرة من رحمتها وعنايتها مما يستقيم به أمره .. وما كان – بالمقابل – لينشأ له وجود أو ليستقيم له أمر ، لو لا خضوع كل شيء فيه لما رسمته له تلك القدرة بحكمتها – من سبل وسنن مضى عليها ذلك التدبير ، إذ لا يستطيع شيء ما أن يوجد أو ينال كماله الذاتي مع الخروج عن تلك السبل أو الانحراف عن تلك السنن..

ثم ليعلم الانسان بعدئذ انه لا يستطيع بلوغ ما أعده الله بحكمته له من الكمال والرفعة في حياته هذه ، وفي مجال سلوكه الاختياري دون انتظامه مع السنن التكوينية العامة إذ لا يستطيع التفرد في الوجود.

وان حكمة الله التي آتت كل شيء هداه لابد أن تضع للإنسان نظام التكامل إذ من المحال أن تقتصر هذه الحكمة أو تتفاوت في شيء من الاشياء ، لتترك الانسان – من ثم – هملاً دون منهج يأخذ بيده إلى الغاية التي أعدتها له كأي مظهر آخر في هذا الملكوت.

وطبيعي أن ترشد كل هذه المقدمات إلى وجوب التسليم والاذعان لدلائل تلك الحكمة وبيّناتها في كلّ موقف يصدر منه، وفي كلّ حالة اختيارية يكون عليها.

أما ماذا وراء هذه المرحلة؟

إن على الانسان أن يقف ، وان ينتظر المدد والفيض والهدى مما وراء الحدود التي يملكها ، لان أي خطوة من الانسان وراء ذلك الحكم العقلي الواضح دون التسليم والاذعان – تعني الدخول في متاهات عمياء، لا يجد فيها هدى ، أو الارتكاس في مهاوي سحيقة من الضلال ليس لها قرار.

وهنا يبرز دور الاسلام دين الله القويم ومسؤولية منتجبيه ، وحاملي مشعل أنواره ، ومبلغي كلمته.

فدين الله هو القبس الهادي من عالم الغيب ، وقد تجلى مفاهيم وأحكاماً ومناهج وروحاً تأخذ بيد الانسان ـ بما يتناسب وقابليته الفكرية والعلمية والسلوكية إلى تلك الغاية الرفيعة التي أعدتها له حكمة التكوين.

ومنتجبوه هم الذين اصطفتهم هذه الحكمة نفسها لتجسيد هذا القبس شاهداً قائماً في حياة الانسان وإبلاغ حجة الله إلى العباد بكل ما يصدر عنهم من قول أو فعل..

ولا ريب أن تحقق كل هذه المعاني في دين الله تعالى ، أو في منتجبيه (عليهم السلام (، مستحيل ـ كلّ الاستحالة ـ دون مدد ربّاني من علم الغيب ، يخصهم الله تعالى به ، ليؤهل كلاً منهم إلى الاحاطة بمهماته في الحياة وإدراك دوره الخاص في تجليات حكمة الله سبحانه وما تفرضه عليه في إقامة دينه ، دون خلل أو نشوز عن الاستقامة .. تماماً كما استحال أن تتحقق منهم هذه المعاني دون إمدادهم بمعين يتناسب وهذه المهمات من العلوم الاخرى وإحاطتهم بمختلف شؤون الحياة ، ومجريات التكوين في عالم الشهادة.

ولما علمنا استحالة التفاوت بين مقتضيات الاصطفاء الالهي وتحققها في الوجود الفعلي ، فمن الطبيعي أن لا نتصور أي قصور في علوم أولئك الاصفياء من أي جهة قد تعيقهم عن أداء مهماتهم كافة ، سواء منها ما كان في جانب الغيب أم في جانب الشهادة ، وهي قضية واضحة لنا كل الوضوح ، ولا سيما بعد المقدمات السابقة.

وهذه القضية ترشدنا ـ في الوقت نفسه ـ إلى ضرورة العموم في المدد الرباني الذي يرفد الاصفياء (علهم السلام) من علوم الغيب والشهادة معاً في أي كلمة ينطقون بها وأي عمل يأتون به، وأي حالة يختارونها ، دون أي فرق بين بعضها والبعض الاخر ، وان لم يبعد منها ذلك الاتصال المباشر مع الغيب.

فهي جميعها ـ وكما يعنيه الاسلام واصطفاء الله تعالى إياهم لإقامة أمره وإبلاغ حجته ـ من هدى الله وبينات إلى العباد ، ودلائل حكمته في واقع الانسان .. فيجب أن لا تتفأوت فيهم كلمة ، ولا يهن منهم عمل ، ولا يختلف لهم قول.

فالاسلام ـ كما علمنا ـ كيان واحد ، متكامل الحقائق والاحكام والحجة ، وان الحيوية هي الصبغة العامة في العلاقة التي تحكم بين كل جزء وآخر فيه ، ومن هنا استحال تحقق الكمال فيه كله مع قصور بعض أجزائه عن سمة الحق ، أو انحرافه عن الغاية الالهية فيه .

بمعنى أن القصور أو الانحراف في بعض الاجزاء لا يقف في حدود معينة فحسب ، وإنما هو يشمل في آثاره السلبية جميع كيان الاسلام بجميع حقائقه وأجزائه.

فموقع أي كلمة تصدر من الوصي الاخير المرتضى لإقامة الرسالة هو في كيانها وتمام حجتها كموقع

كلمة القرآن أو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه فيها ، وكموقع سائر الاوصياء المنتجبين أيضاً.

وأثر حكم فرعي من أحكام الشريعة في تنظيم الحياة يرد على موضوع معين فيها هو نفس الاثرالذي جعل لأصل من أصول العقيدة في موضوعه أيضاً كما أن له نفس الضرورات التي تكفل استقامته مع الحق ودلائل حكمة الله تعالى فيه.

وحينئذ فأي قصور يتصور في كلمة تصدر من أي مرتضى لإقامة الرسالة وأي بعد عن الحق يرد في حكم شرعي لا يقف في آثاره السلبية عند حدود تلك الكلمة أو هذا الحكم ، بل ستنعكس هذه الاثار على كيان الرسالة كلّه ، بما فيه أصفياؤها المنتجبون ، بل وعلى نفس اصطفاء الله تعالى إياهم .. وكل هذه الاحتمالات مستحيلة التصور ـ كما علمنا ـ إذ تعالى الله سبحانه عن العجز أو العبث.

أمّا تمييز مابين حقائق الرسالة أو أحكامها أو منتجبيها ببعض الامور التي تجعل للبعض من الاهمية والفضل ما يفوق به غيره فهذا التفضيل إنما يرد بعد التحفظ على تلك الحقيقة المبدئية الاولى . وهو أمر آخر غير ما نحن فيه.

القرآن وعلوم الاصفياء بالغيب

هذا ما يعنيه المنطلق الاسلامي لملاحظة الجانب الغيبي من علوم أصفياء الله تعالى ومنتجبيه وهذا ما ينتهي إليه الفكر من نتائج قريبة المنال لا تكلف فيها ولا تمحل ، وهو يتابع دلائل الحق في سلسلته الموحدة المترابطة الحلقات.

نعم ، وهذا هو ما يمليه القرآن نفسه في هدى الانسان إلى ملاحظة هذا الجانب وبيان خصائص أولئك المنتجبين ، وما تعنيه رعايات الله تعالى فيهم ، وقد سبق أن قرأنا قوله تعالى :

)عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . الا من ارتضى من رسول ، فانّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدد)(٦٤.(

وهي ايات واضحة الدلالة على المقصود ، ولهذا فلا حاجة للاطالة ببيان ما تعنيه في هذا المجال ، وان كانت الجزيئيات التي عرضت لها هي من الاهمية بمكان. فهي مثلا تشير –فيما تشير اليه – إلى (ان الذي استثنى في الاية من الاظهار على الغيب : اظهار الرسول على ما يتوقف عليه تحقيق ابلاغ رسالته ، اعم من ان يكون متن الرسالة، كالمعارف الاعتقادية وشرائع الدين، والقصص والعبر والحكم والمواعظ، أو يكون من ايات الرسالة والمعجزات الدالة على صدق الرسول في دعواه كالذي

حكي عن بعض الرسل من الاخبار بالمغيبات ، كقول صالح (عليه السلام) لقومه:

)تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب)(٦٥. (

وقول عيسى (عليه السلام) لبني اسرائيل:

)وانبئكم بما تاكلون وما تدّخرون في بيوتكم ، ان في ذلك لاية لكم ..)(٦٦.(

)وكذلكما ورد من مواعد الرسل وما ورد في الكتاب من الملاحم ، كل ذلك من اظهارهم على الغيب)(٦٧. (

ولا ريب ان شوهد التصديق هذه للرسل من الايات والمعجزات هي من متطلبات اصطفائهم فهي كذلك مما لا بد افاضته عليهم.

نعم هنا ملاحظة مهمة يجب الالتفات اليها في الاستشهاد بهذه الايات الكريمة السابقة من سورة الجن. هي ان هذه الايات قد خصت المرسلين من اصفياء الله باظهارهم على الغيب دون غيرهم حتى من الانبياء والاوصياء على الرسالات، ولا ريب انه تخصيص يستدعيه الموقع المتقدم لأولئك الرسل في حمل كلمة الله تعالى وابلاغ هداه إلى الناس.

فمعروف ان للرسل مواقع الصدارة في تحمل مسؤولية تلك الكلمة والهدى، فمن الطبيعي ان يكون لهم القسط الاكبر في هذا الاظهار، ولهم دور المباشرة في افاضة الله تعالى عليهم بعلم ما تحتاجه مهماتهم من الغيوب كما كانت لهم الادواراالاولى في الرعايات الالهية كافة، وبعدهم يأتي دور الانبياء لم يكلفوا بابلاغ نبوءاتهم إلى غيرهم من الناس.. امّا الاوصياء – وهم ورثة الرسل والانبياء – في اقامة الحق وحمل مشعل هداه –فمن الطبيعي ان يكون علمهم بالغيب وراثة عنهم أيضاً ، كما يرثون غير هذا الجانب من العلم ، ومن مستلزمات الوفاء بتلك المسؤولية الكبرى .

وقد سبق ان قرأنا ما قاله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في علم علي (عليه السلام) : من انه (عليه السلام) وارث علمه (صلى الله عليه واله وسلم) ، وانّه ما من علم الا وقد احصاه الله فيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الذي نقله إلى علي)عليه السلام) ، وان عليا وارث علم النبيين.

كما سبق ان قرانا ما قاله علي (عليه السلام) في علم نفسه: (علمني رسول الله (صلى الله عليه السلام) الف باب وكل باب يفتح الف باب) وانه (عليه السلام) وارث علم الانبياء والمرسلين.

وهناك كثير من الروايات التي توضح هذه الناحية أيضاً منها ما أورده السيد الرضي)قدس سره) في نهج البلاغة عن امير المؤمنين (عليه السلام) بعد كلام له يذكر فيه بعض الملاحم:

)فقال له بعض اصحابه: لقد اعطيت – يا امير المؤمنين – علم الغيب:

فضحك (عليه السلام) وقال للرجل – وكان كلبيا - : يا اخا كلب !، ليس هو بعلم غيب ، وانما تعلّم من ذي علم ، وانمّا علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله } : ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس باي ارض تموت ان الله عليم خبير {)٦٨.)

فيعلم الله سبحانهه ما في الارحام من ذكر أو انثى ، وقبيح أو جميل . سخي أو بخيل ، وشقي أو سعيد ، ومن يكون في النار حطبا أو في الجنان مع النبيين مرافقا،فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه احد الا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ، ودعا لي بان يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي)).٦٩)

وطبيعي ان تمتد سلسلة التوارث هذه مع سلسلة الاصطفاء الالهي للوصاية على الحق ، اذ لابد ان يحمل كلّ منتجب ما يؤهله للوفاء بمسؤولياته الكبرى في قيام الحق ، واستقامة كيانه في الحياة ومن هذه المؤهلات – طبعا – ما تحتاجه مهماتهم تلك من العلم ببعض الغيوب..

وبهذا المعنى يقول الامام الرضا (عليه السلام) من حديث:

)أو ليس انه تعالى يقول : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول) ؟ ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند الله مرتضى ، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي اطلعه على ما يشاء من غيبه ، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.)70((

كما يقول الامام ابو الحسن الكاظم – من حديث أيضاً:

)ان الله تعالى يقول : { وما من غائبة في السماء والامرض الا في كتاب مبين })٧١)، ثم يقول : {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا })٧٢(، فنحن الذين اصفانا الله عز وجل وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء))٧٣.)

إلى احاديث اخرى كثيرة واردة في نفس المضمون.

علم الاصفياء بالغيب ليس ذاتيّاً ولا محيطاً

وهكذا يبدوا ان علم الغيب لدى المنتجبين من اصفياء الله تعالى ليس علما ذاتيا – كما هو الشأن في علم الله سبحانه ليقول قائل – من ثم – ان الاعتقاد به نوع من الغلو بهؤلاء الاصفياء ، أو من الشرك عزّ وجل ، كما يحلو للبعض ان يذهب.

كلا ابدا ، انما هو فيض ربّاني يجري معهم مجرى اللطف والرحمة بهم كحمله لمشعل الحق ، اذ يستحيل على أي منهم الوفاء بمسؤولياته الالهية دون ذلك المدد الخاص من الله تعالى .. واللطف والرحمة بالعباد الذين امروا باتباعهم والاقتداء بهم والاستهداء بما يصدرعنهم من بصائر ودلائل ، هي بصائر دين الله تعالى ودلائله.

)ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربّهم)(٧٤.(

ويقول الامام ابو عبد الله الصادق (عليه السلام) لعمار الساباطي حين سآله عن الامام : يعلم الغيب ؟)لا، ولكن اذا اراد ان يعلم الشيء اعلمه الله) (٧٥(

وفي رواية اخرى : (كان المفضل عند ابي عبد الله ، فقال له المفضل : جعلت فداك ، يفرض الله طاعته على العباد ويحجب عنه خبر السماء؟

قال (عليه السلام) : لا ، الله اكرم وارحم وأرأف بعباده من ان يفرض طاعة عبد على العباد ثم يحجب عنه خبر السماء صباحا ومساءا) (٧٦(

وعن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) انّه قال – وكان عنده ناس من اصحابه - : (عجبت من قوم يتولونا ويجعلونا ائمة ، ويصفون ان طاعتنا مفترضه عليهم كطاعة رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم يكسرون حجتهم ويخصمون انفسهم بضعف قلوبهم ، فينقصونا حقنا ، ويعيبون ذلك على من اعطاه الله برهان حق معرفتنا ، والتسليم لامرنا ..اترون ان الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفى عنهم اخبار السمأوات والارض ، ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم .. الحديث))٧٧.)

كما سبق ان قرانا قول الامام الصادق (عليه السلام) لهشام بن الحكم من حديث : (ويك ياهشام؛ لا يحتج الله - تبارك وتعالى – على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون اليه ..) إلى احاديث اخرى.

كما يبدو من تلك الاية الشريفة وهذه الاحاديث المباركة أيضاً : ان علم أولئك الصفوة ليس علماً محيطاً ، كما هو الشان في علم الله جلا وعلا وانّما هو محدود بحدود حاجتهم في اقامة هدى الله وابلاغ امره حيث اقتضاه ارتضاء الله لهم.

)ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربّهم)(٧٨(

)اذا اراد ان يعلم اعلمه الله(

)اترون ان الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفي عنهم اخبار السمأوات والارض ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم.(

من النتائج القريبة لهذا المنطلق في فهم علم الاصفياء

من هذا المنطلق الاسلامي الذي ترشد اليه مصادر الاسلام ـ كما يرشد اليه العقل في بداهته ـ يجب أن يلحظ علم الغيب لدى أصفياء الله ومنتجبيه ـ بمن فيهم علي بن ابي طالب (عليه السلام)ـ فبهذا المنطلق تتكامل جميع زوايا الملاحظة ، وتتضح الرؤية السليمة لهذا العلم دون أدنى ثغرة يمكن أن توردها الاتجاهات الاخرى التي لا تملك مثل هذا التكامل والوضوح.

كما أن لهذا المنطلق نتائجه المهمة في فهم الانسان لدلائل المواقف والكلمات التي تصدر من أولئك الصفوة في مختلف الحالات والمناسبات.

فما أكثر المواقف والكلمات التي خلدها التاريخ عنهم مما لا يستطاع تفسيره الا من خلال هذا المنطلق المتكامل الرؤية والنتائج ، حيث تتداخل علوم الغيب والشهادة جميعها في أصولها وبلورتها ، وأيضاً غاياتهم الاسلامية الرفيعة منها.

ولهذا المنطلق نتائجه البارزة في فهم الواقع الفعلي المشهود لحجة الله تعالى وقيامها على العباد وسمو كلمتها في الحياة الانسانية في جميع ما صح عن أولئك الاصفياء (عليهم السلام) من أقوالهم وأفعالهم وما اختاروه لانفسهم من صفات وأحوال .بل وخلود وضوح هذه الحجة الالهية وقربها من الوعي البشري ، بالرغم من مرور هذه الحقب الطويلة من الزمن ، واختلاف الظروف ، والفوارق الاجتماعية والنفسية والحضارية التي تفصل بين عهودهم (عليهم السلام) والعهود المتأخرة ولا سيما في هذه العصور التي نعيش فيها نحن.

إذ لو لا هذا التكافؤ الدقيق بين ما تقتضيه مسؤولياتهم الكبرى في خاتمة الرسالات ـ التي لم يحدد لخلودها زمان دون نهاية البشرية في هذه الارض ، ولم يخصص عمومها بمكان أو طائفة من الناس والمدد الرباني من العلم ـ بما فيه العلم بالغيوب التي يحتاجونها في الوفاء بمسؤولياتهم تلك ـ لما أمكنهم أن يجعلوا في كلماتهم وافعالهم ذلك الاشعاع الرباني المشرق الذي بقي حتى الان ، بل ويبقى حتى الابد هو النبراس الخالد لدين الله تعالى امام بصائر العباد ، وينبوع حجته على الناس جميعاً.

ولهذا فلم يستطع الزمان ولا تمادي القرون ولا تطور المجتمعات ، أو تفاوت الحضارات وتقدم جوانب المعرفة .. لم تستطع كل هذه أن تثبت وهناً في كلمة صدرت عن صفي من أصفياء الله تعالى ، أو

أنحرافاً عن الحق في موقف ، أو اختلافاً عنه في علاج.

وبهذه الملاحظة ندرك انه ما كان لمفهوم الشمولية في دين الله أن يتحقق ـ في مداه الاسلامي المطلوب ، وفي اتجاهاته ندرك انه ما كان لمفهوم الشمولية في دين الله ان يتحقق – في مداه الاسلامي المطلوب ، وفي اتجاهاته الزمانية والانسانية كافّة – لو لم يكن – لدى اصفيائه من ارصدة العلم بالغيب مما يحتاجونه في قيامهم على شؤون هذا الدين، والاحاطة بما تتطلبه من تجليات الحكمة الربّنية، ودلائلها في المخلوقات كافّة – بما فيها الانسان وشؤون حياته الاختيارية ، فقد قلنا : انّ هذه التجليات غيبية المصدر والنتائج ، وان برزت بعض مواردها امام الادراك الانساني ، فاستطاع التعرف عليها في بعض ظواهر الوجود.

كما ندرك انه ما كان لهذه الشمولية ان تتحقق ، لو لم يحط هؤلاء الاصفياء بالافاق والمستويات والاتجاهات الفكرية والعلمية والحضارية التي ستنالها البشرية أو ستهيمن على حياتها حتى الابد حيث رسم الاصطفاء مهماتهم وحدد مسؤولياتهم في هذه الارض، وواضح انها افاق ومستويات واتجاهات كانت في عصورهم ضمن مجال الغيب.

فبوجود هذا الجانب المهم من العلم بقيت كلمات المصطفين ومواقفهم وتاريخهم ، وستبقى ابد الدهر هي الروح التي تمد الانسان بالحياة، وهي المنار الذي يملأ وعيه بالهدى والرشاد، مهما بلغ في درجات السمو الحضاري والعلمي..

..وكانت وستبقى كذلك هي الشفاء الالهي الذي لم تجد ولن تجد الالباب والقلوب عنه بديلاً وان بعدت بها سبل الحياة وتمادت بها الاتجاهات.

الهوامش:

- 1فضائل الخمسة من الصحاح السته ج ٢ ص ٢٣٣ عن عدة مصادر.

- 2ن . م ، ص ٢٥٢ عن كنز العمال ج ٦ ص ١٥٦.

- 3ن . م . ٢٥٠.

- 4ن . م . ٢٤٨.

- 5ن. م . ص ٢٤٤ عن كنز العمال : ج ٦ ص ١٥٦.

- 6ن . م : ص ٢٤٩ عن حلية الاولياء : ج ١ ص ٦٤ ومصادر اخرى.

- 7ن . م :ص ١٢٩ عن الرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٨.

- 8ن . م : ص ٢٣١ عن تفسير الرازي في ذيل تفسيره لقوله تعالى : (ان الله اصطفى ادم ونوحا ..) .

- 9ن . م : ص ٢٣٢ عن كنز العمال : ج ٦ ص ٤٠٥ .

- 10ن . م : ص ٢٣٣ عن تفسير الرازي في ذيل تفسيره لقوله تعالى : (وامّا بنعمة ربك فحدث) .

- 11ن . م : ص ٢٣٣ عن تاريخ بغداد : ج ٦ ص ٣٧٩.

- 12احقاق الحق : ج ٨ ص ٢٤٠ عن كتاب (در بحر مناقب(

- 13يراجع في مصادر هذا الكلمات واشباهها كتاب (فضائل الخمسه من الصحاح الستة) ج 2ص ٢٧٣ وما بعدها كما يراجع الجزء الثامن من كتاب (احقاق الحق وازهاق الباطل.(

- 14الغدير ج ٨ ص ٢١٩ عن العاصمي في (زين الفتى في شرح سورة هل أتى(

- 15فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ٢ ص ٣٠٥. عن الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص 463.

- 16احقاق الحق ج ٧ ص ٣٦٠ عن فرائد السمطين . وقريب منه عن مناقب الخوارزمي ص ٢٧٢ ط . تبريز.

17ـالإنسان ذلك المجهول ـ الكسيس كاريل : ص ١٧.

- 18اصول الكافي – محمد بن يعقوب الكليني ج ١ ص

- 19المصدر السابق.

- 20التوبة : ٤٠.

- 21الانعام : ١١٥.

- 22الانعام : ٩٥ – ١٠٤.

- 23الجاثية : ٢ – ٦.

- 24الجن : ٢٦ – ٢٨.

- 25البقرة : ٣١.

- 26الاعراف: ٦١ – ٦٢.

- 27القصص : ١٤.

- 28النساء : ١١٣.

- 29لقمان : ٣٤.

- 30مجمع الزوائد – للهيثمي : ج ٨ ص ٤٦٣.

- 31الاعراف : ١٥٨.

- 32سبأ: ٢٨.

- 33الاحزاب : ٤٠.

- 34الحجر :٩.

- 35صحيح مسلم : كتاب المساجد ج ٧.

- 36مسند الامام أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٩٨.

- 37مسند الامام احمد بن حنبل : ج ١ ص ٩٨.

- 38يراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ١ ص ٢٩٩ وما بعدها لمعرفة مصادر حديث المنزلة.

- 39فضائل الخمسه من الصحاح الستة : ج ٢ ص ٦ من كتاب (تاريخ بغداد) ج ٤ ص ٣٣٩ وغيره.

- 40المصدر السابق : ج ٢ ص ٦ عن كتاب (كنوز الحقائق) ص ٤٣.

- 41ن. م ، عن (تاريخ بغداد) ج ٢ ص ٨١.

- 42ن. م . عن الرياض النظرة للمحب الطبري : ج ٢ ص ١٩٣.

- 43البقرة : ١٢١.

- 44البقرة : ١٧٦.

- 45الرعد:٣٢.

- 46احقاق الحق ، ح ٤ ، ص ٨٢ عن كتاب (ينابيع المودة) ص ٥٣ ط استانبول.

- 47ن . م ، ص ١٢٢ عن كتاب (در بحر مناقب.(

- 48ن ، م . ج ٧ ص ٥٩٧ عن ينابيع المودة ص ٧٧.

- 49ن . م . ج ٧، ص ٦٠٨ عن كتاب (المناقب المرتضوية) ص ١٣٣ ط . بمبي

- 50احقاق الحق ، ج ٧.

- 51اقاق الحق ، ج ٧ ص ٦٣ عن ينابيع المودة ص ٤١٨ ط . استانبول.

- 52ممن نقل هذا الحديث الخطيب الخوارزمي في مناقبه ص ٢٦٠ ، وابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في عدة مواضع.

- 53نهج البلاغة والشرف المؤبد للشيخ يوسف النبهاني ص ١١٣ ط القاهرة.

- 54يشير إلى ما تواتر نقله عن علي (ع) كما رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ، ج ٩ ص 138 عم ابي الطفيل قال : (دعاء علي عليه السلام إلى البيعة فجاء عبد الرحمن بن ملجم المرادي وكما قد رآه قبل ذلك مرتين ثم قال : ما يحبس اشقاها والذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذه – يعني لحيته من رأسه – ثم تمثل بهذين البيتين:

اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيكا ولا تجزع من الموت فان الموت لافيكا

واكد عليه السلام هذا المعنى في مواقف اخرى كثيرة احصي منها (احقاق الحق) ج ٨ ص – 109 141اربعة عشر موردا من غير مصادر الشيعة ، اضافة إلى موارد اخرى اخبر فيها عن ان ابن ملجم هو قاتله ، وموارد ذكر فيها بعض ما يصاحب مقتله من امور.

- 55يشير ابن الحديد بهذا إلى ما رواه المؤرخون مستفيضا عنه (عليه السلام) في اخباره هذا ، كما نقله نصر بن مزاحم ، في كتاب (صفين) ص ١٥٨ – تحقيق عبد السلام محمد هارون بسنده عن ابي جحيفة قال :

جاء عروة البارقي إلى سعد بن وهب فسأله وانا اسمع ، فقال : حدثتنيه عن علي بن ابي طالب . قال : نعم ، بعثني مخنف بن سليم إلى علي فأتيته بكربلاء فوجدته يشير بيده ويقول : ها هنا .. ها هنا فقال له رجل : وما ذلك يا امير المؤمنين ؟ فقال : ثقل لال محمد ينزل ها هنا ، فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم ، فقال له رجل ما معنى هذا الكلام يا امير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تقتلونهم وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم إلى النار.(

ونقل في كتاب صفين ايضا عن هرثمة بن سليم قال:

)غزونا مع علي بن ابي طالب (عليه السلام) غزوة صفين ، فلما نزلنا بكربلاء صلى بنا صلاة ،

فلما سلّم رفع اليه من تربتها فشمها ثم قال : واها لك ايتها التربة ، ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب..

فلما رجع هرثمة من غزوته إلى امرأته وهي (جرداء بنت نمير) وكانت شيعة لعلي فقال لها هرثمة : الا احجبك من صديقك ابي الحسن .. لما نزلنا كربلاء رفع من تربتها فشمها وقال: واه لك يا تربة ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب وما علمه بالغيب ؟

فقالت : دعنا منك ايها الرجل فان امير المؤمنين لم يقل الا حقا.

فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين بن علي (عليه السلام (واصحابه .. قال: كنت فيهم في الخيل التي بعثت اليهم . فلما انتهيت إلى القوم وحسين واصاحبه ، عرفت المنزل الذي نزله فيه والبقعة التي رفع اليه من تربتها ، والقول الذي قاله، فكرهت مسيري ، فاقبلت على فرسي حتى وقفت على الحسين ، فسلمت عليه ، وحدثته بالذي سمعته من ابيه في هذا المنزل.

فقال الحسين (ع) : معنا انت ام علينا؟

فقلت : يا ابن رسول الله لا معك ولا عليك . تركت اهلي وولدي اخاف عليهم من ابن زياد.

فقال الحسين (ع) : فول هربا حتى لا ترى لنا مقتلا فو الذي نفس محمد بيده ، لا يرى مقتلنا رجل ولا يعيننا الا ادخله النار.

فاقبلت في الارض هاربا حتى خفي علي مقتله) .. إلى احاديث اخرى مشابهة...

- 56يشير بهذا إلى ما رواه عدة من المؤرخين منهم ابن اثير في نهاية ، ج ٢ ص ١٥ قال:

)وفي حديث علي ، سيظهر بعدي عليكم رجل مندحق البطن) – أي واسعها كأن جوانبها قد بعد بعضها عن بعض فاتسعت -

ومنهم السكندري في كتاب (مفتاح الفلاح ومصباح الارواح) ، كما نقل عنه في (احقاق الحق) ص ١٦٣ ج ٨:

)ذكر الاخباريون انه ارجف بالكوفة ان معاوية قد مات ، فقال علي (رضي الله عنه) اذ بلغه : والله ما مات ولن يموت حتى يملك تحت قدمي هاتين، وانما اراد ابن هند ان يشيع ذلك حتى يستتر علمي فيه.(

..إلى روايات اخرى ، ويرجع للاستزداد كتاب (احقاق الحق) ، ج ٨ ص ١٦٢ – ١٦٧ حيث يذكر عدة احاديث في هذا المضمون مع مصادرها.

- 57روى ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢٨٩ ط الاولى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم عن اسماعيل بن رجاء قال: (قام اعشى باهله – وهو غلام يومئذ حديث –إلى علي (عليه السلام) وهو يخطب ويذكر الملاحم . فقال : يا امير المؤمنين ما اشبه هذا الحديث بحديث خرافة !! فقال علي (عليه السلام) ان كنت آثما فيما قلت يا غلام فرماك الله بغلام ثقيف ثم سكت . فقام رجال فقالوا . ومن غلام ثقيف يا امير المؤمنين ؟

قال : غلام يملك بلدتكم هذه ، لا يترك حرمة لا انتهكها بضرب عنق هذا الغلام بسيفه.

فقالوا : كم يملك يا امير المؤمنين ؟ .. قال (عليه السلام) : عشرين .. ان بلغها.

قالوا فيقتل قتلا ام يموت موتا قال : بل يموت حتف انفه بداء البطن يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال اسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رايت بعيني اعشى باهله ، وقد احضر جملة الاسراء الذين اسروا من جيش عبد الرحمن بن الاشعث بين يدي الحجاج ، فقرّعه ووبّخه ، واستنشده شعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب . ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس .(ويراجع كتاب (احقاق الحق) ج ٨ ص ١٦٢- ١٦٧ للتعرف على العديد من الروايات الواردة في هذا المضمون مع مصادرها.

- 58روى ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة ج ٢ ، ص ٢٧٧ بسنده عن يزيد بن رويم قال : قال علي (عليه السلام) : تقتل اليوم اربعة الاف من الخوارج احدهم ذو الثديه ، فلما طحن القوم ورام استخراج ذا الثدية فاتبعه ، امرني ان اقطع له اربعة الاف قصبة وركبت بغلة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وقال: اطرح على كل قتيل منهم قصبة ، فلم ازل كذلك وانا بين يديه ، وهو راكب خلفي ، والناس يتبعونه حتى بقيت في يدي واحد ة، فتظرت اليه واذا وجهه اربد ، واذا هو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، فاذا خرير ماء عند موضع دابته . فقال : فتش هذا ففتشته ، فاذا قتيل قد صار في الماء ، واذا رجله في يدي ، فجذبتها ، وقلت هذا رجل انسان فنزل عن البغلة مسرعا ، فجذب الرجل الاخرى ، وجررناه حتى صار على التراب ، فاذا هو المخدج . فكبر علي) عليه السلام) باعلى صوته ، ثم سجد لله فكبر الناس كلهم.

كما روى ابن ابي الحديد ايضا : ج ١ ، ص ٢٧٣ من حديث:

)وما الف منهم - الخوارج إلى جهة ابي ايوب الانصاري وكان على ميمنة علي (عليه السلام) ، فقال علي (عليه السلام) لاصحابه: احملو عليهم ، فوالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشره.

فحمل عليه فطحنهم طحناً ، قتل من اصحابه (عليه السلام) تسعة ، وافلت من الخوارج ثمانيه.(

- 59لرؤية ما قدمه لاصحابه في قتل من يقتل منهم وصلب من يصلب منهم تراجع سيرة هؤلاء كرشيد الهجري وميثم التمار وكميل ابن زياد وعمر بن الحمق الخزاعي وجويرة بن مسهر العبدي وغيرهم ، كما يراجع شرح النهج ، ص ٢٩٠ – ٢٩٥.

- 60شرح نهج البلاغة ، ج ٧ ص ٤٧ – ٥٠.

- 61فضائل الخمسة من الصحاح السته : ج ٢ ص ٢٣٥ عن كنز العمال : ج ٨ ص ٢١٥.

- 62احقاق الحق : ج ٨ ص ١٥٦ عن مناقب المرتضوية ص ٢٦٧ ط بمبئي.

- 63احقاق الحق : ج ٨ ص ١٢٢ عن كتاب (ارجح المطالب) ص ٦٧٨ ط لاهور ، و (المناقب المرتضوية (: ص ٢٥٣، ط مصر.

- 64الجن : ٢٦ – ٢٨.

- 65هود: ٦٥.

- 66ال عمران: ٤٩.

- 67الميزان في تفسير القران : ج ٢٠ ، ص ٥٨ ط ن٢ مؤسسة الاعلمي بيروت سنة ١٣٩٤.

- 68لقمان: ٣٤.

- 69نهج البلاغة . تحقيق الدكتور صبحي الصالح ، ص ١٨٦ . ط بيروت.

- 70الميزان في تفسير القران : ج ٢٠ ص ٥٨ عن كتاب الخرائج والجرائح.

- 71النحل : ٧٧.

- 72فاطر : ٢٦.

- 73اصول الكافي : ج ١ ، ص ٢٢٦.

- 74الجن : ٢٨.

- 75اصول الكافي : ج ١ ، ص ٢٢٦.

- 76المصدر السابق ، ص ٢٦١.

- 77المصدر السابق : ص ٢٦٢.

- 78الجن : ٢٨.

الباب الخامس

علي عليه السلام وخرق النواميس الطبيعية

تمهيد

وفي هذا الخط الاسلامي العام أيضاً يجب ان تفهم صور وحدود الوسائل التي يجب ان يمتلكها علي (عليه السلام) في ادائه لمهمته الكبرى في الحياة ، وقيامه على شأن ولايته الاسلامية العظمى.

اذ كما استوجبت مسؤوليته ما استوجبته من مقومات ذاتية خاصة وحّدت شخصيته مع الحق ، وكانت هذه السمة عنوانا لكل كلمة نطق بها، وكل موقف اتخذه في هذه الحياة..

وكما اقتضت ان يمتلك من العلوم ما يمكنه من الاحاطة بمستلزماتها من تجليات حكمة الله تعالى في الوجود..

فكذلك تستدعي هذه المسؤولية ان يمتلك علي (عليه السلام) من الوسائل والقابليات والامكانات المختلفة ما يعينه على الوفاء بها اتم الوفاء ، دون ادنى وهن ، لا بلحاظ عصره فحسب ، انما في كل العصور التي وسعتها حدود اصطفائه ، وان تجاوزت هذه الوسائل والامكانات الحدود الطبيعية لدى الانسان ، لان هذه الوسائل والامكانات التي لديه يجب ان تكون بعض مظاهر الرعاية الربّانية الشاملة له ولولايته العظمى التي انيطت به أيضاً، كما انها بعض مستلزمات الحق واستقامته في دينه القويم – كما علمنا.-

ومن هذه الوسائل التي نقصدها هنا.

-1الكمال في قواه الجسمية والنفسية والعقلية والقدرة الذاتية على التحمل ومعالجة الامور بشكل يمكنّه من تحقيق جميع ما يريده في مسؤوليته الالهية تلك وان تجاوزت هذه القوى حدود المتعارف لدى الانسان الاعتيادي منها.

-2قدرته على التصرف الذي يريده في الاشياء ، وان استوجب هذا التصرف خرق النواميس الطبيعية فيها.

-3ضمان الاستجابة الالهية لدعائه في المهمات.

إلى امور اخرى من هذا القبيل..

ولكل من هذه الامور شواهده المعروفة من حياة علي (عليه السلام) . ومواقفه ، وقد سبق منّا ان قرانا العديد من هذه الشواهد خلال هذا الحديث ، كاستجابة الله تعالى لدعائه (عليه السلام) يوم الرحبة حينما استشهد من حضر من الصحابة على ما قله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ولايته (عليه السلام) فامتنع انس بن مالك والبراء بن عازب عن الشهادة ، فقال (عليه السلام) : ((اللهم ان كان كتماها معاندة فابلهما((

اذ يذكر التاريخ ان البراء قد عمي ، فكان يسأل عن منزله ، ويقول : ((كيف يرشد من ادركته الدعوة)) واما انس فقد برص.

وفي روايات تذكر هذا المصير لزيد بن ارقم وغيره أيضاً.

ومما ورد في القوة الجسدية لعلي (عليه السلام) – مثلاً – فيروى العديد من المؤرخين مستفيضاً: (انه حمل باب خيبر يو افتتحها ، وانّهم جربوه بعد ذلك فلم يحمله الا اربعون رجلاً أو سبعون) (١. (وانّه كان يقول : (والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية وانما بقوة ربّانية) (٢(

اما في تصرفه الخارق للظواهر الطبيعية فيقول الامام علي (عليه السلام) : (قال لي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : اركب ناقتي ثم امض إلى اليمن فاذا وردت عقبة افيق ورقيت عليها رايت القوم مقبلين يريدونك ، فقال : يا حجر ، يا مدر، يا شجر ، رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرأ عليكم السلام.

قال علي ففعلت ، فلما رقيت العقبة قلت : يا حجر ، يا مدر ، يا شجر ، رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم) يقرأ عليكم السلام. قال : وارتج الافق ، فقالوا : على رسول الله السلام وعليك السلام. فلما سمع القوم نزلوا فاقبلوا الي مسلمين) (٣(

ولا نطيل في ذكر شواهد اخرى لهذه النواحي ، كما لا نطيل باستعراض وسائل وامكانات اخرى عرفت عنه من هذا القبيل ، وهي امور يجدها المتتبع في اكثر كتب السير والحديث التي تناولت سيرة الامام علي (عليه السلام) أو ذكرت بعض شؤون حياته ، وكثرة روايتها واستفاضتها في مختلف المصادر ترفع أي ريب بتحقيق مضمونه االعام.

لا غرابة في امتلاك المنتجب لهذه الوسائل

ومن الواضح لنا – ولا سيما بعد هذه المسيرة الطويلة من الحديث – ان لا غرابة في ان يمتلك علي (عليه السلام) مثل هذه المؤهلات والوسائل وان تجاوزت حدود القابليات الانسانية المعروفة أو

استوجبت خرق النواميس الكونية ، اذ بعد التزام الله تعالى اياه مرتضى لولايته الكبرى ، كان لابد ان يسنده بما يتوقف عليه قيامه . بمهماته فيها ، وبما يعينه بالوفاء بمسؤوليته في اقامة الحق ونشر هداه في البشرية.

واسناده مثل هذه المؤهلات في اصفياء الله ومنتجبيه ، يعتبر من بدائه الاسلام الاولى، ومن مرتكزات عقائده في سلسلة رسالاته كافة ، منذ رسالته الاولى ، وحتى رسالته الخاتمة التي انزلت على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولا يناقش في هذه الحقيقة مسلم ، بل ولا يناقش أو يرتاب فيها ذولب ، وهو يعلم قدرة الله تعالى وسلطانه المهيمن على الخلق أو يدرك ان الله الذي اجرى السنن الكونية كما اجراها حين شاءت حكمته ان تمضي المكونات مع هذه السنن قادر على ان يخرق هذه السنن حين تشاء حكمته مثل هذا الخرق..

فهو تعالى خالق الكون ومنشىء جميع ما فيه ، والجاعل لقوانينه ، ومشرع سننه والمدبر لامره فلا يمتنع عليه مظهر من مظاهره ان شاء ان يستثني منه سنّة أو يغيّره إلى مظهر اخر وان يغنيه تماماً.

فكلّ شيء خاضع له ، محتاج لتدبيره مستقيم مع امره .. قال تعالى:

)لله ملك السماوات والارض وما فيهنّ وهو على كلّ شيء قدير ..)(٤(

)وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربّك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم واليه ترجعون)(٥(

فما الغربة حينئذ في تحقيق تلك المؤهلات في اصفياء يجتبيهم الله تعالى لحمل مشعل هدايته في البشرية ، حيث اقتضت حكمته اظهار دلائل الحق للانسان وقيام حجته عليه من هذا السبيل.

فالمصطفى يحتاج إلى ما يثبت ارتباطه بتلك القدرة القاهرة المهيمنة لتؤمن العقول بان ما يقوله وما يفعله انما هو من قول الله عزّ وجل وعن امره.

والمصطفى يحتاج إلى ما يثبت كرامته عند الله تعالى وفضله لديه.

والمصطفى قد يحتاج إلى ما يسمع به كلمته الاذان ، وقد لا تكون الوسائل الطبيعية المتعارفة قادرة على الوفاء بهذا الشرط .. وهكذا.

ومن هنا كان لابد للنبي أو الرسول من معجز يصدقه في سفارته عن الله سبحانه ويمكنه من تبليغ رسالته إلى العباد.

والقران العزيز يتسلسل في استعراض هذه المؤهلات أو الايات مع استعراضه لشؤون انبياء الله تعالى ورسله (عليهم السلام) اذ يذكر لكل منهم ما افيض عليه منها ، مع ما يذكره له من الوحي اليه ، وقيامه بدعوته ، ومواقفه مع قومه ، ويعتبرها بعض تلك الشؤون ، ومتتمات امرها.

وهكذا فهو يذكر مثل هذه المؤهلات في نوح (عليه السلام) وابراهيم (عليه السلام (وموسى (عليه السلام) وعيسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم (مروراً بغيرهم من الانبياء والرسل ، اذ يقول تعالى – مثلا : -

)كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربّه انّي مَغلوب فانتصر ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على امر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر)(٦(

)واذ قال ابراهيم ربّ ارني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم)(٧(

)وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي اتوكأ عليها واهش به على غنمي ولي بها مارب اخرى قال القها ياموسى فالقاها فاذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء اية اخرى لنريك من اياتنا الكبرى) (٨(

)اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وتبرئ الاكمه والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين . واذ أوحيت إلى الحواريين ان امنوا بي وبرسولي قالوا : امنا . واشهد باننا مسلمون اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين قالوا نريد ان ناكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا واخرنا واية منك وارزقنا وانت خير الرازقين قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذابا لا اعذبه احداً من العلمين)(٩(

)اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا اية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)(١٠(

إلى نماذج كثيرة اخرى مما ذكره القران الكريم من هذه المؤهلات والوسائل التي افاضتها عناية الله عز وجل على اصفيائه النجباء من الرسل والانبياء (عليهم السلام (فاستيعاب ما ذكره القران منها أوسع من ان يحاط به في مجال ضيق كالذي نحن فيه.

وتمضي السنة الشريفة في الافاضة بتفصيل ما اجمله القران من هذه الامور وذكر الكثير مما لم يرد في اياته المباركة ، لا سيما فيما كان للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) منها ، وكثير من نصوص السنة في هذا المجال من الشهرة بدرجة تبلغ حد التواتر لدى المسلمين كافّة..

ومن هذه النصوص قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : (نصرت بالرعب وأوتيت مفاتيح الارض..))(١١

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : (اني لا بصر من ورائي كما ابصر من بين يدي..)(١٢(

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : (اني لست كهيئتكم ، اني ابيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني..) (١٣(

وما رواه جابر بن عبد الله قال : (لقد رايتني مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم (وقد حَضَرت العصر ، وليس معنا ماء غير فضلة ، فجُعل في اناء ، فاتي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) به ، فادخل يده فيه ، وفرَّج اصابعه ثم قال : (حي على اهل الوضوء .. البركة من الله) فلقد رايت الماء يتفجر من بين اصابعه ، فتوضاء الناس ، وشربوا ، فجعلت لا الو ما جعلت في بطني منه فعلمت انه بركة.

قال الرأوي : فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : الفا واربعمائة) (١٤ (

إلى غير هذه الروايات..

لا اختصاص لهذه المسائل الخارقة بالرسل وحدهم

لم يخصص القران الكريم والسنة النبوية الشريفة هذه المواهب العليا بالانبياء والرسل من اصفياء الله فحسب ، بل هما ذكراها لأوصيائهم المصطفين أيضاً حيث يمضي معهم نهج الحق ، وتكتمل بهم رسالات السماء ، ويستتم بهم هدى الله تعالى انواره..

فيقول القران – مثلا – في وصي سليمان (عليه السلام : (

)قال : يا ايها الملأ ايكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن انا اتيك به قبل

ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين . قال الذي عنده علم الكتاب : انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك ، فلما راه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ..)(١٥(

وفي هذا النوع ترد الروايات الواردة في معاجز وكرامات الامام علي بن ابي طالب) عليه السلام) والمنتجبين من عترته (عليهم السلام) ومنها الروايات السابقة التي قرأناها في بداية هذا الباب فلا نطيل باقتباس المزيد منها هنا.

بل والاملاحظ ان ايات الكتاب العزيز وصحاح السنة الشريفة قد ذكرت نماذج من خرق النواميس الطبيعية أو استجابة الدعاء أو غيرهما مما ذكرناه سابقا قد اجراه الله تعالى على يد غير الانبياء والاوصياء من الناس .. اما كرامات افاضتها العناية الالهية على بعض هؤلاء الناس العاديين لما كان لهم دور خاص في قيام الحجة الالهية واتمام امرها في الناس أو المحافظة عليها وامّا لالفات البصائر إلى موقع هذه الحجة الالهية وعظمتها عند الله تعالى وان لم يكن الذي قام تلك الحجة أو نطق بها اهلاً لان تجري على يديه أي كرامة ، وامّا من اجل اعتبار الناس بمصير من يقف امام هدى الله عزّ وجل أو يناجزه الحرب.

فيقول القران مثلا حول ام موسى (عليه السلام) حين ولدته :

) واصبح فؤاد ام موسى فارغاً ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)(١٦(

كما يقول حول مريم ابنة عمران :

)فتقبلها الرب بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم انّى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب)(١٧(

ويقول فيها حين ولادتها لوليدها العظيم (عليه السلام : (

)فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : ياليتني متُ قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً)(١٨(

ويقول في جيش المسلمين يوم واقعة بدر الكبرى :

)اذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم اذ يغشيكم النعاس امنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط قلوبكم ويثبت به الاقدام ..

)(١٩)

وامثلة هذا النوع من الروايات اكثر من ان تحصى ، كالروايات الواردة في حمل امنة بنت وهب بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحمل فاطمة بنت اسد بعلي (عليه السلام (وانشقاق جدار الكعبة لها حين حضور ولادتها له ، وغير هذا مما تذكره كتب السير والتاريخ.

وفي هذا النوع يرد ما قراناه في الرواية الواردة عن سعيد بن ابي وقاص حينما دعا على من يشتم عليا (عليه السلام) بقوله : ((اللهم ان هذا يشتم ولياً من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك)) ويعقب الرأوي قائلا: ((فو الله ما تفرقنا حتى ساخت دابته فرمته على هامته في تلك الصخور فانفلق دماغه((

نعم ، ينبغي الانتباه إلى ان جريان الحوادث المعجزة على ايدي غير المصطفين من الناس في مواقف من المواقف لا يعني كرامة جميع الاشخاص الذين جرت على ايديهم هذه الحوادث على الله ، بقدرما يعني قيام الحجة الالهية والهدى الربّاني اللذين يعنيهما ذلك الموقف . ولهذا فهي قد تجري – وكما اشرت – حتى وان لم يكن صاحب الموقف اهلاً لان تفاض عليه كرامة الهية ، كما يذكره القران عن فرعون حين ادركه الغرق:

..)وجأوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى اذا ادركه الغرق امنت انه لا آله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين . الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك اية وان كثيراً من الناس عن اياتنا لغافلون)(٢٠

أو كما يذكره عن السامري حينما استطاع ان يجعل الخوار في العجل الذي غوى بني اسرائيل:

)قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي)(٢١

الهوامش:

- 1فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج 2ص ٣٤٤ عن كتاب (تاريخ بغداد) ج ١١ ، ص ٣٢٤ وغيره.

- 2تفسير الرازي : ج ١٢ ، ص ٩١ ، ط الاولى تحقيق التزام عبد الرحيم محمد – القاهره .

- 3فضائل الخمسه من الصحاح الستة : ج ٢ ، ص ١٢٣ ، عن تأريخ بغداد ج ٧ ص ٥٦.

- 4المائدة : ١٢٠.

- 5القصص : ٦٨ – ٧٠.

- 6القمر : ٩ – ١٤.

- 7البقرة : ٢٦٠.

- 8طه : ١٧ – ٢٣.

- 9المائدة : ١٠ – ١١٥.

- 10القمر : ١- ٢.

- 11مسند الامام احمد بن حنبل : ج ١ ، ص ٩٨ - ط الاولى – ن دار صادر – بيروت سنة 1389

.

- 12صحيح مسلم – كتاب الصلاة ، باب الامر بتحسين الصلاة – ج٢ ص ٢٧ – ن محمد علي صبيح سنة ١٣٨٠ .

- 13صحيح البخاري – كتاب الصوم ، باب صوم الوصال – ج ٣ ، ص ٤٩ – ن مصطفى البابي – الحلبي سنة ١٣٧٧.

- 14المصدر المتقدم – كتاب الاشربة – باب شربة البركة والماء المبارك ج ٧ ، ص ١٤٨.

- 15النمل : ٣٨ – ٤٠.

- 16القصص: ١٠.

- 17ال عمران : ٣٧.

- 18مريم : ٢٢.

- 19الانفال : ٩ – ١١.

- 20يونس : ٩٠ – ٩٢.

- 21طه : ٩٥ – ٩٦.

الباب السادس

الولاية في التزام المؤمن

حدود مسؤولية المؤمن

امّا ولاية علي (عليه السلام) في التزام المؤمن ، وهو يتمسك بعروة الحق ويتبع هداه ويستضيء بأنواره..

..اما الولاية في التزام المؤمن الحق ، فلا اعتقد ان غموضا قد بقي في شيء من مفهومها أو في حدودها أو في عمقها المطلوب في ذات الانسان.

فقد قرانا في احاديث مشهد الغدير نفسها ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد وحّد بين ولايته وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) وولاية علي بن ابي طالب في المصدر والمفهوم والحدود ، والموقع الخاص لهما في دين الله ، والنتائج في اقامة صرحه.

)ان الله مولاي ، وانا مولى المؤمنين ، وانا أولى بهم من انفسهم .. من كنت مولاه فهذا مولاه اللهم وال من والاه(

)الستم تزعمون اني أولى بالمؤمنين من انفسهم ؟ .. قالوا : بلى ؛ يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعلي مولاه(

)ايها الناس ؛ انا أولى بالمؤمنين من انفسهم ، ليس لهم معي امر ، وعليّ بعدي أولى بالمؤمنين من انفسهم ليس لهم معه امر(

كما انه (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المشهد نفسه قد بيّن جانباً كبيراً من حدودها ومسؤولياتها اذ قال (صلى الله عليه وآله وسلم: (

) فان الله قد نصبه لكم والياً واماماً ، وفرض طاعته على كلّ احد ، ماض حكمه ، جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدّقه ، اسمعوا واطيعوا ، فان الله مولاكم وعلي امامكم .. فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به . لن يتوب الله على احد انكره ، ولن يغفر له ، حتماً على الله ان يفعل ذلك.(

وتتواتر الاحاديث الواردة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الخط ، اذ كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يغتنم كل فرصة مناسبة لبيان طبيعة هذا المتولي وحدوده ومداه الاسلامي المطلوب في مسؤوليته المؤمن .. وقد سبق ان قرانا الكثير منها ، ونضيف اليها هنا ما روي عنه (صلى الله

عليه وآله وسلم: (

)من يريد ان يحيى حياتي ، ويموت موتي ، ويسكن جنّة الخلد التي وعدني ربي فليتول عليّ بن ابي طالب ، فانّه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة) (١(

)من سره ان يحي حياتي ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليوال عليا من بعدي وليوال وليه ، وليقتد بالائمة من بعدي ، فانهم عترتي ، خلقوا من طينتي ، رزقوا فهماً وعلماً ، وويل للمكذبين بفضلهم من امتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا انالهم الله شفاعتي)٢)

)من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن اطاع علياً فقد اطاعني ، ومن عصى علياً فقد عصاني) (٣(

)ستكون من بعدي فتنة ، فاذا كان ذلك فالزموا علي بن ابي طالب ، فانه أول من يراني وأول من يصافحني يوم القيامة ، وهو الصديق الاكبر ، وهو فاروق هذه الامة يفرق بين الحق والباطل ، وهو يعسوب المؤمنين) (٤ (

إلى روايات اخرى كثيرة وردت في هذا المضمار.

ولم يتفرد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان هذا المعنى لولاية علي) عليه السلام) في مسؤولية المؤمن أو جعل هذه الحدود لتوليه ايّاه ، فالقران – قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) – قد وحّد بين ولاية الله تعالى وولاية الرسول)صلى الله عليه واله وسلم) ، وولاية علي (عليه السلام) ، وجعل بولاية علي (عليه السلام) كما ولايتهما واناط بتوليه توليهما اذ قال تعالى :

) ومن يتول الله ورسوله والذين امنوافانّ حزب الله هم الغالبون)٥ (

والمراد بالذين امنوا في هذه الاية الكريمة هو علي بن ابي طالب (عليه السلام) بنص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم: (

فقد اخرج السيوطي في الدر المنثور – من حديث : -

..اذ نزلت هذه الاية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : { انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون } ، ونودي بالصلاة ، صلاة الظهر وخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال للسائل : اعطاك احد شيئا ؟ . قال : نعم . قال : من ؟ . قال : ذلك الرجل القائم . قال : على أي حال اعطاكه ؟ . قال : وهو راكع . قال: وذاك هو علي بن ابي طاللب .

فكبّر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يقول (ومن يتول الله ورسوله والذين امنوا فان حزب الله هم الغالبون)(٦).

والمعنى القريب لتلك الاحاديث الشريفة وهذه الاية المباركة – وكما اشرنا اكثر من مرة – وهو وحدة ما بين ولاية علي بن ابي طالب (عليه السلام) وولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسؤولية المؤمن كوحدة ما بينهما – جميعاً في كيان الاسلام واستقامة امره ، وان موقف المسلم تجاه علي بن ابي طالب (عليه السلام) يجب ان يكون امتداداً لموقفه تجاه بارئه تعالى ، وتجاه رسوله) صلى آله عليه وآله وسلم) في التبعية والانقياد والطاعة ، وما لم يتم المسلم طاعته لله تعالى ولرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بطاعته لعلي (عليه السلام) لا يمكنه ان يستكمل ايمانه .. بل ولا اسلامه أيضاً.

والواقع ان هذا المعنى للولاية والتولي وهذه الحدود الالهية لهما هي من الموضوع بدرجة لا تحتاج منا إلى مزيد من البيان أو التاكيد ، ولا سيما بعد هذه المسيرة الطويلة من الحديث ، اذ كان فصل من فصوله ، ولكل فقرة من فقراته من الدلالة ما يضفي عليها مزيد من الجلاء.

بل نحن – من خلال هذا الحديث أيضاً – قد ادركنا – وبدون ادنى مجانبة للحقيقة – ان هذا المعنى .. الاسلامي الخاص للولاية والتولي لعلي بن ابي طالب (عليه السلام (وطاعته والانقياد لامره هي من الشيوع لدي المسلمين كافة ، ومن الوضوح بدرجه لا تخفى على احد منهم، وان وقفت دون ابرازه احن الضلال ومنعت تحقيقه في السلوك العلمي في الحياة موانع معروفة.

وها هو التأريخ يذكر ما كان يفعله الخلفاء الذين سبقوا عليا (عليه السلام) في تسنم مراكز السلطة في الامة ومراجعتهم اياه في المهمات ، وقد سبق ان قرانا تصريح الخليفة الثاني بانه كان يعتبر قول علي (عليه السلام) من السنة . وقوله لعبد الله بن عباس ..) :والله ما نقطع امرا دونه ولا نعمل شيئا حتى نستأذنه) نعم ، (نستاذنه) فهو صاحب الحق واليه الامر في الواقع..

اذن فلا داعي للافاضة في هذه الناحية باكثر مما ذكرناه ، أو اقتباس المزيد من دلائلها فان الحديث فيها سيصبح تطويلا دون طائل.

العمق في مسؤولية المؤمن تجاه الولاية

نعم ، ان الذي ينبغي الوقوف عنده هنا ، هو موقع هذا المعنى الاسلامي لتولي علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، وطاعته والانقياد المطلق اليه ، وادراك ما لهذه المفاهيم من اعماق ودلالات في ذات

الانسان من خلال المنهج الذي انتهجناه في هذا البحث ، لان هذا المنهج – وكما في القضايا السابقة من شؤون الولاية التي عرضنا لها خلال الحديث – يعتبر اقرب الطرق ، واسهل الوسائل لبلوغ العطاء الاسلامي في هذه المفاهيم ، التي هي عنوان العلاقة المطلوبة مع تلك الولاية و وليّها العظيم (عليه السلام. (

وفي الوقت نفسه ، فان الحديث في هذا المنهج لا يكتمل ولا يعطي ثماره المرضية دون التعرف على دلالاته في هذه العلاقة مع ولي الله (عليه السلام) كواقع فعلي في الحياة الاسلامية.

وللوصول إلى النتيجة المطلوبة لا بد من استحضار عدة نقاط رئيسية سبق الحديث عنها مكرراً:

الاولى : قلنا ان الله سبحانه قد خلق الانسان كما خلقه وحيث شاءت حكمته المتعالية في تكوينه عاقلاً مختاراً مريداً ، وجعلت له موقعه الخاص في هذا الملكوت ، وهيأت لبلوغ هذا الموقع بأختياره ، ثم ألقت عليه مسؤلية السعي إلى ذلك الموقع الرفيع بين المخلوقات..

وحينئذ فلا بد للانسان من هذا السعي والمثابرة الدائبة ، لينال ما أعدته له تلك الحكمة السامية من الغايات وما هيء له من الكمال والسعادة في حياته فما كان ليحقق لنفسه هذه النتيجة مع التواني في السعي أو الانحراف عن قويم السبيل.

الثانية : ان هذه الحكمة الالهية ـ ولرأفتها بالانسان ولطفها به ـ قد أودعت في أعماق فطرته من أرصدة الاستقامة مع أمرها ، ومع مقتضياتها فيه ، ما يمكنه من الوفاء بتلك المسؤوليات ، فبنت عليها أصول عقله وارادته ووجدانه ، لتصبح عوامل ذاتية تأخذه بيده حين يجد به السير نحوها ، وتستقيم به السبل نحوها.

الثالثة : ان هذه الحكمة الالهية ـ ولرأفتها بالانسان أيضاً ـ قد أنزلت له الاسلام ، ليكون ـ وبما يحويه ـ من حقائق فكرية وأحكام منهجيه ـ هو ذلك السبيل الرشيد الذي يصل بالانسان إلى تلك الغاية الرفيعة ، حيث تقصر به قابلياته وأمكاناته عن الاستقلال برسم مثل هذا السبيل.

وحينئذ فالاسلام هو الدين الذي يحقق للانسان ما يصبوا اليه ـفي ذاته وهو في مقومات تكوينه ـ من الاستقامة مع مقتضيات حكمة الله فيه ، بمعنى انه هو دين الحق ، وهو دين الفطرة ومنهج أرصدتها الذاتية العميقة في تطلعها إلى الكمال والسعادة الحقيقية..

وبعبارة أخرى : ان الاسلام هو الضرورة التي تستشعرها فطرة الانسان ، وهي ترنو ببصيرتها اليه في اعماقها ، قبل أن يملي عليها كمنهج محدد ، وحقائق مقررة.

وهذه السمة ذاتية في الاسلام ، وقد بني عليها كيانه كله ، فمن الطبيعي أن تتجلى حينئذ في كل فكرة منه ، وفي كل حكم من أحكامه ، وكل حد من حدوده ، ومن ثم في كل منتجب من منتجبيه الذين ارتضاهم الله تعالى شواهد لحجته ، وقائمين على أمره ، وعنواناً لدلائله في عالم الانسان ، وتشخيص حقائقه وأحكامه في هذه الحياة.

وهذه المسؤولية العظمى المقررة على أولئك المنتجبين كانت ـ وكما علمنا ـ هي السبب في ضرورة رعايات الله تعالى الخاصة لهم ، ومن أجلها أو جدت حكمته فيهم تلك الخصائص والمميزات الاعجازية التي تميزوا بها بين الناس.

اذن .. فكما كانت هذه الاعماق الاولى للانسان هي مبدأ علاقته بالاسلام ، وبما فيه من حقائق ، وعلى أساسها يجب أن يمضي في تعامله السليم معها جميعاً ، فلابد أن تكون هذه الاعماق نفسها هي مبدأ العلاقة بالمصطفين من شخصيات الاسلام ، وعلى أساس واضح من هذه الاعماق أيضاً يجب ان ينطلق الانسان في التعامل معهم ومع كل اثر من آثارهم . فهم المثل الشاخصة للاسلام ، وآثارهم هي حقائقه المتجسدة، وحجته القائمة.

فالاصول الاولى لعلاقة الانسان مع هؤلاء الاصفياء (عليهم السلام) هي نفس الاصول الذاتية التي وثقت ما بين الانسان وحقائق الاسلام كافة ، كما أنها ـ في الوقت ذاته ـ نفس الاصول التي تربطه بالحق الذي بذرت حكمة الله تعالى بذرته في أعماق ذاته ، وجعلته صبغة عامة في تكوينها الاولى ، قبل أن تحيد بها صوارف الانحراف في الحياة عن مسارها الصحيح ، كما جعلته اتجاهاً عميقاً ومكيناً فيها أيضاً لتمضي عليه في توجهها الفطري نحو الكمال ، اذا لم تستجب لداعي الاهواء ومضلات الشيطان.

ومن هنا أصبح للحق دلائله الواضحة ومقاييسه القريبة من وعي الانسان ليستطيع التعرف بها بسهولة ـ اذا عاد اليها ـ وعلى ما في المواقف والاشخاص من عناصر الاستقامة معه والانحراف عنه .

اذن فهناك وحدة قائمة بين ركائز الحق في ذات الانسان ، ودين الله كمنهج للوصول اليه ، ومنتجبي هذا الدين كشواهد حية شاخصة لحقائقه واحكامه.

..تطلعّ ذاتي عميق في الانسان إلى النور الذي يضيء له مسالك الحياة ، وضمان رباني لهذا النور في الاسلام دين الله القويم وتشخيص قائم له في منتجبيه الاصفياء.

..حاجة تكوينية في الانسان إلى الهدى والرشد ، وتعهد الهي لهما في كل فكرة أملاها لطف الله تعالى في دينه القويم وفي كل حقيقة وضعها فيه ، وكل حكم شرّعه ، وكل سلوك يصدر من مصطفيه.

فاقة شديدة في الانسان إلى الرشد ، والسعادة والكمال في الحياة ، والتزام من الله العلي القدير أن يشرع له واضح السبل إلى تصورات وسنن محددة في الاسلام ، وان يجسّدها في أوليائه مثلاً قائمة تتراءى منهم في كل موقف وكل كلمة أثرت عنهم.

نعم ، هذه هي روح العلاقة بين الانسان ومنتجبي الاصطفاء الالهي (عليهم السلام (، ومن الطبيعي ان تتجلى هذه الروح في الحدود والمفاهيم والاحكام التي ذكرتها النصوص السابقة في بيان أبعاد هذه العلاقة وشؤونها ، لتصبح هذه الابعاد سمات بارزة لها ، دون أدنى تفأوت أو خلل.

فالتولي والتبعية والطاعة والانقياد ـ وأمثالها من المفاهيم التي وردت في المصادر الاسلامية ـ يجب ان تنطلق من هذه الاصول نفسها ، لتصبح ـ وبما لها من آفاق ـ هي اساس وجود المؤمن والحاكمة المطلقة في بناء شخصيته والمهيمنة على جميع توجهاتها وأحوآلها وسلوكها.

والقرآن الكريم ليشير إلى هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى:

)النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (٧. (

)فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) (٨.(

ويؤكد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا المعنى نفسه بالنسبة إلى تولّيه هو) صلى الله عليه وآله وسلم) وتولّي وصيه أمير المؤمنين (عليه السلام) وعترته الطاهرة بقوله في موقف الغدير نفسه.

)أيُها الناس ، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي أمر ، وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر ، ثم ابني الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر إلى اخره.(

والمعنى القريب لهذه الاولوية المطلقة : ان هؤلاء الاصفياء هم مثل الحق ، وما يصدر عنهم هو عنوانه الذي يهدف الانسان في مسعاه ويرنو اليه في أعماق ذاته ، فلا غرو حينئذ ان يصبح نبراساً له في التطلع إلى الكمال ونوراً يستهدي به في الحياة..

وهكذا يبدو عمق ولاية الاصفياء في كيان الانسان كما تبدو بعض متطلبات الوفاء بمسؤولياتها الكبرى لدى المؤمن.

فالتولي لهؤلاء الاصفياء ليس قضية مفروضة على الانسان يحدها التزامه ببعض الامور التي يلتزمها في حياته مما هو وراء ذاته.

وهو ليس سلوكاً عملياً يجسد فيه المرء انقياده لتلك الامور فيما تفرضه عليه ..

كلا أبداً .. وانما هو ـ قبل هذا وذاك ـ بعد ذاتي في تكوين الانسان نفسه ، وركن عميق من أركان شخصيته ، ورصيد مبدئي في مكوناتها ، حيث فطرها الله على الحق ، وعلى التطلع اليه والاستمساك بهداه..

ومن هنا اختلفت النتائج التي تنعكس على أعماق شخصية الانسان ذاتها ، في موقفه تجاه هؤلاء الاصفياء ايجاباً أو سلباً في الاتباع لهديهم أو عدم الاتباع ، وفي الطاعة لأمرهم أو العصيان .. وهو اختلاف يبرز في هذه الاعماق ذاتها ، وفي استقامة الشخصية وصحتها ، قبل أن تبرز في الحياة العامة وسلامتها في المجتمع.

ولا محيص عن هذا الاختلاف بعد أن كانت الولاية ـ كسائر حقائق الاسلام وكبعد دخيل فيها جميعاً ـ ذات أرصدة تكوينية قبل ان تصبح أحكاماً تكليفية أو التزاماً فكرياً أو عملياً.

اذن ، فالمؤمن ـ ولكي يضمن لنفسه بلوغ الغاية المرجوة له في توليه لأولئك الاصفياء والنجباء (عليهم السلام) عليه أن يجعل من أعماق ذاته محتوى لأنوارهم ، ويبني على رصيد كامل منها جميع مكونات وجوده وشخصيته ، قبل أن ينطلق منها في التعامل مع مختلف جوانب الحياة التي يعيشها ، ويستقيم في سبيل الكمال الذي يطلبه.

وحق للولاية أن تكون احدى أهم القواعد الاساسية في بنية المؤمن ، بل وحتى أن تكون هي القاعدة الوحيدة في هذا البناء المحكم ، حين تؤخذ بمفهومها الاسلامي ـ الذي يمتد إلى حقائق الاسلام كافة ـ اذ لابد أن تصاغ من خلالها جميع مكونات الذات ، ويطبع بطابعها كل ما يصدر عنها من مواقف وتصورات.

فعليها يجب أن يقوم جميع ما يملكه الانسان من طاقات فكرية ونفسية ووجدانية ، قبل ان تتمحور عليها توجهاته وأخلاقه والتزاماته وسلوكه . لأن أولئك الاولياء النجباء) عليهم السلام) ـ كما علمنا ـ هم المظهر القائم لدين الله تعالى والشواهد الحية للمعاني الرفيعة التي يستكمل الانسان بها وجوده

في هذه الحياة ككائن رشيد ميزه الله عزّ وجل بالعقل والاختيار ، وأعده لخلافته في هذه الارض.

وسيجد الانسان حينئذ ـ بهذه الولاية الاسلامية وهؤلاء الاولياء المصطفين ـ وحدة القيم العليا التي يتطلع اليها في حياته ووجوده ، فقد شاء الله تعالى ان يكون هؤلاء الاصفياء (عليهم السلام) شواهد كمآله في الانسان ، ومجلى عظمته في الخلق ، ودلائل لحكمته في الايجاد والتدبير.

وسيرى أن كل موقف من مواقفهم ، وكل حالة من حالاتهم ، وكل سمة شخصية فيهم ، هي مظهر لذلك الكمال والعظمة والحكمة.

وهكذا يبدو المدلول الحقيقي لمودة ذوي القربى ، وحب أهل البيت (عليهم السلام (عامة ، وحب علي بن أبي طالب (عليه السلام) خاصة ، حيث تؤكده نصوص الاسلام في كل مناسبة.

كما تبدو العوامل التي من أجلها جعل الله تعالى لتلك المودة وهذا الحب نتائجها الكبرى التي ذكرتها مصادر الاسلام في سلامة الانسان وسعادته في حياته الدنيا والاخرة ، مقابل النتائج والاثار السلبية التي سيقع فيها مع استكمال لتلك المودة وذلك الحب أو في بغضه لأولئك النجباء.

)يا أيها الناس ! أوصيكم بحب ذي أقربها : أخي وابن عمي علي بن أبي طالب ، فانّه لا يحبه الا مؤمن ولايبغضه الا منافق . من أحبه فقد أحبني ، ومن إبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني عذبه الله عزّ وجل) (٩. (

)يا علي ! أنت سيد في الدنيا وسيد في الاخرة . حبيبك حبيبي ، وحبيبي حبيب الله ، وعدوك عدوي وعدوي عدو الله ، والويل لمن أبغضك بعدي) (١٠. (

)واني رسول الله اليكم غير محاب لقرابتي ، هذا جبرئيل يخبرني أن السعيد ـ حق السعيد ـ من أحب علياً في حياته وبعد موته ، وان الشقي كل الشقي من أبغض علياً في حياته وبعد موته))١١.)

)عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب) (١٢. (

)حب علي حسنة لا تضر معها سيئة ..) (١٣.(

) ما ثبت الله حب علي في قلب مؤمن فزلت به قدم الا ثبت الله قدميه يوم القيامة على الصراط) (١٤(

)حب علي يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب) (١٥. (

نعم وصدق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم... (

وواضح ـ حينئذ انه ليس ذلك الحب الذي لا يتجأوز آفاق العاطفة من نفس الانسان ، وانّما هو الحب الذي بنيت عليه جوانح الانسان كافة ، فكان أساساً لوجودها ، ومحوراً لما يصدر منها إلى الجوارح ،

من تصورات وإرادات ومواقف وكلمات وأحوال .. إلى آخره.

وانّما هو النور الذي تضيء به آفاق شخصية الانسان فلا يرى ولا يسمع ، ولا يمضي الا حيث هداه والا حيث رشده وبصائره في الحياة..

وطبيعي ان تتخذ الولاية حينئذ دورها في الاخذ بيد الانسان إلى حيث رسمه الله تعالى له من استقامة مع الحق وكمال في سبيله فهي المظهر السامي للطف الله ورحمته بالعباد ..

وسلام على أولياء الله ومنتجبيه..

والحمد لله أولاً واخراً وله الشكر والمنة..

الهوامش:

- 1المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ص 128.

- 2فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ٢ ، ص ٢١٤ عن كتاب حلية الاولياء) : ج 1ص ٨٦.

- 3المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ، ص ١٥١.

- 4اسد الغاب : ج ٥ ص ٣١٧ ومصادر اخرى.

- 5المائدة : ٥٦.

- 6فضائل الخمسه من الصحاح الستة : ج ٢ ص ١٥ ، عن تفسير الدر المنثور للسيوطي في تفسيره.

7- الأحزاب :٦.

8- النساء : ٦٤.

9- فضائل الخمسة من الصحاح السته : ج٢ ، ص١٩٩ ، عن كنز العمال : ج٧ ، ص١٤٠.

10- المستدرك على الصحيحين : ج ٣، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

11- مجمع الزوائد : ج ٩ ، ص ١٣٢.

12- فضائل الخمسه من الصحاح السته : ج ٢ ، ص ٢١٨ ، عن تاريخ بغداد : ج ٤ ، ص ٤١٠ .

13- المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢١٩ ، عن كنوز الحقائق : ص ٢٦.

14- المصدر السابق : ص ٢٢٠ ، عن كنز العمال : ج ٦ ص ١٥٨.

15- المصدر السابق : ص ٢١٩ ، عن الرياض النضرة : ج ٢ ، ص ٢١٥.

مصادر البحث

1-القرآن الكريم.

2-الاسلام : ينابيعه ، مناهجه ، وغاياته ـ محمد أمين زين الدين . ط ٢ . مطبعة الاداب ـ النجف.

3-احقاق الحق وازهاق الباطل ـ القاضي التستري ـ تحقيق وتعليق السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ن المكتبة الاسلامية ـ طهران.

4-اسد الغابة في معرفة الصحابة ـ علي بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الاثير . ط أوفست ن المكتبة الاسلامية ـ طهران.

5-اصول الكافي ـ الشيخ محمد بن يعقوب الكليني ـ ن مكتبة الصدوق ـ طهران سنة ١٣٨١.

6-البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ن مطبعة السعادة ـ مصر.

7-تهذيب التهذيب – احمد بن حجر العسقلاني – أوفست على مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية – آلهند – حيدر اباد الكان سة ١٣٢٦ ن ، دار صادر – بيروت.

8-تاج العروس – السيد مرتضى الزبيدي – أوفست على ط الاولى – الطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر سنة ١٣٠٦هـ ن ، دار ليبيا للنشر والتوزيع . بنغازي.

9-التفسير الكبير – ابي بكر الرازي ط الاولى ن التزام عبد الرحمن محمد – القاهرة.

10-تاريخ الامم والملوك – محمد بن جرير الطبري ط ، ٢ ، ن مطبعة الاستقامة – القاهرة سنة ١٣٥٨.

11-حق اليقين في معرفة اصول الدين – السيد عبد الله شبر – مطبعة العرفان . صيدا سنة ١٣٥٢.

12-الدر المنثور في التفسير بالماثور – جلال الدين اليوطي . ن ، المكتبة الجعفرية والمكتبة الاسلامية – طهران سنة ١٣٧٧هـ.

13-دلائل الصدق – الشيخ محمد حسن المظفر – ن ، مطبعة ثابان – طهران.

-14ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى – محب الدين احمد بن عبد الله الطبرى – ن ، مكتبة القدسي – القاهرة سنة ١٣٥٦.

-15شرح نهج البلاغه – ابن ابي الحديد تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم – ن ، دار احياء الكتب العربية – مصر سنة

-16شواهد التنزيل لقواعد التفصيل – عبيد الله بن احمد المعروف بالحاكم الحسكاني الحذاء الحنفي النيسابوري – ط الاولى- تحقيق محمد باقر المحمودي – ن، مؤسسة الاعلمي بيروت سنة ١٣٩٣.

-17صحيح البخاري ، ن ، مصطفى البابي الحلبي – القاهرة سنة ١٣٧٧.

-18صحيح الترمذي – تحقيق ابراهيم عطوة – ن ، شركة البابي الحلبي – سنة ١٣٨٥.

-19صحيح مسلم ـ ن ، محمد علي صبيح ـ القاهرة سنة ١٣٨٠.

-20الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ ن دار صادر بيروت سنة ١٣٨٠.

-21الغدير في الكتاب والسنة والادب ـ الشيخ عبد الحسن الاميني ـ ط الاولى ـ مطبعة العربي سنة ١٣٦٤.

-22فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها من الكتب المعتبرة عند أهل السنة والجماعة ـ السيد مرتضى الفيروزآبادي ، ن ، دار الكتب الاسلامية ـ النجف سنة ١٣٨٤.

-23كتاب سليم بن قيس ، ن ، المطبعة الحيدرية ـ النجف.

-24مجمع الزوائد ـ علي بن أبي بكر الهيثمي ـ ن مكتبة القدسي ـ القاهرة سنة ١٣٥٢.

-25مسند الامام أحمد بن حنبل ط الأولى ـ دار صادر ـ بيروت سنة ١٣٨٩.

-26المستدرك على الصحيحين ـ أبو عبد الله محمد المعروف بالحاكم النيسابوري ـ ن مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض سنة ١٩٦٨ م.

-27الميزان في تفسير القرآن ـ السيد محمد حسين الطباطبائي ـ ط الأولى ، ن ، دار الكتب الاسلامية طهران.

-28نهج البلاغة ـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح ـ بيروت سنة ١٣٨٧.

-29النهاية في غريب الحديث والأثر ـ مجد الدين بن محمد بن محمد الجزري المعرف بابن الاثير- المطبعة العثمانية ـ مصر سنة ١٣١٢ هجرية.

-30وسائل الشيعة ـ الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ـ تحقيق الشيخ محمد الرازي ، ن، المكتبة

الاسلامية ـ طهران سنة ١٣٨٨.

-31وقعة صفين ـ نصر بن مزاحم ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ ط الأولى ـ القاهرة .

-32ينابيع المودة ـ الشيخ سليمان الحسيني البلخي القندوزي ـ ط الثانية ـ مكتبة العرفان ـ صيدا.

-33الصراط المستقيم إلى من حقه التقديم ـ لأبي محمد علي بن يونس العاملي البياضي ـ ن ، المكتبة المرتضوية سنة ١٣٨٤.